جامعة مولود معمري– تيزي-وزو

مخبر الممارسات اللغوية

مجلة

الممارسات اللغوية

العدد السادس والعشرون (26)

2014

ISSN : 2170-0583

مخبر الممارسات اللغوية

جامعة مولود معمري – تيزي–وزو

الجزائر

الهاتف: 00 14 41 026

الناسوخ: 00 14 41 026

البريد الإلكتروني: laboling@yahoo.fr

الهيكل الإداري للمجلّة

ـ **المدير الشّرفي:** أ. د ناصر الدين حناشي؛

ـ **مدير المختبر:** أ. د صالح بلعيد؛

ـ **رئيسة التّحرير:** الجوهر مودر؛

ـ **هيأة التّحرير:** محمد الأمين خلادي، ميدني بن حويلي، فتيحة حدّاد، حياة خليفاتي، علجية أيت بوجمعة، عيني بطوش، ريش بوثلجة، علجية أوطالب.

ـ **الهيأة الاستشاريّة:**

- محمد العربي ولد خليفة: رئيس البرلمان الجزائري؛
- أبو عمران الشيخ: رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر؛
- عبد الرحمان الحاج صالح: رئيس مجمع اللغة العربية الجزائري؛
- محمود فهمي حجازي: رئيس جامعة نور مبارك في طشقند؛
- محمود أحمد السيد: نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق؛
- سالم شاكر: باحث في المازيغيات في inalco بفرنسا؛
- وفاء كامل فايد: أستاذة اللغويات في جامعة القاهرة؛
- علي القاسمي: خبير في الأسيسكو وباحث في المصطلحات والمعاجم؛
- عبد السلام المسدي: أستاذ كرسي في جامعة تونس؛
- Valérie Orlando, Professor,University of Maryland, U.S.A.
- Kathryn Lafever, Professor, University of Miami, U.S.A.
- Zerar Sabrina, Maitre de conférences, University of Tizi-ouzou, Algiers.

ـ **المدير الفنّي: أ د صلاح يوسف عبد القادر.**

مجلّة الممارسات اللّغوية مجلّة علمية عالمية محكّمة

قواعد النّشر في المجلة

1ــ مجلة **(الممارسات اللغوية)** لسانُ حال المختبر، فتستقبل كلّ الأبحاث/ المقالات/ التحقيقات/ سبر الآراء/ بيانات التسائيل/ حصائل الاستبانات... ذات العلاقة بالممارسات اللغوية؛

2ــ ترحّب المجلة بكلّ من يرغب نشر بحثه الذي يدخل في إطار اختصاص المجلة (الممارسات اللغوية)؛

3ــ تنشر المجلة في طيّ أوراقها ملفات خاصة حول موضوع واحد، كما تنشر موضوعات متخصّصة في عنوان مستقل عن المجلة، يصدر في شكل كتاب متخصّص؛

4ــ تَنْشر مجلةُ **(الممارسات اللغوية)** البحوثَ المكتبية والدراساتِ الميدانيةَ والنّصوصَ المحقّقةَ أو المترجمةَ أو مراجعاتِ الكتب المتعلّقةِ بالعربية وآدابها؛

5ــ يقدّم البحث في صورة ورقية، يذكر الباحث: اسمه ولقبه ودرجته العلمية والمؤسّسة التي ينتمي إليها، أو المهنة التي يمتهنها؛

6ــ تُرسَل البحوثُ إلى رئيس تحريرِ مجلة **(الممارسات اللغوية)** بجامعة مولود معمري بتيزي وزو في نسخة ورقة بريدية مصحوبة بنسخة قُرصية، أو تُرسَل عن طريق بريد المخبر الإلكتروني وهو laboling@yahoo.fr

7ــ تَنْشر المجلّةُ البحوثَ الأصيلة المعدّة أصلاً باللغة العربية، كما تَنْشُر البحوثَ المحرّرةَ باللغاتِ: المازيغية والإنجليزية والإسبانية والفرنسية، شرط أن يتصدّرها ملخصٌ باللغة العربية؛

8ــ تنشر المجلةُ البحوثَ ذات اختصاصِ المجلةِ في بُعدها العام؛ بعد أن تخضعَ للتحكيم ولا تردّ إلى أصحابها سواءٌ قُبلت أم لم تُقْبل؛

9ــ يتولّى تحكيم البحث محكّمان أو أكثر حسب هيأة التحرير؛

10ــ يُشترَط في البحث المقدّم للنشر ألاّ يكون قد نُشِر سلفاً، إلاّ إذا كان البحثُ قد أضيف فيه نسخة مزيدة ومُنقّحة أو من الأبحاث التي تستحقّ النشرَ مرّة ثانية؛ على أن يشيرَ صاحبُه إلى مكان وتاريخ صدوره؛

11ــ كلّ بحثٍ منشورٍ في مجلة **(الممارسات اللغوية)** لا يُنشر في قناة أخرى إلاّ بالإشارة إلى أسبقية صدوره في هذه المجلة، ويشير إلى ذلك في صدر القناة التي ظهر فيها؛

12ــ يُكافأ صاحبُ البحثِ المنشور بخمسِ (5) نُسَخٍ من المجلة التي نُشِر فيها بحثُه؛

13ــ على صاحبِ البحث التقيّد بشروط استقبال البحث وهي:

- التقيّد بالمعايير العلمية والأكاديمية المُتعارف عليها من توثيق واستخدام للمصادر والرسوم، والتفريق بين التهميش للكتب والتهميش للمجلات، واستعمال علامات الوقف، وكلّ متعلّقات المنهجية...
- كتابة البحث بخط simplified Arabic ببنط 13؛
- طول الكتابة 24 بعرض 12؛
- توضع الرسوم والبيانات ضمن إطار 12 x 24؛
- المسافة بين السطور 1.0؛
- الهوامش في آخر البحث متسلسلة ومكتوبة آلياً، ببنط 12؛

14ــ يلتزم صاحبُ البحث بالتعديل حالةَ ما أقرّ المحكّمون نشرَه بشرط التعديل؛

15ــ الأبحاثُ المنشورة في مجلة **(الممارسات اللغوية)** تعبّر عن أصحابها ولا تعكس توجّهاتِ المختبر أو جامعة مولود معمري، أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الدولة الجزائرية؛

16ــ ترسل الأبحاث عن طريق البريد على العنوان التالي: السيد رئيس تحرير مجلة الممارسات اللغوية/ مخبر الممارسات اللغوية. جامعة مولود معمري. تيزي – وزو. الجمهورية الجزائرية.

روابط الاتّصال:

ــ البريد الالكتروني: laboling@yahoo.fr

ــ الهاتف الثابت: 026213291

ــ الناسوخ: 026411400

كلمة العدد

يسر مختبر الممارسات اللّغوية أن يتحف قرّاءه بمجموعة من مقالات التي تتدرج في محاور مختلفة، فقد تناول المقال الأوّل مصطلح الإمالة الذي اختلف بشأنه اللّغويون والقرّاء، أدي إلى إطالة الحديث بشأنه، وتشعّبه ممّا استدعي الوقوف عنده تحليلا وتمثيلا وتعليلا، بتبيان مفهومه، والاختلافات الواردة حوله ومواضعه، وتأثيراته الدّلاليّة. كما وقف هذا العدد على غرار كثير من الأعداد على مختلف القضايا التي تخصّ منظومتنا التربوية، وبالتحديد ما يواجه المدرسة الجزائرية من التحديات في إطار العولمة، وانتهاج سياسة إصلاح شاملة، إن على مستوى المواد التّعليمية أو المناهج والوسائل المعتمدة، والتي من أهمها المستندات التربوية التي نالت اهتمام الباحثين باعتبارها تحدّد الإطار العام للتوجه التربوي الحديث، فتساءلوا عن مدى مسايرتها الحراك التربوي في ظل مقاربة الكفاءات؟ وفي سياق تعليم اللغات، يحمل هذا العدد دراسة قيمة بعنوان(تعليم النحو العربي بين نظرية العامل الموروثة ونظريات البحث اللساني) حاول صاحبها الإجابة عن الإشكالية: ما مدى كفاءة نظريات البحث اللساني من حيث التنظير والتطبيق في وصف الظواهر اللغوية في العربية، مقارنة بنظرية العامل الموروثة؟ وقدم نموذج النظرية الخليلية لعبد الرحمن الحاج صالح، ونموذج النظرية التوليدية التحويلية للفاسي الفهري، ونموذج النحو الوظيفي لأحمد المتوكل؛ ليستشف من خلالها مدى كفاءة هذه النماذج النظرية المُقترَحة في وصف الظواهر النّحوية في العربية وبحثت دراسة أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها في (واقع استخدام أساتذة التعليم العالي للحاسوب التعليمي= وانتهت الدراسة التي اتخذت من قسم اللغة العربية بجامعة أدرار أنموذجا إلى أن هناك إقبالا وقبولا عند هذه العيّنة لفكرة استعمال

الحاسوب في التعليم، باعتباره وسيلة حديثة فعالة، وفي البحث العلمي كونه أداة طيّعة متى أحسنا استخدامها.

كما خصص هذا العدد حيزا لدراستين ممتعتين تناولتا النص القرآني تناولت الأولى موضوع (جماليات الإيقاع الموسيقيّ ودلالته في القرآن) وأبرزت فيها الباحثة بعض الجوانب المهمة من الإعجاز الصوتي والنّغمي في القرآن الكريم، والتي من خلالها يزداد إدراكنا لقوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرتِيْلاً﴾ لأنّ التّرتيل يبرز الأصوات والطاقات النّغمية ذات الأثر العجيب في النّفس، حيث لا يجد السامع بدا من الإنصات متجاوبا مع ما يسمع ليتدبّر حينا، وليتهيّب ويرتدع حينا آخر أو ليستمتع بالجمال الذي يأسر الروح، والقلب، والعقل. أما الدّراسة الثانية فتناولت "الشخصيات وتقديمها في السرد القرآني" وانتهت إلى أن المساحة السردية التي تشغلها قصص الشخصيات الإيجابية، ووسائل تقديمها المختلفة أكثر بكثير من المساحة السردية التي تشغلها قصص الشخصيات السلبية ووسائل تقديمها، وهذا التباين في الحجم والنوع يمكنه أوعزه الباحث إلى تفضيل السرد القرآني الجانب الإيجابي وتقديمه بشكل أبرز مقارنة بالجانب السلبي الذي ورد أيضا بارزا ومشخصا لكن بدرجة أقل.

ونرجو أن ينال هذا العمل قبول القارئ، وننتظر منكم إهداء العيوب.

عن هيئة التّحرير.

الفهرس

مصطلح الإمالة عند اللّغويين والقرَّاء بين المفهوم والتَّعليل *د. سعاد بسناسي، ج/ وهران السَّانية.*	11
دليل المعلم بين الاستعمال المطلق وحرية الإبداع ــ معلمو المدرسة الابتدائية نموذجاــ *أ. صليحة جبروني، ج/مولود معمري بتيزي- وزو.*	19
المستندات التربوية في ظل المقاربة بالكفاءات بين النجاح والإخفاق – كتاب السنة الثالثة ثانوي – أنموذجا. *أ. نوارة ولد أحمد، ج/ مولود معمري تيزي- وزو.*	37
تعليم النحو العربي بين نظرية العامل الموروثة ونظريات البحث اللساني *أ. ياسين بوراس، ج/ مولود معمري-تيزي- وزو.*	49
واقع استخدام أساتذة التعليم العالي للحاسوب التعليمي – قسم اللغة والأدب العربي بجامعة أدرار أنموذجا- *د.أمال بوخريص، ج/ أدرار.*	85
المبتذل من خلال كتاب البخلاء للجاحظ ــ دراسة معجمية ــ *أ. سعيد فاهم، ج/ مولود معمري تيزي-وزو.*	107
جماليّات الإيقاع الموسيقيّ، ودلالته في القرآن الكريم – دراسة من الحزب 43 إلى48 – *أ. كهينة بناي، ج/ مولود معمري تيزي-وزو.*	115
الشخصيات وتقديمها في السرد القرآني *د. ملفوف صالح الدين، ج/ خميس مليانة.*	153
سلطـــــة الغموض في التأسيس لشعرية الخطـــــاب *أ. تركي امحمَّد، ج/ عبد الرحمـــــن بن خلـــــدون بتيارت.*	179

سيميائيّة الاستعارة *أ. نادية ويدير، ج/ تيزي- وزو.*	189
مالك بن نبي: فكر يحتاج إلى تجسيد *أ. يوسف يحياوي، ج/ بجاية.*	207
تجليات القضية الفلسطينية في الشعر الشعبي الجزائري ديوان المدني رحمون البسكري نموذجا. *د/ عبد اللطيف حني، ج/ الطارف.*	219
LA REVOLUTION ALGERIENNE DANS LE ROMAN ALGERIEN D'EXPRESSION ARABE *MOHAMED BOUABSA*	03

مصطلح الإمالة عند اللّغويين والقرَّاء
بين المفهوم والتَّعليل

د. سعاد بسناسي
جامعة وهران السَّانية

الملخّص: الإمالة (INFLEXION) منطوق لغويّ يوحي معناه بالخروج عن المعتاد، وفي مجال الدّراسات الصّوتيّة هو ميل بالفتحة عن مسارها الأصليّ وتتمثّل الإمالة عند القرّاء في الميل من اتّجاه الفتح إلى الكسر، وهي عند اللّغويين غير ذلك، وأكثر من ذلك. وحديث الإمالة طويل مختلف فيه، جمع بين الظّاهرة والتّلوين، ممّا يستدعي الوقوف عنده تحليلا وتمثيلا وتعليلا، بتبيان مفهومه والاختلافات الواردة حوله، ومواضعه، وتأثيراته الدّلاليّة.

الإمالة مفهوم وموقعيّة: الإمالة تركيبة صوتيَّة توحي بالاقتراب والابتعاد معاً لأنَّ الميل عن الشَّيء هو ابتعاد عنه، وفي الوقت ذاته هو اقتراب من غيره؛ وتوقَّف أصحاب المعاجم عند الشقّ الأوَّل منها بقولهم: «الميل: العدول إلى الشّيء والإقبال عليه»[1] ولم يتصدّوا لضدّ العمليّة التي تعني كلّ إمالة عن شيء هي ابتعاد منه واقتراب من غيره. هذا فحوى المفهوم، أمَّا في مجال مستويات الدِّراسة اللّغويَّة والصَّوتيَّة أوّلها، فللإمالة أحكام وأحوال وخصائص.

إنَّ الكمّيات الاتِّساعيَّة للصَّوائت العربيَّة تسير في اتِّجاه عمودي، والصَّوت المتوسِّط منها يمثِّله صائت الفتحة، ولتوضيح هذه الوضعية نتصوَّر للصَّوائت العربيَّة مسارا له بداية ونهاية وجانبان، والصَّوت ظاهرة منتقلة بدايتها سكون ونهايتها سكون، والفتح ضدّ الإغلاق، والإغلاق هنا يمثِّله سكونا البداية والمنتهى والفتح تمثِّله الفتحة المتَّجهة في خط أفقي مستقيم، وذلك إذا راعينا عمليّة مرور الهواء في القناة الصَّوتيَّة، وتصوَّرنا ذلك الممر قناة رقيقة.

ولكن هناك تصوّر آخر نراه أدقّ وأوضح، وهو تشبيه القناة الصَّوتيَّة بشكل هندسيّ مستطيل، ويتوسَّطه خط مسار الفتحة، مبدؤه سكون وآخره سكون، وعن جانبيها الضمَّة من أعلاها والكسرة من أسفلها؛ وفي حال ما إذا غير مسار الفتحة اتِّجاهه من خطه المستقيم في اتِّجاه الضمَّة أو الكسرة سمي ذلك التَّحوُّل إمالة[2] ومن هنا، تكون الإمالة إمَّا من الفتحة في اتِّجاه الكسرة أو الضمّة، بالاقتراب من إحداهما.

الإمالة عند اللّغويين: لقد رجّح اللّغويّون التَّوجيه الصَّوتي في الإمالة نحو الكسر، وسمَّوا التَّوجه نحو الضّم تفخيما، والإمالة هي أن تنحو بالألف نحو الكسرة[3] وتوسَّع بعضهم في التَّفصيل فقال فيها: (الإمالة هو أن ينحى بالألف نحو الياء، وبما قبلها من الفتحة نحو الكسرة)[4] وفي هذا النَّص تفصيل وتنويع، حيث صارت الإمالة نوعين واحدة من الفتحة وأخرى من الألف. وإلى هنا يكون حكم الإمالة الوجوب، لولا من قال في الإمالة (وهي أن ينحى بالألف نحو الياء جوازا)[5].

وقد ظهر ممّا تقدَّم عرضه من نصوص، في تصور الإمالة اضطرابا فهي أن تنحو بالألف نحو الكسرة وبالألف نحو الياء[6] مرَّة، وبالألف نحو الياء مرَّة ثانية أو بالألف نحو اليّاء وبما قبلها نحو الكسرة وهو المرجَّح عندنا ومن هذا النَّص تبدأ إشكالية الإمالة في الإزالة من جهة، والتَّعقيد من جهة أخرى. إزالة الشك في وجودها وجوازها، والتَّعقيد في مواطنها ووظيفتها.

الإمالة من جميع ما سبق عرضه من نصوص هي توجيه كميتي الفتحة القصيرة والطَّويلة نحو الكسرة، دون الوصول إلى الياء، ولذلك قالوا ينحى بالألف نحو الياء دون أن يصل إليها، وإلاَّ دخلنا في مجال القلب والإبدال.

وتبقى إشارة واجب ذكرها، وهي أنَّ الإمالة ليست ظاهرة لغويَّة عامَّة، بل هي تلوين صوتي تختص به قبائل عربيَّة دون غيرها ونحن نعرف أنَّ الإمالة لغة تميم

وأسد وقيس[7] وقد شاعت الإمالة في لهجات هذه القبائل في حين شاع الفتح في لغات بقيَّة القبائل العربيَّة فكان الفتح أصلا، والإمالة فرعا له.

الإمالة عند القرَّاء: ومع جميع ما قيل في ظاهرة الإمالة، لم يأت لها الدَّارسون بتعليل ظهورها في جهة دون أخرى أو قبيلة دون غيرها على ما أوردناه لهم وإنَّما علَّلوا وظيفتها التي أجمعوا فيها على أنَّ من سنن العرب تقريب الأصوات اللينة بعضها من بعض، لما في ذلك من مشاكلة وتجانس والتماس للخفَّة التي رغبوا فيها ومالوا إليها[8] مع ما في هذا النَّص من غموض في مصطلح اللّين.

ويأتي الغموض من عدم وضع علامة خطيَّة للإمالة، عند المحدثين، وكان سيبويه جعل لها ألفا تحت الصَّوت الممال، وفي المصحف المرتَّل على قراءة ورش لها نقطة من أسفل الصَّوت الممال، وهي كثيرة ذكرناها من قبل، أمَّا إذا رصدنا هذه العلامة في المصحف المرتَّل بقراءة حفص فهي موضع واحد من قوله تعالى: ﴿مجريها ومرسها﴾[9] حيث ظهرت الياء بعد الرّاء من (مجريها) وهي إمالة كبرى، وقد قلنا من قبل الإمالة هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، أو الألف نحو الياء، دون أن يصير كلّ منهما ذلك الصَّوت المنحو نحوه. وبعد هذا يبقى جانب مهم وهو مدى تأثير الصَّوت الممال في السِّياق.

أثر الإمالة في السِّياق: إنَّ صوت الإمالة، مع ماله من أهمّية في تلوين الصَّوت بالخفَّة والانسجام يبقى ظاهرة سمعيَّة أكثر منها دلاليَّة، وذلك لسببين في ما نرى أوَّلهما غياب رمز بصري يحدِّد للإمالة موقعا وكمية، وثانيهما عجزها عن تحويل الدّلالة الأصليَّة، وتنويعها إلاَّ قليلا؛ ولئن وقفنا عند القرَّاء، وأكثر صور الإمالة في القراءات[10] فقد بقيت لنا وقفة معها عند اللّغويين.

أشرنا إلى أنَّ سيبويه وضع للإمالة ألفا تحت الصَّوت الممال؛ ومن أمثلتها في تحويل الصَّوت دون المعنى صيغة (طغى، طغا) التي جاءت مرَّة بالألف المقصورة في قوله تعالى: ﴿إذهبا إِلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى﴾[11] ومرَّة بالألف الممدودة

في قوله تعالى: ﴿ولمَّا طغا الماءُ حَمَلْناكُمْ في الجاريةِ﴾[12] ومن هنا يظهر تأثير الإمالة في تحويل المباني الإفراديَّة.

جاءت الصِّيغتان مختلفتين، وأبقى عليها الدَّارسون دون تعليل، وجمع ابن مالك الصِّيغ ذات الوجهين في منظومة سمَّاها ما ورد من الأفعال بالواو والياء، وفيها بيت يقول فيه:

وطغوت في معنى طغيت ومن قنى شـــــــــيئا يقول قنوته وقنيته[13]

جاء في البيت صيغتان يجوز فيهما الواو والياء، ومع أنَّ هذه ظاهرة هي صرفيَّة، لم يعلِّل الصَّرفيّون ورودها وذلك لعدم توظيفهم قواعد الصَّوت وقوانينه وفي الصِّيغتين عناصر تمنع الإمالة فيهما وهما: الطّاء والغين، وتمنع الإمالة سبعة أحرف وهي، الصَّاد والضَّاد والطَّاء والظَّاء والغين والخاء والقاف إذا وليت الألف قبلها أو بعدها[14] وقد اتَّضحت معالم هذا النَّص أكثر عند من قال: (وممَّا يوجب فتح الصَّوت بالألف، مجاورته لأحد أصوات الاستعلاء التي هي الخاء والغين والقاف، والظَّاء والضَّاد والصَّاد والطَّاء، ولهذه الأصوات أحوال بحسب مواقعها من الألف تقديما وتأخيرا عنه، وقربا وبعدا منه، وفي حال انفصالها اختلاف)[15] ومن هنا كان للألف الممال وضعيّات مختلفة ولكلٍّ وضعية حكم.

حصر الدَّارسون تلوينات الإمالة في كمية الألف وجعلوها أربعا، أوَّلها، أن تكون منفصلة بحرف نحو: (عماد، وثانيها أن تكون منفصلة بحرفين أولهما ساكن نحو شملال، وثالثها أن تكون منفصلة بحرفين متحركين ثانيهما الهاء، نحو يريد أن يضربها، ورابعها أن تكون منفصلة بحرف ساكن ومتحرّكين، أحدهما الهاء، في مثل فدرهماك)[16] والصِّيغتان السَّابقتان تخلوان من وجود أي شرط من هذه الأربعة ومع ذلك أميلتا (طغا وطغى). ولما لم يهتد الدَّارسون إلى التَّعليل الصَّوتي للإمالة، حشروها تحت عنوان ما ورد بالواو والياء، وبذلك حوَّلوها إلى المجال الصَّرفي الإفرادي.

وما جمعه ابن مالك تحت عنوان ما ورد بالواو والياء، بلغ ستّة وستين بيتا، في بعض الأبيات صيغتان[17] جميعها مردّها الإمالة والفتح، فمن فتح رسم الصِّيغة بالألف الممدودة في الماضي لتصير واو أو ألفا في المضارع، ومن أمال رسمها بألف مقصورة في الماضي لتتحوّل إلى ياء في المضارع. وحلّ إشكاليّة هذه الصِّيغ لا يتأتَّى إلاَّ بالتَّحليل الصَّوتي المكاني. وهذه التَّحوُّلات جميعها صوتيَّة، ومثلها صيغ (الصَّلاة والزَّكاة والحياة) وقد أميلت جميعها نحو الكسر أو الضّم[18] ولكلٍّ إمالة تعليل.

تعليل الإمالة: من المتَّفق عليه عند القرَّاء أنَّ الإمالة ما كانت نحو الكسر. وما كان صوب الضّم يسمَّى تفخيمًا، ولكنَّنا نسمِّيها إمالةً تبعا لما قدَّمناه لها من تعريف ومن هذه النَّظرة تكون صيغة (الصَّلَوة) ممالة نحو الضَّم، والعلَّة الصَّوتيَّة في ذلك أنَّ الصَّاد مفخَّمة مستعلية مطبقة؛ واللاَّم بعدها متوسِّطة حياديَّة، فمالت كمية الفتحة مع الصَّاد نحو الضَّم، وامتدَّ صوت اللاَّم المشرب ضمًّا، فتولَّد عنها واو، وبه حصل الانسجام والتَّوافق الصَّوتي. أمَّا صيغتا (الزَّكوة والحيوة) فحكمهما مختلف عمَّا سبق.

لقد كنَّا نتوقَّع من صيغة (الزَّكاة) أن تمال نحو الياء وتكون (الزَّكية) ولكن مجيئها في القرآن الكريم بعد الصَّلاة غالبا والأولى ممالة نحو الضَّم أميلت (الزَّكوة) نحو الضَّم بقانون الإتباع والتَّذكُّر وتحقَّق للسِّياق انسجامه.

وتبقى صيغة (الحيوة) وهي أيضا ممالة لكن بقانون التَّوقُّع لا التَّذكُّر، وذلك أنَّ هذه الصِّيغة جاءت في القرآن بعد صيغة الدنيا، هكذا (الحياة الدنيا) حتى صارت الصِّيغتان كتركيب مزجي واحد، والنَّاطق (بالحياة) يتوقَّع ما بعدها نطق (الدُّنيا) بما فيها من شدَّة الدَّال وجهره، ويتهيَّأ لها، فيميل الحياة استعدادا لنطق ما بعدها وتحقيقا للانسجام أيضاً؛ وجميع هذه الصّور كمّيات وتلوينات صوتيَّة معلَّلة بقوانين صوتيَّة؛ وقد تكون هذه التَّلوينات دلاليَّة أحيانًا.

من التَّحوُّلات الدّلاليَّة الاحتماليَّة إمالة صيغة (طه) وهذه الصِّيغة اسميَّة وهي من أسماء الرَّسول ــ عليه السلام ــ وهي ممالة في قراءة ورش إمالة صغرى؛ لكن الإمالة الكبرى على غرار إمالة (مجريها) في قراءة حفص تحوِّل معنى الصِّيغة من الاسميَّة إلى الوصفيَّة؛ حيث تقرأ هكذا (طَهِ) وتصبح دالَّة على اسم الفاعل وقد جاءت بالوجهين عند ابن مالك، قال فيها: (وطهوت لحما طابخا كطهيته)[19] وتكون الصِّيغة بالوجهين طها يطهى في مثل (سعى يسعى، أو يطهو؛ وطهى يطهي كمشى يمشي) والتَّعليل صوتي في الجميع، على أن يراعى في الصَّوت مجاله ومستوياته وقواعده.

الهوامش:

1- جمال الدّين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ج11، ص636.

2- وتسمّى الإمالة كذلك بالكسر والبطح والإضجاع. إميل بديع يعقوب، شرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، حسن حمد،ج 4، ص 24، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1 (1419هج/1998). وتُسمَّى كذلك التّقليل والتّلطيف وبين بين. ينظر نشأة محمد رضا ظبيان، علوم اللّغة العربيّة في الآيات المعجزات، ص 91، دار ابن حزم، للطباعة والنشر، ط1 (1418هج/1997م). وعبد القادر محمد مايو، الوجيز في فقه اللغة، ص 50، دار القلم العربي إيهاب حلب، ط 1، (1998 م).

3- أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، المفصّل في صنعة الإعراب، ص471، قدّم وبوّب له، علي بوملحم، مط، دار الهلال، بيروت، لبنان، (1993م).

4- شمس الدين ابن الجزري، كاشف الخصاصة عن ألفاظ الخلاصة، ص391، تح، مصطفى أحمد النماس. ط1، (1983م).

5- ابن مالك، سبك المنظوم وفك المختومن ص 280، حققه وقدم له وعلق عليه، عدنان محمد سليمان، وفاخر جبر مطر. مط، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية، ط،1، (2004م).

6- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج،2، ص30. وإبـراهيم شـمس الـدين، شـرح المكودي على ألفية ابن مالك، ص 320، مط، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط،1، (1996م).

7- عبد الفتاح إسماعيل شلبي، في الدراسات القرآنية واللغوية، الإمالة في القـراءات واللهجـات العربية، ص 73، مط، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط،1، (1953 م).

8- عبد الفتاح إسماعيل شلبي، في الدراسات القرآنية واللغوية، الإمالة في القـراءات واللهجـات العربية، ص 255.

9- سورة هود، الآية 41. ينظر ذلك في تفسير الجلالين، ص 296، 297. ومحمد فريد وجـدي المصحف المفسر القسم الأول، ص 290.

10- والسور التي تشيع فيها الإمالة هي: طه، النجم، وفيها أكثر الإمـالات، المعـارج، القيامـة النازعات، عبس، الليل، الضحى، العلق، ينظر عبد الله بو خلخال، الإدغام عند علماء العربيّة في ضوء البحث اللّغوي الحديث، ص1، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1،2000،1م. وسـيد أحمـد عداد، أحكام القرآن الكريم وتاريخه، ص، 26، مط، الفن وهران.

11- سورة طه، الآية 24.

12- سورة الحاقة، الآية 11.

13- ابن مالك، الأفعال الواردة بالواو والياء، تـح، مختـار بوعنـاني، ص 27، ط 2، منقحـة ومزيدة، مط، ديوان المطبوعات الجامعيّة. (2001 م).

14- أبو القاسم الزمخشري، المفصّل في صناعة الإعراب، ص 472.

15- مكي درار، الحروف العربيّة وتبدّلاتها الصّوتيّة في كتاب سـيبويه، ص 368، ماجسـتير لغويات، قسم اللّغة العربيّة وآدابها. جامعة وهران. السّانية

16- شرح المكودي، ص321.

17- ينظر تفصيل هذا، في الأفعال الواردة بالواو والياء، لابن مالـك، تـح، مختـار بوعنـاني ص 26، وما بعدها.

18- في إمالة الضَّم ينظر، محمد عنبر، جدلية الحرف العربي وفيزيائيّة الفكر والمـــادة، ص 98 دمشق، ط،1987،1م.

19- ابن مالك، الأفعال الواردة بالواو والياء، تح، مختار بوعناني، ص 31.

دليل المعلم بين الاستعمال المطلق وحرية الإبداع
"معلمو المدرسة الابتدائية نموذجا"

أ. صليحة جبروني
جامعة مولود معمري/تيزي- وزو

مقدمة: يعتبر دليل المعلم من المراجع البيداغوجية المهمة التي تساهم في نجاعة المسار التعليمي التي تساعد المعلمين– خاصة الجدد منهم– في تحضير وبرمجة الدروس، ومن خلال هذا البحث أردنا التركيز على مدى استعمال المعلمين والمعلمات له في تحضير دروسهم، وفي استغلال محتوياته بشكل كلي أم جزئي ثمّ يجدر التفكير والاهتمام في وجوب تقييم مدى الاستعمال من خلال فترات التكوين والتربص وإدماجه من خلال هذه التربصات ولهذا قمنا بتحليل الوضع عن قرب ابتغاء الكشف وإعطاء نظرة شاملة بين تقيّد المعلمين بالدليل أو تجاوزهم أفكار أخرى تعكس قدراتهم المعرفية والإبداعية لحمل التلاميذ على الحركية الدائمة داخل القسم، وعليه هل يعتبر دليل المعلم أو دليل الكتاب المرجع الوحيد لتحضير الدروس؟ وهل يتم إلغاء بعض الفقرات أو المحتويات فيه؟ وكيف يتم اختيار العناصر التدريسية؟ وهذا بالاعتماد على إستبانة موجّه لمعلمي ومعلمات بعض المدارس الابتدائيّة على مستوى ولاية تيزي–وزو؛ لغرض تحليل الوضعية وإيضاح بعض المفاهيم ومحاولة الإجابة عن التساؤلات السابقة، لكن قبل البدء في تحليل الاستبانة كان من الواجب تحديد بعض المصطلحات التربوية التي لها صلة بموضوع الدراسة.

1– الجزء النظري:

1/1– الطريقة: Méthode وهي تحمل معنى المسلك أو المنهج، وهي الكيفيّة التبليغيّة التعليميّة الّتي يستخدمها المعلم لإيصال المحتوى التعليمي للمتعلّم لغرض تحقيق الأهداف البيداغوجيّة وتختلف نوعيّة الطرائق التعليمية باختلاف المحتوى

ومستوى المتعلّم والوسائل التعليميّة المتوفّرة فالمعلّم يراعي كلّ هذه الدواعي في الاختيار الأنسب لأحسن الطرائق الّتي تساعد التلاميذ على رفع مستواهم التعليمي ويجب أن نفرّق بين الطريقة والتعليم الّذي يمارسه المعلّم فتحليل الطريقة شيء وتحليل التعليم شيء آخر؛ لأنّ تحليل الطريقة يحدّد نوع التعليم الّذي يتمّ وفق الكتاب المدرسي بينما يرينا التعليم ما يقوم به المعلّم. هذا كما أنّ توظيف دليل المعلم يخضع إلى طريقة المعلم واجتهاده في تتبع الخطوات التدريسية والمهارات والكفاءات التي سطرها.

2/1- المنهجية: مشتقة من كلمة منهج وباللغة الأجنبية La méthodologie وهي مجموع الوسائل والخطوات المتبعة قصد تحقيق الأهداف والغايات من عملية التدريس "فهو إحدى العمليات الرئيسة للصناعة المنهجية، والّتي تختص بإدخال المنهج ونشره في التربية المدرسية...ويتم هذا عن طريق :

- إدراك شامل للنّص لتكوين فرضية للقراءة.
- إنجاز أنشطة لفهم النص من خلال قراءة لغوية.
- تحويل النص أو شرحه أو تلخيصه.
- محاولة تحليل بعض معطياته من الجانب الدلالي أو المعجمي أو التركيبي أو البلاغي."[1] ويحمل دليل المعلم هذه المنهجية وهي منهجية قائمة أساسا على التخطيط اللغوي في توجيه مراحل التعليم بمختلف مستوياته.

3/1- دليل المعلم: قال ابن منظور في لسان العرب: "الدَّلِيل ما يُسْتَدَلُّ به والدَّلِيل الدَّالُّ وقد دَلَّه على الطريق يَدُلُّه دَلالة ودِلالة ودُلولة والفتح أَعلى وأَنشد أَبو عبيد: إِنِّي امْرُءٌ بالطُّرْق ذو دَلالات والدَّلِيل والدِّلِّيلي"[2] واصطلاحا يعتبر من أهم الوسائل التعليميّة المعتمدة في العمليّة التعليميّة، شأنه في هذا كبقية الوسائل التعليميّة الضروريّة الخاصّة بها، كالوسائل السمعيّة أو البصرية أو الصور التربويّة؛ التي تعين المعلّم على رفع مستواه الفكري والمعرفي، فبها تزداد مهاراته التربويّة وكفاءاته اللّغوية ويتردّد صداها في تحسين المستوى العلمي والمعرفي للتلاميذ بأسرع وقت وأقل جهد ممكن، ويعتبر الدليل من الوثائق البيداغوجية العلمية الّتي تُرافق المعلم في المسار التعليمي وتهيئ له الطريق لتحضير وبرمجة

الدروس بما يتّفق مع حاجيات الأنشطة التعليميّة المقرّرة، وما يفرضه نشاط عن غيره من وسيلة دون أخرى، فهو الطريق الأيسر لإيصال الرسائل المعرفيّة واللّغويّة بين المعلّم والمتعلّم بعد إيضاح جملة من المفاهيم الغامضة، وعرضها باستعمال هذه الوسيلة؛ التي تعينه على الوصول إلى العالم السيكولوجي للتلميذ.

لقد جُعل دليل المعلّم المرشد الفعّال الّذي لا غنى للمعلم له؛ لأنّه ممنهج وفق خُطة بيداغوجيّة وعلمية أقرتها وزارة التربية والتعليم؛ إذ يحمل جملة من الأهداف والمحتويات والكفاءات والتقييمات التي تعتمد المقاربة النصيّة في توجيه جميع النشاطات، التي تتطلّب التفاعل بين المعلم والتلاميذ ونظرا للأهمية التي يُحظى بها على صعيد العملية التعليمية التعلميّة وفي تطوير المستوى العلمي التعلّمي للتلاميذ، نظرنا في دليل المعلم للغة العربية للسنة الخامسة ابتدائي وهي مرحلة تعليمية مهمّة؛ إذ من خلالها ينتقل التلميذ إلى إدراك بعض الظواهر النحوية والصرفية والمعجمية وغيرها من خلال ما يُقدّم إليه من شروح وتحليلات لتلك الظواهر التي يبدأ بالتعرف عليها تدريجيا، من خلال النشاطات اللغوية المتنوعة والتعلمات الأخرى الّتي تسمح له باستعمال اللّغة، سواء على الصعيد الشفهي أو الكتابي، أو على صعيد القراءة وهذه الأبعاد تُيسّر له عملية التواصل في وضعيات مختلفة، إلاّ أنّنا لاحظنا تغييرا في تسمية الدليل فبعدما كان في المقاربة القديمة يسمى (دليل المعلم) جِيء بتسمية أخرى بديلة في المقاربة الجديدة وهي (دليل الكتاب) ويبدو لنا أن لو بقيت التسمية القديمة لكان أحسن وأدل لما تحمله التسمية القديمة من دلالة مباشرة على مخاطبة المعلم نفسه دون غيره، فهي قبل كلّ شيء وثيقة بيداغوجية موجّهة له مباشرة فلو احتفظ بالتسمية وأعيدت الصياغة على النحو التالي: (دليل المعلم –كتاب اللغة العربية السنة الخامسة ابتدائي–) لكانت تسمية موحية ومناسبة لطبيعة الموضوع له، ولهذا السبب فضلت الإبقاء وتوظيف التسمية القديمة على التسمية الجديدة في هذا البحث.

وفي الحقيقة فإنّ الوثيقة تقدّم لمعلمي ومعلمات السنة الخامسة؛ جملة من التوجيهات الأكاديمية والإرشادات التربوية في كيفية تسيير الأنشطة التعليمية المقررة في كتاب اللغة العربية لهذه المرحلة، بمختلف ما تحوي من فقرات

كالقراءة والتعبير الشفهي وقواعد النحو والصرف والإملاء والمحفوظات وغيرها من نشاطات، فتقدّم له في كلّ نشاط مجموعة من الخطوات البيداغوجية للتعامل مع التلاميذ وحملهم على الاهتمام بما يسمعون وإثارة حافظتهم للنقاش والتحاور فنلاحظ أنّ دليل المعلم قدّم للمعلم طريقة بيداغوجية معيّنة مبنية على أبعاد المقاربة الجديدة، وتتمثل هذه النشاطات فيما يلي:

1- القراءة: ففي هذا النشاط يبدأ المعلم أولا في:

- يُمهّد للنص بسؤال أو سؤالين تكون لهما علاقة بالنص، بهدف إيقاظ اهتمام التلاميذ.
- يقرأ المعلّم دائما النص كاملا في الحصة الأولى ليمكن تلاميذه من بناء معنى النص العام.
- يُطلب من التلاميذ القراءة الصامتة للفقرة ويطرح حولها أسئلة.
- في كلّ حصّة قراءة يستغل الفقرات التي تمت قراءتها.
- تستغل النص استغلالا إجرائيا لإثارة المشروع.
- إعطاء الوقت الكافي للتلاميذ ليقرأ قراءة تسمح له بالوصول إلى المعنى ولا يُقاطع أبدا قبل أن ينهي الجملة على الأقل"[3] بالإضافة إلى هذه الملاحظات تقدّم له إرشادات حول سير الدرس وتقنيات أخرى يمكن له أن يوظفها في هذه الحصة.

2- التعبير الشفهي: وهو حمل التلاميذ انطلاقا من النص على خلق مشاهد أخرى مبتكرة أو إعادة تجربة مشابهة لفسح المجال لهم "للتعبير بكلّ حريّة وإبداء آرائهم"[4] وهذه الطريقة من شأنها أن تُساعد المتعلم في القدرة على المشافهة اللُغوية باللّغة العربية الفصيحة فيتمرس لسانه، ويصبح قادرا على البناء اللّغوي السليم وإنتاج جمل صحيحة المعنى والمبنى.

3- حصة التراكيب النحوية: وهنا يُطلب من المعلم أن:

- يكتب النص على السبورة، ثمّ قراءته ثمّ يطلب من بعض التلاميذ إعادة القراءة.
- طرح بعض الأسئلة لاستخراج الظاهرة النحوية التي يريد تدريب التلاميذ عليها، ثمّ يُطلب منهم فتح الكتب لقراءة ما يجب أن يتذكروه، كالجملة الاسمية هي الجملة التي تبدأ باسم ويكون مبتدأ.

4- حصة إثراء اللّغة: وهي محطة ثابتة مع كلّ وحدة تعلّمية وتتأسس على الكيفية الّتي يبنى بها المعجم فتسمح للتلميذ بإثراء رصيده بطرائق مختلفة كاستعمال الترادف والتضاد والحقل الدلالي.

5- حصة الإملاء: ويقترح الدليل على المعلم أن يتّبع نفس الخطوات التي اتّبعها في حصة التراكيب النحويّة، ولكن يُشير عليه باستعمال الألواح، ثمّ يتبعه التصحيح من قبل التلاميذ، وقدّم الدليل ثلاث تقنيات لاستغلال نصوص القراءة لأداء الإملاء؛ فالأولى هو أن يُملي المعلم على التلاميذ نصا من نصوص كتاب القراءة، والثانية هي الإملاء الذاتي بإعطاء فقرة قصيرة لهم قصد حفظها، ثمّ إعادة كتابتها دون إملائها من قبل المعلم، أمّا الثالثة فأن يعطي المعلم فقرة تتضمن على كلمات معيّنة، وفيه ظاهرة إملائية مقصودة ومطالبة التلاميذ بتصحيحها.

6- المشاريع: نجد أنّ الدليل يوجّه المعلّم إلى كيفية تمكين التلاميذ وحملهم على توظيف وإدماج المعارف السابقة والمختزنة في فكر مشروع، على أن يكون في آخر حصة للقراءة ويتم إنجازه على مراحل بعدد الأسابيع المخصصة لذلك.

7- النصوص التوثيقية: وهي إتاحة الفرصة للتلاميذ للاطلاع على المعارف في مختلف المجالات كاستغلال (المجلات، الكتب، الموسوعات...)

8- التدعيم والمطالعة: وهي ترشد المعلم إلى محاولة دمج المعارف التي اكتسبها التلميذ خلال الثلاثي وترسيخها، وهي بمثابة محطة تقويميّة، يمكن للمعلّم أن يعدل فيها بكيفيات وطرائق تتماشى مع الوضعيات التعليمية التعلمية المختلفة ثمّ محطة أخرى وهي حمل التلميذ على المطالعة والاستمرار عليها.

نلاحظ أنّ الدليل كان على قدر كبير من الدّقة في التوجيه وتبيين الأهداف الرئيسة من خلال تقديم المعلم لهذه الأنشطة، فهي حصيلة بناء منهج جديد قائم على الكفاءات فجاء الدليل بما يُوافق مفاهيمه المتمثلة في:

- التركيز على التصوّر البنائي للتعلم الّذي يعطي أهمية لنشاطات المتعلم.
- النظر إلى المتعلم على أنّه مركز العمليّة التربويّة، أي التركيز على فن التعلّم.
- اعتماد إستراتيجية دقيقة في تلقي العلوم على شكل تساؤل، تفاعل، تمرّن استدلال، وتقديم حجج.

- اعتماد المشكل منطلقا لموضوع الدراسة.
- ربط التعليم بالواقع والحياة.
- التخفيف من محتويات المواد الدراسية.
- النظر إلى الحياة من منظور عملي.
- الاعتماد على مبدأ المقارنة والتحليل.
- استثمار المعارف والمهارات وربطها بوضعيات خارج المدرسة؛ أي أن ترتبط بوضعيات تسند على حقائق ملموسة.
- الاهتمام بعامل التحفيز والإثارة للطفل، الّذي يساهم في خلق الاستعداد الفكري لعملية التعلّم.

والجدير بالذكر أنّ الدليل أشار في مواضع معيّنة منه إلى استقلالية المعلم في اقتراح تمارين في وضعيات مختلفة لحمل التلاميذ على التعلّم والاجتهاد فمثلا في المشاريع الكتابية التي توضع له يحتاج فيها إلى المساعدة حينما يشرع في الكتابة واقترح الدليل ثلاثة مظاهر، ثمّ أشار على المعلم أن بإمكانه "أن يقترح على تلاميذه سلسلة أخرى من التمارين حسب الوضعيات المختلفة حتّى يُتيح الفرصة لكلّ تلاميذه للكتابة"[5] وهو كلام يحمل في طياته مفاهيم المقاربة الجديدة الداعية إلى فسح مجال الحرية أكثر للمعلّم في استثمار معارفه المختلفة وتوجيهها للتلميذ بطريقة تلبي حاجاته وقدراته العلمية والمعرفية.

هذا ويقدم الدليل –وفق مفاهيم المقاربة بالكفاءات– للمعلم المحاور الّتي تضم كلّ ثلاثي وهي محاور تتماشى مع متطلبات السنة الخامسة، ويمكن أن نمثل لهذا المحور بالمخطط التالي:

المحور				
المشروع	الوحدات التعليمية	النص التوثيقي	الوقفة التقييمية	النص الشعري

فكلّ تلك الأنشطة التي تمّ ذكرها آنفا تقدّم وفق هذا المحور الّذي يمكّن المتعلم من إدماج مختلف معارفه، خاصة وأنّه يمرّ على محطّة تقييمية، وهي بمثابة مسح للمحور فتعيده إلى النصوص وإلى مختلف النشاطات المصاحبة لها، حيث تسمح لـــه بإعـــادة النظر فيها واكتشاف أي خلل أو نقص قد فاته في بناء تعلماته، ويهدف التقـــويم إلـــى "تحديد إلى أي مدى تمّ تحقيق الأهداف المنشـــودة، ثـــمّ تقـــدير درجـــات الطـــلاب وتصنيفهم... ومن أدواته الاختبارات التحريرية، والشفوية والعلمية والنشاطات العملية والتقارير والأبحاث"[6] الّتي تسعى إلى صقل الأفكار وتنمية المواهب والقدرات الفكرية للتلميذ، ولابدّ أن يُبنى على أسس علمية وتربوية مكتسبة؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى شـــحن التلميذ بحقائق علمية متنوّعة يضيفها إلى مدركاته السّابقة، فتؤهله للتّمييز بين الصّواب والخطأ، إضافة إلى النص الشعري وهي محطة من نوع آخر فيها يكتسب التلميذ بعدا جماليا وتنمي فيه الذوق الرفيع والإحساس بالجمال، لذلك كان الهدف منه التدريب على القراءة الجيّدة والإلقاء المعبر.

هذا، وتتلخص أهمية الدليل في:

- يعتبر المرجع الأساس الّذي يتلقى منه المعلم مجموع التوجيهات البيداغوجية.
- يعمل على ربط العملية التربوية بين المعلم والمتعلم.
- يُساعد على تحقيق الأهداف المرجـــوة مـــن العمليـــة التعليميـــة (الأهـــداف البيداغوجية من عملية التعليم)
- يتضمن غايات النظام التربوي والكفاءات المنشودة.

وبالتالي فالمعلم الكفء هو الّذي يستطيع الربط بين توجيهات الدليل ومـــا هـــو كائن في محتويات كتاب اللغة العربية للسنة الخامسة، فهو المسير والموجّه. ويمكن أن نمثل له بالرسم التالي:

الدليل ←——→ **المعلم (الكفاءة)**

كتاب اللغة العربية

2- الجزء التطبيقي: بعد تحديد مجموعة من المصطلحات المســـتعملة علـــى الصعيد التربوي، ثمّ توضيح مفهوم الدليل ومكانته عند المعلم مع التركيز على دليل المعلم للسنة الخامسة ابتدائي –مادة اللغة العربية- كان لابدّ لنا من تعزيـــز ذلـــك

بعمل تطبيقي حتّى تكون الدراسة دراسة علمية ميدانية بناء على توزيع إستبانات على معلمي المدارس الابتدائية، الموجودة على مستوى منطقة تيزي-وزو، رغبة منّا في استكمال البحث والرغبة في إيجاد تفسير وجواب عن مدى نجاعة الدليل وأهميته بالنسبة للمعلمين في إعداد الدروس وغيرها من التساؤلات التي طرحناها وصغناها في الاستبانة، التي حوت على ستة(6) أسئلة متنوعة.

1/2- تحليل الاستبانة: يبلغ عدد المعلمين الّذين يمثلون مجتمع الدراسة من المجموع الكلّي عشرة (10) معلمين من (20)عشرين معلما تمّ توزيع الاستبانات عليهم، تمّ استرجاع عشرة منها وإلغاء الأخرى فتكون النسبة الإجمالية للعينة **50%.**

1/1/2- ما رأيكم في دليل المعلم لمادة اللغة العربية؟ أجاب **45%** أنّ دليل المعلم للسنة الخامسة يلبي أحيانا احتياجات التلميذ، بينما كانت إجابة واحدة والمقدرة بـ**10%** أنّ الدليل يلبي احتياجات التلميذ، والموقف القائل بأنّ الدليل يلبي أحيانا احتياجات التلميذ يعطي انطباعا أنّ في الدليل نقصا في برمجة بعض الأنشطة سواء في إدخالها أو حذفها لذا كان من الضروري بمكان إعادة النظر في إقرار وتعليم بعض الأنشطة وتأطيرها وفق إستراتيجية تعليمية متكاملة- تُراعي الحاجات اللغوية لتلميذ السنة الخامسة ابتدائي- تضمن تحقيق الأبعاد الثلاثة للغة وهي القراءة والكتابة والمشافهة اللغوية، (ثلاثية اللغة) فامتلاك هذه الأبعاد يتوقف على انسجام الأنشطة التعليمية وتكاملها.

2/1/2- هل يعتبر الدليل المرجع الوحيد لتحضير دروسكم؟ صغنا هذا السؤال بناء على ما تحمله أفكار المقاربة الجديدة الداعية إلى تطوير المعارف وتنميتها بهدف إنتاج مشاريع تربوية علمية مستقبلية، حيث قدّرت نسبة الإجابة بـ**50%** معتبرة أنّ الدليل ليس المرجع الوحيد لتحضير الدروس، بل هناك مراجع ووثائق تربوية تثقيفية أخرى يعضدون بها هذا الدليل، كالاعتماد على بعض الكتب التراثية القديمة وبعض الحوليات المتعلقة بالقضايا النحوية أو الصرفية أو المعجمية وكذلك الرجوع إلى بعض المعاجم كلسان العرب وتاج العروس وغيرها في انجاز البحوث المتعلقة بالمشاريع الكتابية التي اقترحها الدليل، كما يعتمد المعلمين على بعض الوثائق البيداغوجية التي وضعتها

وزارة التربية الوطنية في إطار المقاربة الجديدة نحو: كتاب(التدرج السنوي للتعلمات في مرحلة التعليم الابتدائي)* وكتاب (دليل منهجي في التقويم التربوي) وهي مراجع مهمة بالنسبة إليهم خاصة ما تعلّق بأساليب التقويم وتسير التعلّمات وفق ما تتطلّبه كفاءة التلميذ. ولعلّ الاتّفاق على أنّ الدليل ليس المرجع الوحيد باعتباره وسيلة تأخذ بيد المعلم وترافقه أثناء الخطوات التعليمية الرئيسة التي سينتهجها مع التلاميذ فمهمّته الوصول إلى الأهداف والكفاءات التي سطرها الدليل من خلال الأنشطة المختلفة الموجودة في مادة اللغة العربية.

3/1/2- هل تُوافقون إعطاء المعلم حرية الإبداع عن الاستعمال المطلق لهذا الدليل؟ اتّفق جميع المعلمين أنّه لابدّ من إعطاء حرية الممارسة التعليمية والإبداعية للمعلم وذلك في حدود ما تتطلّبه المقاربة الجديدة الداعية إلى هذا المبدأ بالذات، لكن دون الخروج عن الخطوات الكبرى التي سطرها (دليل المعلم) في تنظيم وتسلسل دروس اللغة العربية كالقراءة والتعبير الشفاهي فقدرت نسبة الإجابة بـ**50%**. وفي الحقيقة فإنّ حرية الإبداع متعلّقة بالمعلم نفسه وقدرته على الإضافة وتوظيف التعلّمات فإذا رأى ضرورة تغيير بعض الفقرات أو المحتويات في هذا الدليل أن يغيّره بما يراه مناسبا يخدم العملية التعليمية التعلّمية للتلاميذ، شريطة مراعاة القدرات الفردية والمستوى العلمي والمعرفي، كما يتم ّللمعلم الخروج عن الدليل في إطار الكفايات وما برمجه المنهاج الدراسي. وقد حصر الأستاذ (صالح بلعيد) هذه الكفايات في:

- مجالات الكفايات المعرفية.
- مجالات الكفايات الوجدانية.
- مجالات الكفايات المهارية.
- مجالات الكفايات الاجتماعية."[7] فبتحقق هذه الكفايات يمكن أن نعتبر أنّ أهمّ عوامل النهوض التربوي قد بدأ يأخذ مساره الطبيعي؛ لذلك كان من الواجب أن تتوفر فيه جملة من الشروط لتجاوز الاستعمال المطلق للدليل إلى حرية الإبداع وتتمثل في:

- أن يكون حاصلا على قدر واف من أصول اللغة العربية وثقافتها، بما تحويه المدونة العربية القديمة والحديثة، بحيث يكون حافظا ومستوعبا ولو لبعض سور القرآن الكريم، وبعضا من الأحاديث النبوية الشريفة والشعر العربي القديم منه والحديث؛ لأنّها من الموروث العربي الّذي يُرجع إليه في المناسبات التعليمية المختلفة وهي الّتي تصقل وتنمي الملكة اللغوية والمعرفية عنده.
- أن يكون عارفا بالطرائق التعليمية الموكلة إليه، بعد أن تلقى تكوينا من خلال معاهد ومؤسسات خاصة بإعداد المعلمين تُراعى فيها التخصص والمرحلة التعليمية الّتي سيُشرف عليها معلم الغد وهذا بالتدريب المكثّف.
- القدرة على اتّخاذ القرارات العلمية في المواقف التعليمية والتعلّمية المتعدّدة وأن يكون عارفا بما يجري من حوله من نظريات تعليمية تعلّمية، ومن ثمّ القدرة على الربط بين المواد المخصصة في منهاج اللغة العربية.
- أن يكون ديناميكيا وعنصرا نشطا وفعالا طِوال المدّة التعليمية فمهنة التعليم تتطلّب من وقت لآخر الإضافة والتجديد خاصة مع تطور النظريات التعليمية الخاصة بإعادة تأهيل قطاع التعليم عامة والمعلم خاصة، فمعلم اللغة العربية في فترة تأدية المهنة ليس معلما فقط؛ بل يبقى مدى حياته متعلما باحثا عن المعرفة، متقصيا أنجع الأساليب والأدوات التدريسية للاضطلاع بها، فله سمات وأهداف تتعلّق بنوعية أداءه فهو نفسُه في مسيرة تعليمية تطبع شخصيته وأداءه وكيفيات تنظيمه.
- حبّ المهنة وبالتالي كسب ثقة المتعلمين والمسؤولين بما أوكل إليه من مهام التعليم بمختلف الأدوار داخل المؤسسة أو خارجها.

إنّ هذه المعايير تسمح بتحديد شخصية المعلم في الحكم عليه؛ بأنّه معلم كفء أو ناجح. بيد أنّه خاضع لجملة من العوامل الّتي وجب مراعاتها في أداء مهامه التعليمي.

4/1/2- هل ترون فرقا بين دليل المعلم في المنهاج القديم ودليل المعلم في المقاربة بالكفاءات؟ قدّرت نسبة الإجابة التي اعتبرت أنّ هناك فرقا جوهريا

بـــ**50%** فالفرق يكمن في نظر المعلمين في طرائق تقديم الأنشطة وتحديد الأهداف والكفاءات، ثمّ تليها المحطّة التقويمية التي لم تكن معروفة في المقاربة القديمة، كما أنّ الدليل الجديد فسح المجال للمعلم لتوظيف كفاءته العلمية بـــأكثر حريـــة لبنـــاء تعلّمات التلاميذ، لأنّه وُضع وفق مفاهيم المقاربة بالكفاءات الّتي تجعل من التلميـــذ عنصرا نشطا ومشاركا في العملية التعليمية بتوجيه المعلم له فـــي كـــل مرحلـــة تعليمية، هذا بينما يقتصر الدليل القديم على اعتبار المعلم العنصر الوحيد في تلقين المعرفة، وعليه فالدليل الحالي أكثر ديناميكية وثراء مقارنة بالدليل القديم.

5/1/2- أتتقيدون بالتوزيع الزمني للنشاطات اللغوية الموجـــودة فـــي دليـــل الكتاب مادة اللغة العربية؟ قدّرت نسبة القائلين بالتقيّد بالجدول الزمني للنشـــاطات اللغوية بـــ **35%** ولعلّ هذا يعود إلى الطريقة القديمة الّتي ألفـــوا انتهاجهـــا فـــي تحضير خطوات الدرس والتقيّد المطلق للمدّة الزمنيـــة المخصصّـــة لكـــل نشـــاط تربوي، بيد أنّ من بديهيات التعليم وربح الوقت وعدم مضيعة الأوقات أنّه عنـــدما يكون المتعلّم على قدر كاف من الفهم واستوعاب لنشاط مـــن الأنشـــطة اللغويـــة المخصصة في كتاب اللغة العربية، يقوم المعلّم في هذه الوضعية علـــى اســـتغلال الوقت المتبقي لهذا النشاط في نشاط آخر يراه مناسبا للتلاميذ، فإذ كانوا متمكنـــين من القراءة وأصولها مثلا فلا داعي لاستغلال الوقت الزمني كلّه في القراءة، بـــل يستغلّه مثلا في التعبير الشفهي إذا رأى التلاميذ بحاجة لهذا النشاط حيـــث قـــدّرت نسبة الإجابة التي لا تتقيّد بالتوزيع الزمني الموجود في الدليل بـــ**20%** فمثلا يرى بعض المعلمين أنّ اليوم الأخير من تقديم نشاطات اللغة العربية والمتمثل في نشاط التعبير الكتابي ثمّ يليه المطالعة- حسب ما هو موجود في الجدول الزمنـــي الـــذي اقترحه الدليل- لا يتقيّدون بهذا التسلسل إذ يُقدّمون حصة المطالعة علـــى حصـــة التعبير الكتابي وهذه أولوية تعليمية مهمّة؛ لأنّ فعل القراءة مقدّم على فعل التحرير الكتابي، فالمطالعة المستمرة هي التي تفتح أفق تطوير الملكة التعبيرية وتحريريـــة وبالتالي القدرة على امتلاك الأسلوب الجيّد واللغة السليمة. هذا كما يشتكي بعـــض

المعلمين من عدم وصول كتاب (التدرج السنوي للتعلمات في مرحلة التعليم الابتدائي) ووقوعه بين أيديهم؛ لأنّ هذا الكتاب من شأنه أن يخدمهم في تسيير الدروس، وقد بيّنت وزارة التربية الوطنية الهدف من وضع الكتاب، فجاء في مقدمة الكتاب ما يلي: "وهذا التدرج يتوافق مع توزيع الأسابيع الدراسية على الفصول الثلاثة، بالإضافة إلى التدرج السنوي لمجمل النشاطات الأسبوعية بهدف:

– مساعدة المعلم على تخطيط التعلمات الأسبوعية لمختلف المواد التعليمية وإدماج النشاطات المكملة لبعضها البعض، وترتيب المواضيع التي تتطرق إليها أكثر من مادة.

– تيسير عملية المتابعة والمرافقة والمراقبة على مدير المؤسسة، ومفتش التعليم الابتدائي للمقاطعة ومديرية التربية"[8] فلا يكفي أن يتحصل مدير المؤسسة أو مفتش المقاطعة على هذا الكتاب؛ لأنّ المنفعة من هذا الكتاب تهمّ المعلّم بالدرجة الأولى فهو الموجّه الرئيس للعملية التعليمية التعلّميّة للدارسين، وهو القدوة الّذي يُحتذى.

ونخلص من كلّ هذا أنّ تطبيق ما وُرد في الدليل يخضع إلى المعلم وقدرته على الإلمام الجيّد لمهنة التعليم، وما تستدعيه من مواقف تعليميّة جديدة فيستطيع أن:

"– يفكر ويعدّل في فلسفته الخاصة عن التعليم.

– يكتسب استراتيجيات تعليمية وتقنيات قيادية.

– يطوّر أساسه العلمي والمعرفي ليساعده في البحث وفي وضع النظريات الّتي توجّه أفعاله بشكل موضوعي"[9] وبهذا نستطيع الحكم على المعلم كمهني شأنه في هذا شأن الحرفي الّذي يتقن عمله بموجب معايير تتوفر فيه، حيث "يقع على المعلم العبء الأكبر في تحقيق النمو الأمثل للتلاميذ وفي توجيه أنشطة التعلّم، ويتوقع أن يكون المعلم نتيجة لخبرته وتعليمه وإعداده؛ قادرا على مساعدة التلاميذ في اكتساب المعرفة وفي التمكّن من الفهم واكتساب المهارات والاتجاهات الّتي تتقبلها الجماعة"[10] فهو

أكثر العناصر المساهمة في العملية التعليمية، وذات فاعلية في نمو التلاميذ، وقد تحدّث حسن شحاتة عن الخصائص التي يجب أن يتحلى بها المعلم وهي كما يلي:

1- التنظيم الجيّد للأنشطة التعليمية من حيث اختيار للأهداف وصياغتها والمحتوى وملاءمته للأهداف والواجبات والنشاطات والاختبارات...واستخدام وقت الصفّ بشكل جيّد، وبالصورة التي يتطلبها البرنامج الدراسي والتنظيم المنطقي بطريقة تُسهل وتشجع عملية تحقيق للأهداف.

2- الاتّصال الفعّال في استخدام المعلّم للوسائل والأساليب التي من شأنها جذب انتباه الطلبة والوضوح في تقديم الأفكار، والطلاقة اللّفظية والقدرة على الإصغاء والحديث وعمق المادة الدراسية من خلال تنظيمها.

3-عمق معرفة للمادة التي يتم تدريسها من خلال تنظيم المادة الدراسية ومناقشتها مع التلاميذ وكذا نتائج البحوث والاتّجاهات الحديثة في موضوع المادة وتقديم وجهات النظر الجديدة إن وُجدت."[11] وفيما يلي خطة لإعداد الدرس (المذكرة) التي يجدر للمعلم أن يتبعها

1- من أين أبدأ الدرس؟ــــــــــــــــــــــ تحديد وضعية الانطلاق.

2- لماذا أدرس؟ــــــــــــــــــــــــــ تخطيط الأهداف.

3- ماذا أدرس؟ ــــــــــــــ اختيار المحتوى.

4- كيف أدرس؟ــــــــــــــــ اختيار الطريقة.

5- ما هي الوسائل التي أوظف؟ــــــــــــ اختيار الوسائل والمعينات.

6- ما هي النتيجة؟ــــــــــ تقويم المنتوج[12]. وهي خطة نموذجية في إعداد الدرس تتوقف على براعة المعلم وقدرته على أداء هذه الأدوار المختلفة.

3- نتائج الدراسة:

1- يعتبر الدليل من الوثائق البيداغوجية التي تلبي أحيانا احتياجات التلميذ.

2- الاتّفاق على أنّ الدليل ليس المرجع الوحيد في تحضير الدروس، بل هناك مراجع أخرى كالكتب التراثية القديمة وبعض الحوليات، وكذلك بعض الكتب البيداغوجية التي وضعتها وزارة التربية الوطنية، إضافة إلى الانترنيت.

3- إعطاء المعلم حرية الإبداع دون الخروج عن الخطوات التعليمية الرئيسة التي وضعها الدليل.

4- كفاءة وتميز المعلم هي التي تحدد طريقته المثلى في تسيير أو تغيير بعض الأنشطة.

5- إنّ الفرق بين دليل المعلم لمادة اللغة العربية في المقاربة القديمة وبين المقاربة الجديدة يكمن في طريقة الصياغة والأهداف والكفاءات المرجوة، وكذلك في دور المعلم كمنشط ودور التلميذ بصفته عنصرا فعالا في العملية التعليمية.

6- التقيّد بجدول التوزيع الزمني للنشاطات اللغوية الموجودة في الدليل غير مطلق؛ إذ يتوقف تحديد الزمن بمدى استوعاب التلاميذ للنشاط المقدّم أم لا.

7- الإقرار بثراء المحتوى التعليمي، الّذي يحتاج بدوره إلى التدرّج، والّذي يستلزم الوقت لاستكماله.

8- نقص الوسائل التعليمية الضرورية للمتابعة الكاملة والمستمرة للمتعلم خاصة في بعض الأنشطة التعليمية الّتي تتطلّبها المقاربة بالكفاءات.

4- أهم المقترحات والتوصيات:

1- تنمية الخبرة المهنية والتعليمية للمعلم بالتكوين المستمر، والاهتمام بسلامة اللغة العربية باعتبارها لغة التبليغ والتواصل والتفكير.

2- توفير الوسائل التعليمية اللازمة التي أرشد إليها الدليل وحثّ على استخدامها؛ لاستكمال سير العملية التعليمية التعلّميّة لمادة اللغة العربية (كالكتب الالكترونية والحواسيب والمكتبة المدرسية...).

3- توفير الكتب التربوية كتاب(التدرج السنوي للتعلمات في مرحلة التعليم الابتدائي) وكتاب (دليل منهجي في التقويم التربوي) التي وضعتها وزارة التربية

الوطنية في متناول المعلمين؛ لأنّهم يتلقون صعوبات في فهم دليل بشكل جيد خاصة ما تعلّق بالتقويم المنهجي.

4- إعداد المعلم بطريقة تتماشى مع المقاربة بالكفاءة؛ أي التحوّل من "الأنماط التقليدية المألوفة لإعداد المعلم إلى أنماط جديدة معاصرة تستجيب لحاجات المعلّم الفردية، وتستجيب لما تتطلّبه مهنة التعليم في عالم متغيّر"[13] بحيث يستطيع أن يتحكم وبقوة في الكفايات التالية: القراءة والمطالعة والكتابة (الإملاء) والتعبير (الشفهي والكتابي) والنحو، والمحفوظات.

5- ممارسة مهنة التدريس بحرفية عالية، وبالتزام أخلاقي تفرضه وظيفة المربيّ.

6- التحديث المستمر للقدرات والمهارات التدريسية.

7- إقامة ملتقيات ولقاءات دورية خاصة بطرائق التدريس الموجودة في الدليل والوقوف على مدى الاستعمال ومحاولة تدارك النقائص داخل الأنشطة، وضبط بعض فقراتها بما يحتاجه تلميذ السنة الخامسة.

8- ضرورة وإلزامية التقيد بالبرنامج الرسمي.

9- الاستفادة من توجيهات وتطبيقات علم النفس التربوي في فهم خصائص المتعلمين وقوانين التعلم.

10- الاستفادة من توجيهات وتطبيقات تعليمية المواد والتقويم التربوي.

11- مراعاة الدقة والتنظيم في تصميم المذكرة من حيث الشكل والمضمون.

12- حسن إدارة وتسيير الوقت.

خاتمة: إنّ نجاعة تطبيق ما هو وارد في دليل المعلم من أنشطة نحوية وصرفية ولغوية ومعجمية وغيرها، يتوقف على اجتهاد المعلم وبراعته وتميّزه، فدوره بارز بإجماع المربين والمشتغلين بعلم النفس التربوي، فينبغي للمعلم معرفة طرائق التعليم وأسسه وكفاياته، كسائر العلوم التربوية التي تسهم في بناء شخصيته وتأهيله لمهنة التعليم أو تطوير أدائه في المهنة رغم أنّ الكفاءة محدودة إلا ما تحقق منها وتجلى في الأداء التعليمي؛ فالمقاربة بالكفاءة في الوسط التربوي جاءت بعد تطبيقها

في الميدان المهني، ولذا فالوقت كفيل لاكتساب الخبرة مع الوضعية التعليمية الجديدة. التي تقتضي القدرة على التكيف مع نشاطات جديدة، وبالتالي تشكل المعارف والمهارات والقدرات الأساسية لبناء الكفاءة عند المتمدرس.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، ط1. بيروت: دار صادر، ج15، (مادة: دلل)
- جمال الدين محمد شامي، المعلم وابتكار التلاميذ، إسكندرية: 2001، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- حسن شحاتة، التعليم الجامعي والتقويم الجامعي بين النظرية والتطبيق، ط1. مدينة نصر: 2001، مكتبة الدار العربية للكتاب.
- راتب قاسم عاشور ومحمد فؤاد الحوامدة، تدريس اللغة العربية بين النظرية والتطبيق، ط1. عمان: 2003، دار المسيرة.
- صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث. الجزائر: 2005، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- صالح بلعيد، في قضايا التربية، ط1. الجزائر: 2009، دار الخلدونية للنشر والتوزيع.
- علي الهادي الحوات، التعليم والمعرفة والتنمية، ط1. ليبيا: 2007، الجامعة المغاربية بطرابلس.
- غطاس شريفة، دليل الكتاب اللغة العربية (السنة الخامسة ابتدائي). الجزائر: 2006-2007 وزارة التربية الوطنية.
- مديرية التعليم الأساسي، التدرج السنوي للتعلمات في مرحلة التعليم الابتدائي. الجزائر: 2009 وزارة التربية الوطنية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية.
- مصطفي عبد السميع محمد وسهير محمد حوالة، إعداد المعلم تنميته وتدريبه. الأردن: 2005 ط1، دار الفكر ناشرون وموزعون.
- http://www.startimes.com

استبانة

أخي المعلم أختي المعلمة، في إطار انجاز دراسة حول "دليل المعلـــم" للســـنة الخامسة مادة اللغة العربية، ومدى مساهمته في الحركية التعليميّة التعلّميّة وفي تحضير الدروس، نلتمس منكم المساهمة في الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- **ضع علامة × أمام الإجابة المناسبة:**

1- ما رأيكم في دليل المعلم لمادة اللغة العربية؟

- يلبي احتياجات التلميذ. □
- لا يلبي احتياجات التلميذ. □
- يلبي أحيانا احتياجات التلميذ. □

2- هل يعتبر الدليل المرجع الوحيد لتحضير دروسكم؟

نعم □ لا□

إن كانت الإجابة بـــ **(لا)** فما هي الوثائق الأخرى التي تعتمدون عليها؟

.....
.....
.....
.....

3- هل تُوافقون إعطاء المعلم حرية الإبداع عن الاستعمال المطلق لهذا الدليل؟

نعم نوافق □ لا نوافق□

4- هل ترون فرقا بين دليل المعلم في المنهاج القديم ودليل المعلم فـــي المقاربـــة بالكفاءات؟

نعم □ لا □

أين يكمن الفرق؟

.....
.....
.....
.....

أتتقيدون بالتوزيع الزمني للنشاطات اللغوية الموجودة في دليل الكتاب مادة اللغة العربية؟

نعم □ لا □

إن كانت الإجابة بـــ(**لا**) فلماذا التغيير؟

.....
.....
.....
.....

لكم مني جزيل الشكر والامتنان.

الهوامش:

1- صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث. الجزائر: 2005، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص17.

2- ابن منظور، لسان العرب، ط1. بيروت: دار صادر، ج15، ص247. (مادة: دلل)

3- غطاس شريفة، دليل الكتاب اللغة العربية (السنة الخامسة ابتدائي). الجزائـــر: 2006-2007 وزارة التربية الوطنية، ص11.

4- ينظر، المرجع نفسه.

5- غطاس شريفة، دليل الكتاب اللغة العربية (السنة الخامسة ابتدائي)، ص6.

6- راتب قاسم عاشور ومحمد فؤاد الحوامدة، تدريس اللغة العربية بين النظرية والتطبيـــق، ط1. عمان: 2003، دار المسيرة، ص270.

* - تتوفر بعض مدارس المؤسسات التربوية في التعليم الابتدائي على هذا الكتاب، بينما يشـــتكي بعضهم من عدم وصله إلى وقتنا الحالي، وبالتالي عدم استفادة المعلمين منه.

7- صالح بلعيد، في قضايا التربية، ط1. الجزائر: 2009، دار الخلدونية للنشر والتوزيع ص74-75.

8- ينظر، مديرية التعليم الأساسي، التدرج السنوي للتعلمات في مرحلة التعليم الابتدائي. الجزائر: 2009، وزارة التربية الوطنية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية.

9 - مصطفي عبد السميع محمد وسهير محمد حوالة، إعداد المعلـــم تنميتـــه وتدريبـــه. الأردن: 2005، ط1، دار الفكر ناشرون وموزعون، ص13.

10- جمال الدين محمد شامي، المعلم وابتكار التلاميـــذ، إســـكندرية: 2001، دار الوفـــاء لـــدنيا الطباعة والنشر، ص11.

11- حسن شحاتة، التعليم الجامعي والتقويم الجامعي بين النظرية والتطبيق، ط1. مدينة نصـــر: 2001، مكتبة الدار العربية للكتاب، ص21-22.

12- الموقع: http://www.startimes.com

13- علي الهادي الحوات، التعليم والمعرفة والتنمية، ط1. ليبيا: 2007، الجامعة المغاربية بطرابلس، ص385.

المستندات التربوية في ظل المقاربة بالكفاءات
بين النجاح والإخفاق – كتاب السنة الثالثة ثانوي– أنموذجا.

أ. نوارة ولد أحمد
جامعة مولود معمري/ تيزي–وزو

تمهيد : إنّ العالم يواجه تحديات عدّة في عصرنا هذا، تجتمع في تحديات العولمة، كنظام مفروض فرضا على المجتمعات في جميع المجالات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية، لذا يسعى الجميع قدما نحو تحقيق إنجازات التحضر لبلوغ درجة متقدمة في التكنولوجيات ورفع مشعل التقدم العلمي والحضاري فأصبح العالم عبارة عن نظام.

فالنظام المتقدم يفرض نفسه بارتكازه على المعلوماتية وتكنولوجية الاتصال وبها أصبح عالمنا شبه قرية كما يقال أو شبه حيّ.

وبما أنّ التكنولوجية أضحت ذات أهمية فائقة، فإنّ التحدّي بات مرفوعا عند كلّ من يرغب إزالة الأمية الحديثة عن نفسه، لذا ارتأت المدرسة الجزائرية مواجهة هذا التحدي المفروض.

وقد يسأل سائل، لما "المدرسة"؟، فلا غرو في ذلك ما دامت المدرسة المحور أو الركيزة الأساسية التي يتمّ فيها بناء الأجيال، وأيّ بناء، إنّه بناء العقول والنفوس، وهؤلاء سيصبحون ثمرة المستقبل، بهم يحدث التحوّل العلمي وتتحقق المعلوماتية والعصرنة.

إنّ مواجهة هذا التحدي داخل المؤسسة التربوية يفرض على أسرة التربية كبيرها وصغيرها (إداري وتربوي) إصلاح المنظومة التربوية، خاصة أنّ من دواعي التطوير في المناهج التعليميّة التقدّم العلمي والتكنولوجي وهو السبيل الذي انتهجه علماء التربية في الدول المتقدمة. حيث أثبتت التجارب الميدانية أنّ المعيار الأساس الذي يقاس به تطور المجتمع البشري هو مستوى النجاح الذي تحققه في مجالات التربية والتعليم.

فالعملية التعليمية / التعلّمية نمط من أنماط تنظيم الحياة المدرسية وإنعاش للحركة الثقافية والحضارية في المجتمع. يتطلب ذلك رؤية تربوية مغايرة، تتجاوز استقبال المعلومات وتخزينها بعد تلقينها، بل توظيف المعارف النظرية وتطبيقها بطريقة علميّة مطورة لقدرات التعلّم ومحفّزة للإبداع.

وقد لاحظت الجزائر مثل باقي الدول المجاورة هذا التحوّل في تنشيط العملية التربوية في مختلف جوانبها عند الغربيين، معتمدين أساليب تكوينية ذات أهداف بعيدة المدى وفق إطار استراتيجية التعلم بالكفاءات. فتمّ تبنّي هذا النمط لما أظهرته التجارب من فعالية في الأداء الميداني والمردود التربوي على مستوى تكوين المتعلمين. فانتهجت الجزائر آلية المقاربة بالكفاءات وتحديث أهداف التعلم من أجل تحقيق ذلك التكيّف مع الوضعيات الجديدة وبناء علاقات بين الجو المدرسي والممارسات الاجتماعيّة.

لقد بدأت الجزائر تطبيق المقاربة بالكفاءات كمنهجية اتخذتها في إطار إصلاح المنظومة التربوية، بشكل رسميّ في الموسم الدراسي 2004/2003 وفق البرنامج الحكومي، حيث تمّ تنفيذ هذه المنهجية مباشرة بعد صدور هذا المنشور[1]. وتأخر تنفيذه في الطور الثانوي إلى غاية الموسم الدراسي 2006/2005.

لقد ارتأينا في هذه الدراسة مناقشة إحدى النقاط الأساسيّة المتصلة اتصالا مباشرا بالمنظومة التربوية وتعدّ محلّ اهتمام التربويين، لكونها تحدّد الإطار التربوية، ثم شخيص النقائص واقتراح البدائل النوعية، واقتراح وضع الكتب المدرسية في ضوء إصلاح الإصلاح، مرورا بالتجارب الناجحة في الإصلاح التربوي.

ويبقى أهم سؤال يُطرح، هل سايرت الإصلاحات التي مسّت المستندات الحراك (العملية) التربوي في ظل المقاربة بالكفاءات ؟ وهو سؤال يحيلنا إلى أهمية مكانة المتعلم الذي يُعدّ محور العملية التعلّمية والذي يكتسب مهارات تجعله يُدمج معارفه ويوظفها في إطار واسع خارج عن البيئة المدرسية. هذا أمر صعب تحقيقه في المنظومة التربوية إنْ لم تتوفر الآليات المُتحكّمة في إنجاح عمليّة التعلّم عن طريق التوفيق بين المقررات الواردة في المستندات التربوية والممارسات التطبيقية

الملموسة، بمعنى التوفيق بين واقع التلميذ وما تأمله عملية التدريس بالكفاءات. هذا ما تحاول الوصول إليه هذه الدراسة.

المبحث الأول : مفاهيم نظرية

قبل الشروع في وصف المستندات التربوية وتحليلها وربطها بعملية المقاربة بالكفاءات، رأينا أنه من المهم جدا توضيح وفك الغموض عن بعض المصطلحات الهامّة في العملية التربوية، خاصة هذا المصطلح الذي بات ذات أهمية كبرى، بل صار هدفا منشودا في تحقيق النجاح في المنظومة التربوية، إنّه **المقاربة بالكفاءات.**

فالكفاءة نعني بها هنا ‹‹الخبرة أو الاتجاه الذي يتوقع أن يكتسبه المتعلم بعد عمليّة التدريس ويستخدمه بالفعل في تعاملاته الحياتية أو يستعين به كرافد لاكتساب كفاءات أخرى››.[2]

بمعنى أن التدريس هنا يقتصر على الكفاءات ذات أهمية كبرى للمحتويات التي تدرس، ذلك للدفع بالمتعلم ألاّ يقتصر على حفظ المعلومات، بل يقوم بتطبيقها تطبيقا مناسبا وفي وضعيات معيّنة.

كما أن المقاربة تركز على أحسن المؤشرات الممكنة لاكتساب المتعلم اتجاهات وميولات يرغب فيها عن طريق توجيه سلوكه الإيجابي نحو موقف معين، وتصف أداءه القابل للملاحظة، وبالتالي يتم تصحيح بعض المواقف وتنشأ بعدئذ الكفاءة لدى المتعلم.

وكي تتحقق الكفاءة، لا نكتفي بالملاحظة، إنّما ثمة عناصر أساسية تحدّدها (الكفاءة)، وهي تتوفر في يد المدرّس، كأن يهيئ مذكرة تحمل خطة يتوقع فيها احتمالات كثيرة خاصة بسلوك المتعلم تجاه الفعل الدراسي ومحتوياته. ويمكن أن تكون هذه العناصر عبارة عن : وصف الأداء المتوقع من المتعلم / وضع شروطا لتقويم أدائه / أن يحدّد معيار مدى حسن العمل. هذا يعني أنّ لكلّ درس يقدمه الأستاذ كفاءة مجهزة ينوي تحقيقها قبل الشروع في تقديم درسه، ما يسمى في العملية التربوية **بالكفاءة المستهدفة**، فالأستاذ في نهاية درسه سيقيّم نفسه ويدرك مدى نجاح درسه في تحقيق أو عدم تحقيق هذه الكفاءة.

وقد لا يجد الأستاذ مصدرا جاهزا للكفاءة المستهدفة في المنهاج الدراسي ولا في الأرشيف، لذلك ما عليه إلاّ الاعتماد على خبرته الشخصية في الميدان من

خلال معاملاته مع المتمدرسين وإتاحة الفرص أمامهم بعد تقديم التدريس الملائم لهم، هكذا يحقق نتائج أحسن وأنجع، حتى مع أولئك الذين يعانون صعوبات في التعلّم، لأنّه يكون قد هيّأ لهم خطة تقرّبهم بكفاءة معيّنة يكتشفها فيهم عن طريق التدريبات الفردية المتكرّرة وعن طريق دعمهم لأن لكل متمدرس طريقته في الفهم وميل خاص به، ما على الأستاذ إلاّ اكتشافه ثم توجيهه إلى السبيل الأليق به وتشجيعه، خاصة أنّه بحاجة ماسّة إلى التشجيع.

فمهما تعدّدت تعاريف "الكفاءة"، "فإنها تجتمع في كونها معرفة مبنية على التجنيد والاستعمال الفعّال لجملة من المعلومات والوسائل"[3]. إنّها فهم وإتقان المادة التعلميّة بتوظيف المعارف والمكتسبات في الحياة اليومية، وتشمل القدرة على استعمال المهارات والمعارف الشخصية في وضعيات جديدة داخل حقل معيّن.

فبناء على ما سبق، رأينا ضرورة توضيح مصطلح المقاربة بالكفاءات، "وما يرتبط به من دلالات تستدعي توظيف l'approche par compétences" المتمدرس لمهاراته الذّهنية واللّغوية والتواصلية.

إنّ هدف المؤسسة التربوية هو منح الأجيال القدرات والمهارات التي تسمح لهم أن يكونوا متمكّنين من القيام بما ينفعهم وينفع المجتمع، هذا هو معنى المقاربة بالكفاءات. وهذه الكفاءات تجعل المعارف قابلة للتحويل في الوضعيات التي تمكننا من التصرف خارج المدرسة ومواجهة وضعيات معقدة، أي التفكير والتحليل والتأويل والتوقع واتخاذ القرارات، بمعنى استحضار المعارف السابقة وربطها بالمكتسبات الجديدة.

والمقاربة بالكفاءات في الوسط التربوي جاءت بعد تطبيقها في الميدان المهني لذا ارتبط مفهوم الكفاءة بهذا الميدان، وهي معيار بيداغوجي حديث يسعى إلى تطوير المهارات المكتسبة للمعلمين.

إنّ هدف المقاربة بالكفاءات هو تحقيق القدرة على التعلم، وبنيت المستندات التربوية على هذا الأساس. فالقدرة لا تختلف في المجال التربوي عن الكفاءة، لأنها تعني قدرة المتعلّم على الفعل لما يكتسبه من السلوكات، فمفهومها "يندرج ضمن ما تصطلح عليه بيداغوجيا الأهداف بالأهداف العامة بمفهومها القديم والحديث، وعلى

المستوى التربوي يقصد بالقدرات تلك الافتراضات التي نطرحها بخصوص ما ينبغي أن نكوّنه لدى المتعلمين، وما سيكونون قادرين على التعبير عنه أيضا في مواقف تتطلب استخدام قدرات معرفية أو اجتماعيّة أو حسيّة حركيّة" [4]

وقد اتخذت المقاربة بالكفاءات "كممارسة بيداغوجية لأوّل مرّة في كندا وأمريكا، ثم انتقلت التجربة إلى فرنسا في التسعينيات لحل مشكلة الفشل الدراسي في الثانويات الفرنسية..."[5] وتعدّ من ضمن الإصلاحات التي فرضها "اقتصاد سوق العمل"، الذي من أهدافه الأولية إيجاد منفذ تكاملي وانسجامي بين ما يتلقاه المتعلّم من تكوين وما يتطلبه الواقع الاجتماعي والاقتصادي (الوظيفي)، حتى يكون هناك خيط يجمع بين عالم التربية وعالم الشغل "مما يساعد على مرونة صياغة المناهج وأساليب التعلّم القائمة على دمج التعليم النظري بنظيره التعليم التطبيقي العملي".[6] ومنه يبدو أنّ التحديث "في المنظومة التربوية ضروريّ بالنظر إلى ما تتضمّنه المناهج modernisation" الدراسية من المعارف العلمية والتمكن من تفعيلها وتوظيفها في وضعيات متباينة، هذا ما "عند حديثه عن بيداغوجيا الكفاءات philippe perrenoud ذهب إليه فيليب برونود" والوضعيات وإلحاحه على إظهار المتعلّم لمهاراته المضمرة وغير المضمرة لاتخاذ القرارات وإيجاد الحلول للوضعيات الصعبة.[7] بمعنى الوصول إلى كيفية التأقلم مع وضعيات معقدة، أثناءها يجد المتمدرس نفسه أمام وضعيات جديدة تربط بين مكتسباته وحياته اليومية، كما تعدُّ محفّزا على التعلّم الذاتي وبالتالي تخلق فيه القدرة على تحقيق وتطبيق ما اكتسبه من معلومات، إلى جانب قدرته على إبداء رأيه واندماجه في المجتمع.

يبقى أن نشير بكلّ إلحاح أنّ نجاح العملية التربوية يقف عند الاهتمام بأساليب التدريس وإعادة النظر في المناهج ودعم الأنشطة التعلّمية بما يثير التفكير والتحليل.

المبحث الثاني : المستندات التربوية في ظلّ الإصلاح.

كتاب السنة الثالثة ثانوي – نموذجا –

تعدّ المستندات التربوية أهم وثائق يعتمد عليها المربّي، لأنّها تمثل الجانب التطبيقي العملي الفعلي، الذي يؤدي حتما إلى إنجاح "المشروع" المقاربة بالكفاءات عبر ممارسات وأداءات المتعلّم التي تسمح للمعلّم ملاحظة مدى تطور مستواه والحكم عليه من خلال توظيف قدراته الخاصة وتوجيهها نحو تحقيق الكفاءة المرجوة بإتقان. (والكفاءة قد تكون معرفية أو مهارية...)، بمعنى اتساع معارف المتعلّم وتمكّنه من تطبيقها في مجالات مختلفة، قد تكون غير المجال المدرسي. لذا فإنّ الممارسة أو ما يسمى بالتدريب، أمر مفروغ منه لتحقيق الكفاءة، والتلميذ يحصل عليها انطلاقا من المؤسسة التربوية وبالذات من المنهاج المخطط له، ذلك بمساعدة المربّي الذي يعتمد على المستندات التي سُطرت فيه برامج يتبعها لمرافقة التلميذ أثناء ممارسته وسعيه لاكتساب الكفاءة المستهدفة خاصة أن ما يركّز عليه في عمليّة التعلّم هو قدرات المتعلم في تطبيق الكفاءة (الكفاءة تأتي كنتيجة)، هذا يثبت هدف المنظومة التربوية المتمثل في تجسيد الكفاءة الفردية لدى التلاميذ ولإنتاج هذه الكفاءة لابد من توفر عوامل أساسية، كتعلّم الفعل[8] (pouvoir agir)القدرة على الفعل (vouloir agir) الرغبة في الفعل savoir-faire(agir)

فالمؤسسة التربوية سعت في إطار المقاربة بالكفاءات إلى محورة مختلف الأنشطة من خلال البرامج المسطرة وما تتضمنه الكتب (المستندات) المدرسية حول القدرات المرغوب اكتسابها وسطرت الغايات بموجبها. فهدف المقاربة بالكفاءات لم يعد يقتصر على تحقيق النجاح في حلّ مسألة معيّنة، إنّما المهم هو مدى تمكّن التلميذ من تطوير وتنمية سلوكاته المعرفية والوجدانية والاجتماعية وتحقيق مهارات مختلفة، دون إهمال دور الأستاذ في كيفية تنظيم درسه، لأنه مثلما سبقنا الإشارة إليه، فالتنظيم الجيّد لطريقة التدريس وشخصية الأستاذ في تسيير درسه وتحكّمه في القسم يتيح للمتمدرس إمكانية تطوير قدراته.

يعدّ الكتاب المدرسي وسيلة رئيسيّة مباشرة للمعلم والمتعلّم في بناء الكفاءات "يكتسب فيه المتعلم إلى جانب المعرفة بمختلف فروعها الخبرات والمهارات والأدوات المنهجية التي تمكّنه من بناء كفاءاته في مختلف مجالات المادة بمفرده أو بمساعدة المعلم من خلال ما يوفّره له من فضاءات تتيح له فرص التعلم المناسبة بالممارسة أو النشاط الذاتي في القسم أو خارجه"[9]. بهذا المفهوم يصبح المتعلم شريكا في بناء المواقف التعليمية ويتمكن من استقبال المعلومات والمعارف ثم تطبيقها عندما يستدعي الأمر ذلك، وأهم دور تسعى إليه المستندات في ظل المقاربة بالكفاءات هو دفع المتعلم إلى التفكير والتأمّل والإنتاج والمبادرة، هذا ما يسمى بممارسة قدراتهم لمواجهة الحياة.

إنّ من يطلع على دليل الأستاذ يكتشف تلك المقاربة النظرية التي توضح دور الكتاب كوسيلة تعليم وتعلّم وكأسلوب تدريس. ويتساءل إلى أيّ مدى يمكن تطبيق محتوياتها ومدى إسهامها في تحقيق ملامح تخرّج المتعلمين، هذا ما تبيّنه الأنشطة المقررة لمنهاج السنة الثالثة ثانوي مادة اللغة العربية .

وقبل تتبع الأنشطة نشرع في وصف الكتاب، إنه مقسّم إلى اثني عشر محورا وكل محور يتضمن نصان أدبيان ودرسان في نشاط القواعد وآخران في البلاغة والعروض والنص التواصلي والمطالعة، ثم تدعم بسند شعري لإحكام موارد المتعلم وتفعيلها متبوعا بوضعية إدماجية حول مضمون المحور بتوظيف بعض المكتسبات اللغوية والبلاغية المدروسة في نفس المحور ويختم المحور بالتعبير الكتابي ومشروع بعد كل وحدتين، هذا من حيث المحتوى، ومن حيث مكانة المقاربة بالكفاءات في المستندات يمكن اكتشافها من خطوات تحليل النص الأدبي على سبيل التمثيل فقط. فلو اتبعنا الخطة المقترحة في دليل الأستاذ للسنة الثالثة ثانوي في صفحته الخامسة، سنجد أنفسنا أمام عالمين متباينين، عالم النظرية لإجراء الحصة وعالم تطبيق النظرية الذي يبيّن إلى أي مدى يصعب على المدرس تنفيذ عملية التعليم / التعلّم بشروطها وفي مدّة وجيزة محدّدة. إذ من أهم خطوات

معالجة النص الأدبي : مناقشة العنوان الذي يعدّ عتبة النص كخطوة أولى للتحاور مع النص ذلك بعد قراءته، تأتي بعده مرحلة التحليل التي جاءت بصيغة "الحفر في طبقات النص "في دليل الأستاذ، وعلى التلميذ إبراز كفاءته اللغوية والأدبية والعلمية، لأن عليه أن يكتشف معطيات النص ويناقشها ثم يحدّد بناءه ويتفحص الاتساق والانسجام فيه، وفي نهاية الدرس يجد التلميذ خلاصة **مهيّئة** تحت عنوان أجمل القول في تقدير النص. أمّا دروس القواعد والبلاغة أمثلتها من صميم النص وردت بطريقة رؤوس أقلام ولا أثر لأسئلة تطبيقية لاختبار فهم التلميذ.

إنّ هذا الوصف الوجيز لنشاط من الأنشطة الواردة في الكتاب المدرسي للسنة الثالثة ثانوي يكشف ما تسعى إليه المقاربة بالكفاءات من تحقيق الانسجام بين معارف التلاميذ في مختلف المواد ومدى مطابقتها. كما تهدف عملية التعلم في ضوء المقاربة بالكفاءات إلى تمكين التلاميذ في نهاية المرحلة التعلمية إلى اقتراح حلول عملية للمشاكل والعوائق التي تصادفهم في الحياة اليومية والمستندات التربوية تحتوي على بعض المحاور المهمة والقادرة على تحقيق هدف الكفاءات، إلاّ أنّ الوقت المسطّر لتحقيقها غير كاف حتى يستوعب التلميذ ذلك الكم المتراكم من المعرفة، كما نجد في محاور أخرى بعض الوضعيات المستعصية، لا تؤدي إلى نتيجة لكونها لا تتوافق والمحيط الاجتماعي للمتعلم، وإغفال المحيط الواقعي يؤدي حتما إلى فشل في تحقيق الكفاءة المستهدفة. وإن نظرنا بعين واصفة إلى أحوال المنظومة التربوية نجد أنّ العيب ليس في المقاربة بالكفاءات بما أنها أخرجت التلميذ من الإطار الضيّق إلى الإطار الواسع، أين يستطيع إبداء رأيه واستخدام ذكائه. وثمة أسباب أخرى في ظهور نقائص في العملية التربوية، تعتبر من العوائق التي تكبح جهود المدرسين في تحقيق هدف الكفاءات، يمكن إجمالها في:

عدم التوافق بين المضامين والحجم الساعي المخصص لبعض المواد كما أسلفنا الذكر.

عدم تناسق وحدات التمدرس وتسلسلها (كالتقديم والتأخير)، بعض النصوص لا تليق ولا تتوافق وعصر التلميذ وخياله.

نقص الوسائل التعليمية والتجهيز الكافي في بعض المؤسسات.

عدم التحكم في آليات العمل بالمقاربة بالكفاءات من طرف عناصر الطاقم التربوي.

نقص التكوين والإعلام، ما عدا بعض الندوات القليلة التي ينجزها المفتشون التربويون.

كثرة عدد التلاميذ في القسم، وطريقة جلوسهم لا تشجع على المناقشة والحوار كما تنص عليه المنهجية الجديدة.

أسباب النقائص: بالرغم من أنّ الكتاب المقرّر للسنة الثالثة ثانوي مصمّم بشكل أحسن من كتابي السنة الأولى والثانية من حيث انتقاء المضامين وترجمة الواقع المعيش إلى حدّ ما إلاّ أنّ أساتذة هذا المستوى يعانون من عوائق تجعلهم غير قادرين على أداء مهمتهم بشكل لائق، ولعلّ من أسباب هذه النقائص، عدم دراسة الحجم الساعي المخصص لكل مادة وعدم النظر في خصوصيات كل مادة على حدى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نوعيّة الأسئلة في البناء الفكري ما زالت متصلة بالتلقين وتخزين المعلومات تجبر التلميذ على الحفظ وتبعث فيه الرتابة والملل، كما أنّ بعضها تبدو له غامضة مبهمة إضافة إلى ضعف مستواه الناتج عن إفلاس رصيده اللغوي، وبالتالي يعجز عن التعبير والإبداع، عندها لا يشعر بالرغبة في التعلم.

اقتراح وضع الكتب المدرسية في ضوء إصلاح الإصلاح: إنّ المنظومة التربوية مؤسسة اجتماعية، تعمل على تهيئة التلميذ لمواجهة الحياة، فالمناهج الدراسية تأخذ بالحسبان هذا الجانب ويكون مجالها منصبا على تحليل القدرات ومهارات التلاميذ والعادات السائدة في البيئة المحيطة بهذه المؤسسة، ذلك ليتحقق الهدف الأسمى للمنظومة في تطوير التعليم والوصول بالتلميذ إلى الاندماج في المجتمع بتعلّم طرق التفكير والسلوكات التي تجعل منه مستقبلا عنصرا فعّالا.

يحدث هذا في الأطوار الثلاث، والمرحلة الثانوية تمثل مرحلة الاحتفاظ بالكفاءات وترسيخها بعد اكتسابها من المرحلتين الابتدائية والمتوسط، يستثمرها التلميذ في مجالات مختلفة من الحياة، وهكذا يكتسب ما يسمى بالاستقلالية (L'AUTONOMIE) خاضها. وحتى تنجح المرحلة الختامية للمشوار الدراسي من خلال المواد الدراسية المتنوعة والمراحل المتتابعة التي في التعليم العام، لابد من توفير الجو الذي يسمح بنجاح العملية التعلمية وتحقيق أهداف المقاربة بالكفاءات لذلك نقترح ما نراه في نظرنا يمكن أن يؤدي إلى سبيل الفلاح، كأن يستجيب السند التربوي لرغبات التلميذ المعقولة ويساعده على فهم ما يدور في محيطه ويجيب على الأسئلة التي تجول في خلده، فهو أمر يجعله ينجذب ويهتم، ذلك باختيار مواضيع ذات علاقة بمحيطه، لا تتنافى والحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية وغيرها من المجالات، إلى جانب تخفيف البرامج وجعلها تتوافق والحجم الساعي المخصص للمواد، وكذا مراعاة المستوى العام للتلاميذ أثناء إعداد السند التربوي، حتى يتسنى لهم استيعاب ما تحويه المواضيع المدرجة في المنهاج. ودعم الكتاب بالتطبيقات بحيث ينجز جزء منها في القسم والجزء الآخر ينجز كواجب منزلي. إضافة إلى تغيير تصميم الأسئلة في **النص الأدبي**، فبدلا من أن يأخذ أربع صفحات (التعريف بصاحب النص، النص، إثراء الرصيد اللغوي، في الحقل المعجمي، في الحقل الدلالي، اكتشاف معطيات النص مناقشتها، تحديد بناء النص، تفحص الاتساق والانسجام، مجمل القول) تقام دراسة للنص بشكل بناء فكري / بناء لغوي / تقويم نقدي (للأدبيين) ليتعوّد التلميذ على طريقة أسئلة البكالوريا.

أمّا درس **قواعد اللغة** : تبقى الأمثلة مأخوذة من النص الأدبي، بخطوات مغايرة تكون كالآتي:

كتابة الأمثلة – تقرأ ويُذكّر بمعناها الإجمالي بإيجاز– / التذكير بما له صلة بالدرس الجديد من المعارف السابقة / استدراج التلاميذ إلى اكتشاف أحكام القاعدة

جزءا جزءا بأسئلة دقيقة / وضع تمارين جزئية فورية بعد كل عنصر / استنتاج القاعدة / تمارين تطبيقية. ونفس الخطوات لدرس **البلاغة** (أمثلة، مناقشتها اكتشاف الصورة بالتدرج وربطها بالمعارف السابقة عن طريق الموازنة الخلاصة، تطبيق). أمّا حصة **التعبير الكتابي**، فيُختار لها مواضيع الساعة من حيث المضمون ويتمرّن التلميذ على مختلف أشكال المقالات، يحقق في النهاية هدفا تعبيريا، يستند على حوصلة المكتسبات الأوّلية، ويكون لكل تلميذ تقنيّته الشخصية في التعبير، حيث يظهر الهدف من خلال الممارسة، فإن استطاع كتابة نص أو تحرير رسالة بلغة سليمة واضحة، يكون قد حقّق الهدف التعبيري، ولو أنّه يوجد دائما تفاوتا في المهارات بين التلاميذ.

في الختام نودّ أن نشير إلى أنّ المستندات التربوية في ظلّ الإصلاح، تُعدّ مهمّة لإنجاح العملية التعليمية / التعلّميّة، إلاّ أنّه لا يمكن إغفال العنصر الآخر، الذي لا يمكن الاستهانة به، وهو مهندس الحصّة وسائقها ومُنشطها، فالأستاذ بإمكانه خلق الجو المناسب في قسمه وإشعار تلميذه بالاطمئنان عن طريق تشجيعه أثناء عمليّة التعلّم وتنمية فضوله في النشاط الذي يستدعي معرفة النتيجة أو كشف المجهول ذلك باستعمال ذكائه أثناء سير الدرس، حتى لا يجد نفسه أمام فوضى عارمة ينقلب المتمدرس على الحصة ويجعل من إخفاقه في الحصة تمرّدا على المدرس ليلفت انتباه الآخرين إليه ويثبت وجوده بالفوضى بدل الاجتهاد والمشاركة الفعالة في القسم. وليس من السهل بناء الثقة بين المدرس وتلميذه أثناء عرض وضعيات التعلّم، إلاّ إذا بيّن له وأقنعه أنّ هذه الوضعيات لا تتجاوز قدراته، تتطلب فقط تطبيق مهاراته المكتسبة من قبل، ليحصل بالتالي على مهارات جديدة.

ولا يكتسب الأستاذ تقنية التحكم في القسم وطريقة التدريس والتصرف في المستندات التربوية، إلاّ عن طريق التكوين المستمر ودعمه بالجانب التوثيقي وكذا تقليص عدد تلاميذ القسم الواحد لإنجاح الرسالة التربوية في ضوء المقاربة بالكفاءات.

الهوامش

1- ينظر المنشور الوزاري رقم 489 و.ت المؤرخ في 05/ 3/2003 الجزائر

- وينظر المنشور الوزاري رقم 2003/245 الموجه إلى مديريات التربية ومفتشي الابتدائيات والمتوسطات.

2- وزارة التربية الوطنية، دليل الأستاذ، السنة الثالثة من التعليم الثانوي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، د.س، ص3.

3- المرجع نفسه، ص 4.

4 – ينظر محمد الدريج، مدخل لمقاربة التعليم بالكفاءات، قصر الكتاب، البليدة 2004. ص 38

5- منتدى التربية والتعليم العام، من التلقين إلى التدريس بالأهداف إلى المقاربة بالكفاءات. www.djelfa.info

6- إيزابيل روبير، ثورة هادئة في بريطانيا، أنظمة جديدة في التكوين والتأهيل المهني المرتكز على الكفاءات، مونتريال، كندا 1989. ص 21.

7-PHILIPPE PERRENOUD, L'APPROCHE PAR COMPETENCES DE L'élève. WWW.FRANCOIS.MULLER.FREER.FR

8- ينظر محمد الدريج، مدخل لمقاربة التعليم بالكفاءات. ص 37

9- وزارة التربية، دليل الأستاذ. ص 164

تعليم النحو العربي بين نظرية العامل الموروثة ونظريات البحث اللساني

أ.ياسين بوراس

جامعة مولود معمري/تيزي–وزو

مقدمة: تظهر العلاقة بين النظرية اللسانية وتعليمية اللغات، في ما تقدِّمه النّظرية اللسانية مِنْ أرضية معرفية حول طبيعة الظواهر اللغوية وتفسير عملية اشتغال نظامها أو قوانينها التّركيبية، تنطلق منها تعليمية اللغات في بناء محتوياتها التعليمية، منْ أجل ترسيخ قوانين اللغات في ذهن المتعلم. والنحو العربي لا يخرج عن كونه نظرية لسانية وقفت على وصف الظواهر التركيبية في اللغة العربية، بناء على فرضية العامل، إلا أنّ البحث اللساني في الغرب قد أظهر العديد من النظريات التي تقوم في وصفها الظواهر التركيبة بناء على فرضيات غير فرضية العامل، تتّسم بالشمولية في الوصف والتفسير.

وقد ظهرت تجليات أحدث نظريات البحث اللساني في الدراسات اللسانية العربية، متجسِّدة في تطويع عبد القادر الفاسي الفهري نموذج النظرية التوليدية التحويلية لقواعد اللغة العربية، وفي تطبيق أحمد المتوكل نظرية النّحو الوظيفي على اللغة العربية، وذلك بعد إيمان هذين الباحثين بكفاءة نظريات البحث اللساني في دراسة الظواهر اللغوية في العربية؛ من حيث التنظير (الكفاية الوصفية للظواهر اللغوية) والتطبيق (الحوسبة والتعليم). وأمام هذا السَّعي لتجديد النّحو وفق نظريات البحث اللساني في الغرب، سعى

عبد الرحمن الحاج صالح في نظريته النظرية الخليلية إلى إثبات كفاءة نظرية العامل الموروثة مقارنة بنظريات البحث اللساني في الغرب.

وسنتعرّض في هذا المقال إلى نموذج النظرية الخليلية لعبد الرحمن الحاج صالح، ونموذج النظرية التوليدية التحويلية للفاسي الفهري، ونموذج النحو الوظيفي لأحمد المتوكل؛ لنستشف مدى كفاءة هذه النماذج النظرية المُقترَحة في وصف الظواهر النّحوية في العربية، ضمن هذه الإشكالية: **ما مدى كفاءة نظريات البحث اللساني من حيث التنظير والتطبيق في وصف الظواهر اللغوية في العربية، مقارنة بنظرية العامل الموروثة؟**

أولا- نموذج النظرية الخليلية لعبد الرحمن الحاج صالح: تقوم النظرية الخليلية في وصفها الظواهر اللغوية في العربية بناء على نظرية النحو العربي الموروثة، التي يُعدُّ العامل فيها أهمَّ ركيزة أساسية قام عليها التّحليل اللغوي لمستوى التراكيب. وتظهر فرضية العامل في هذه النظرية في تفسير حركة الإعراب التي تأخذها مكونات الجملة أثناء بناء الألفاظ.

ويتحقق العامل في أقل ما يمكن أنْ يُبنَى من الألفاظ؛ حيث إنّ "كل لفظة أصلا كانت أم فرعا تُعتبَر كأقل ما يمكن أنْ يُنطَق به، مما يصلح أنْ يكون مبنيا على اسم آخر أو فعل، أو مبنيا عليه اسم آخر أو فعل"[1] وأقل ما يكون من بناء بين الألفاظ مما يصلُح أنْ يُبنَى على اسم آخر أو فعل، هو نحو قولك: زيد منطلق، وانطلق زيد، فلفظة (منطلق) في المثال الأول مبنية على اللفظة المبتدأة (زيد) ولفظة (زيد) في المثال الثاني مبنية على الفعل (انطلق). وأمّا ما يكون مبنيا عليه اسم آخر أو فعل، فنحو قولك: زيد منطلق، وزيد انطلق مسرعا، (فزيد) في المثال الأول بُنِي عليه اللفظة الاسمية (منطلق) وفي الثاني بُنِي عليه الفعل (انطلق).

وينطلق النُّحاة في هذا المستوى من أقل ما يمكن أنْ يُبنَى من الكلام مما هو أعلى من اللفظة لاكتشاف العامل المتحكم في هذا البناء وما يكافئه في العمل، ويُعدُّ أقل ما يُبنَى من الألفاظ أصلا أو نواة لما يمكن أنْ يلحقه من زيادة؛ إذ "انطلق النُّحاة من العمليات الحملية أو الإجرائية: يحملون مثلا أقل الكلام مما هو أكثر من لفظة باتخاذ أبسطه وتحويله بالزيادة، مع إبقاء النَّواة للبحث عن العناصر المتكافئة (من بعض الوجوه)"[2] وتعني هذه العملية الإجرائية أنّ النُّحاة حملوا في التركيب أقل الكلام مما هو أكثر من لفظة بتحويله بالزيادة يمينا ويسارا؛ قصد اكتشاف البناء الحاصل بين الألفاظ والعامل المتحكم في هذا البناء. وقد "لاحظ النُّحاة على أقل ما يُبنَى من الألفاظ، أنّ الزوائد على اليمين تغير اللفظ والمعنى؛ بل تؤثر وتتحكم في بقية التركيب، كالتأثير في أواخر الكلم (الإعراب)"[3] وتَغيير هذه الزوائد اللفظَ يُقصد به تغيير حركة آخره، وأما تَغييرها المعنى فيكمن في زيادة هذه الزوائد معنى آخر عن المعنى الأصلي لذلك البناء، وذلك مثل ما يوضحه الجدول الآتي[4]:

∅	زيدٌ	قائمٌ
إنّ	زيدًا	قائمٌ
كان	زيدٌ	قائمًا
حسبت	زيدًا	قائمًا
أعلمت عَمْرًا	زيدًا	قائمًا
1	2	3

وتُمثِّل الجملة الأولى في الجدول أعلاه الجملة المبنية؛ حيث بُني فيها اللفظ (قائم) على اللفظ (زيد) ثم بالزيادة التدريجية على هذه النَّواة، لاحظ النُّحاة حسب النَّظرية الخليلية أنّ[5]:

– العناصر التي في العمود الأول والتي قد تكون كلمة أو لفظة أو تركيبا لها تأثير على بقية التركيب (البناء) ولذلك سُميَت **عاملا**.

– العناصر الموجودة في العمود الثاني هي المعمولات الأولى، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن تُقدّم على عاملها، ولهذا يشكل كل واحد منها مع عامله **زوجا مُرَتَّبا**.

– العناصر الموجودة في العمود الثالث هي المعمولات الثواني ولها إمكانية تقدم كل العناصر إلا في حالة جمود العامل.

– قد يخلو موضع العامل من العنصر الملفوظ (المشار إليه بـــ ∅) وهو الذي يُسمَّى بالابتداء، وهو عدم التبعية التركيبية وليس معناه بداية الجملة.

ويفيد الاستنتاج الأول أنّ العامل الداخل على البناء (زيد قائم) قد يكون كلمة (إنّ، كان) وقد يكون لفظة (حَسِبْتُ) أو تركيبا بأكمله (أعلمت عمرا). ويفيد الاستنتاج الثاني أنّ معموله الأول، لا يُمكِن أنْ يُقدَّم على عامله على أساس أنهما زوج مُرتَّب، إذ ليس بإمكانك أنْ تقول (**زيدا** إنّ قائمٌ) لأنّ (زيد) هنا يكون في موضع ابتداء والعامل فيه يكون الابتداء، والواجب فيه الرفع وتكون الجملة التي تليه مبنية عليه كقولك (**زيدٌ** إنّه قائمٌ)؛ حيث "تَبْنِى على المبتدأ وتُضْمِرُ فيه"[6] كما يقول سيبويه (180ه).

ويفيد الاستنتاج الثالث أنّ المعمول الثاني له إمكانية تقدم كل من العامل والمعمول الأول، نحو قولك: (منطلقًا كان زيدٌ) إلا أنّ ذلك يمتنع في حالة جمود العامل (غير مشتق) نحو قولك: (إنّ زيدًا منطلقٌ، وليس زيدٌ منطلقًا) إذ يُمنَع هنا تقدم المعمول الثاني (الخبر) على العامل والمعمول الأول في كلا الجملتين لجمود العامل؛ حيث يُمنَع القول بجمل نحو: منطلقٌ إنّ زيدًا، أو منطلقًا ليس زيدٌ.

ويفيد الاستنتاج الرابع أنّ خلو البناء (أقل ما بني من الألفاظ) من العامل لا يعني عدم وجود العامل؛ بل عامل الرفع في اللفظتين المبنيتين يكون الابتداء وهو علامة عدمية تقابلها علامات أخرى قد ترد ثابتة بالنّسبة للبناء (كالنواسخ).

هذا بالنسبة للبناء الحاصل بين لفظتين اسميتين، أما البناء الحاصل بين لفظة فعلية ولفظة اسمية نحو قولك: جاء زيد، وكتب زيد المحاضرة، فحسب صاحب النَّظرية الخليلية، أنّ النُّحاة لا حظوا "أن الفعل (غير الناسخ) هو بمنزلة هذه العوامل لأنّه يؤثِّر في التّركيب، وأنّ المعمول الثاني في هذه الحالة هو المفعول به. وأثبتوا أيضا أنّ موضعي المعمول الأول والمعمول الثاني يمكن أيضا أن تحتلهما كلمة واحدة أو لفظة بل وتركيب وذلك مثل ما يوضحه الجدول الآتي"[7]:

رأيـــــــ رأيـــــــ	أن تصوموا تُ ـــــــــتُـــ	خير لكم زيداً ـــــــك

ويتبين من خلال الجدول أنّ العمود الأول يتضمن الفعل العامل (رأى) أمّا معموليه فيعتبر حسب النَّظرية الخليلية الكلمة (تُ) المعمول الأول، واللفظة الاسمية (زيدا) المعمول الثاني بالنسبة للجملة الثانية. كما يبين الجدول أنّ موضع المعمولين يمكن أنْ تحتلهما كلمة نحو (تُ) و(ـــــــتـُـ) و(ك) أو لفظة نحو: زيدا، وأن تصوموا، أو تركيبا بأكمله، نحو: خير لكم.

وقد يتصل بالبناء الحاصل بين الألفاظ لواحق تدخل وتخرج علاقتها بالبناء علاقة وصل، وهي زوائد مخصِّصة، ليصبح بذلك مستوى التراكيب مُكوَّن من "موضع العامل (ع) يدخل فيه الابتداء والنواسخ والفعل الناسخ وغير الناسخ وموضع المعمول الأول (م1) ويدخل فيه المبتدأ والفاعل (أو ما

يقوم مقامهما) وموضع المعمول الثاني (م2) ويدخل فيه الخبر والمفعول (أو ما يقوم مقامهما): وهي النَّواة. وتلحق بهذه النَّواة مواضع للعناصر المخصصة (خ) (الحال والتمييز والمفاعيل الأخرى). ويرمز إلى هذه العناصر بالصيغة الآتية:

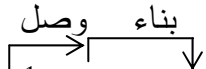

[(ع ← م1) ± م2] ± خ"[1].

ويرمز الرمز (ع) للعامل، والرمز (م1) للمعمول الأول، والرمز (م2) للمعمول الثاني، والرمز (خ) للمخصصات التي قد ترد متصلة بالبناء والرمز (±) إلى أنّ الزيادة الواردة فيها إمكانية الورود، وإمكانية عدم الورود (كالفعل اللازم الذي قد لا يتجاوز عمله المعمول الأول (الفاعل)) وتوضِّح هذه العبارة أنّ الوحدات الداخلة ضمن حدود المعقوفين هما اللفظتان المبنيتان إلى جانب العامل، بحيث يشكل العامل والمعمول الأول الداخلين ضمن حدود القوسين زوجا مرتبا، والمعمول الثاني اللفظة المبنية التي لها إمكانية التقدم على العامل والمعمول الثاني (ويُمنَع ذلك في حالة جمود العامل). وهذا البناء يُعَدُّ نواةً بالنسبة لما يتصل به من زيادات مخصصة لظروف الخبر الذي يتضمنه البناء، وتشمل (الحال والمفاعيل الأخرى التي تشمل المفعول فيه (ظرفي الزمان والمكان) والمفعول معه، والمفعول له، والمفعول المطلق) والتي تربطها بالبناء علاقة وصل لا علاقة بناء.

ويذهب عبد الرحمن الحاج صالح إلى أنّ هناك مستوى تركيبيا آخر، أكثر من البناء الحاصل بين الألفاظ، وهو "مستوى التصدير وما فوق العامل، لأنّ هناك أدوات تدخل على (العامل ومعموليه والمخصصات) ويعني هذا أنّ هناك موضعا أخر يتجاوز هذه المواضع، وقد لا حظوا أنّ لهذه المواضع

الصدارة المطلقة، فكأنّ هذه الأدوات عوامل تُوجَد في مستوى أعلى، إذ إنّها تتحكم في كل ما يُوجَد تحتها ولا يكون لها بالضرورة عمل على ما تدخل عليه"[8] وهذه الحروف هي ما عُرِف عنها في النّحو العربي بالحروف التي لها الصدارة في الكلام، أو الحروف التي تمنع أنْ يعمل ما بعدها في ما قبلها إذا لم تأت متصدرة، كأن تكون بين العامل ومعموليه، فيُعلَّق عمل العامل نحو توسطها بين ظن ومعمولاتها في (ظَننْتَ أزيدُ مسافرٌ أم عليٌ، زيدٌ هل أتى؟) ويعدُّ حرف الاستفهام مُعلِّقا، لتوسطه بين العامل ومعموله، مع "أنَّ المُعلِّق يجب كَوْنُه في صدر جملة"[9] وإذ لم يتصدَّر الجملة كان مما يُعلِّق عمل العامل. ومن جملة هذه المعلِّقات التي لها الصدارة "لام الابتداء، لام القسم حرف من حروف النفي الثلاثة (ما-إنْ-لا) دون غيرها، الاستفهام، (كم) الخبرية، و(إنّ وأخواتها) ما عدا (أنّ) مفتوحة الهمزة فليس لها الصدارة"[10] وتأخذ هذه الحروف موضع الصدارة المُطلَقة؛ لكونها مما لا يُمكِن أنْ يكون قبل موضعها شيء من الكلام فإذا سُبِق موضعها بشيء منه، عدَّ موضوعا في موضع ابتداء، وخرج عن حكم المعمول.

وما يستنتج عن النظرية الخليلة أنّها تصف الظواهر التركيبية في اللغة العربية بناء على فرضية العامل المعنوي أو اللفظي، الذي يحكم العلاقة بين الألفاظ في بنائها في المستوى التركيبي؛ حيث يشكل مع معموله الأول زوجا مرتبا، ومع معموله الثاني علاقة حرة تسمح بإمكانية انتقال هذا المعمول (إلا في حالة جمود العامل) ويتحكم العامل في هذا البناء معنى ومبنى.

ثانيا- نموذج النظرية التوليدية التحويلية لعبد القادر الفاسي الفهري:

لقد اعتمد عبد القادر الفاسي الفهري نموذج النظرية التوليدية التحويلية في وصف البنى التركيبية في اللغة العربية، بعد إيمان منه بأنّ نظرية العامل ليست كفيلة بخلق وصف علمي يتسم بالواقعية في وصف الظواهر النّحوية؛

ولذلك فقد انطلق في تفسير توليد البنى اللغوية في العربية، من فكرة الاشتقاق؛ أي أنّ كلَّ البنى اللغوية التي تجيزها العربية، مُشتقَّة من بنية واحدة هي (ف فا مف) والفهري بذلك يخالف النُّحاة حول أخذ مُكوِّنات الجملة حركتها الإعرابية بموجب عامل لفظي أو معنوي؛ حيث ذهب إلى أنّ "النُّحاة القدامى اعتبروا بُنَى الابتداء والتّقديم والاشتغال بنى مختلفة، ولا شيء في تصوّرهم يُوحِّد بينها اشتقاقيا أو تمثيليا وقد وصلوا إلى مثل هذه النتيجة اعتمادا على مقاييس عاملية محضة"[11] ويوضح قول الفهري أنّه لا يعتبر العامل في الجُمَل أحد العوامل التي يراها النُّحاة (العامل اللفظي أو العامل المعنوي) بل يعتبر أنّ مكونات الجملة المخالفة لأصل الترتيب، ترث حركتها الإعرابية عن الرتبة الأصلية (إمّا حركة الفاعل أو حركة المفعول) مهما كان موقعها، على أساس أنّها مُشتقَّة من رتبة (فعل فاعل مفعول) عن طريق التّحويل الذي تُعبِّر عنه أنواع النقل الثلاثة التبئير والخفق والتفكيك، وتفسيره أخذَ مُكوِّنات هذه البنى حركة الإعراب جاء بناء على أصلية هذه الرّتبة الرّفع للفاعل والنّصب للمفعول إلغاءً لنظرية العامل.

وقد شرع الفهري في تطبيقه نموذج هذه النظرية من الاستدلال على أصلية هذه الرتبة (ف فا مف) بالنسبة للجمل في اللغة العربية[12]، مفترضا بالنسبة للجمل الاسمية التي لا يظهر فيها فعل يدعم هذه الاستدلالات من افتراض الرابط (كان) الذي هدف من خلاله إلى الجمع بين بنية الجمل الفعلية وبنية الجمل الاسمية في أصل الرتبة المستدل عليها؛ حيث ذهب إلى أنّ هذا الافتراض "ينفي عن اللغة العربية أنّ تكون لغة مُعقَّدة أو غير طبيعية. وهو افتراض يُوحِّد بين الجُمل التي اِعتُبِرت اسمية وتلك التي اِعتُبِرت فعلية. وهذا الافتراض يعني أنّ الجُمل التي لا يظهر فيها فعل في سطح البنية، جمل ذات

رابطة (أو رابطية) مثلها في ذلك مثل الجُمل التي تظهر فيها رابطة كما في الجُملة الآتية:

– كان حسين ملكا"[13].

وذهب الفهري من هذه الجُمل إلى اعتبار الفعل الناسخ (كان) فيها رابطا وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الجُمل الاسمية التي لا يظهر فيها هذا الفعل جمل ذات رابطة مُقدَّرة، ورأى أنّه "إذا صحّ هذا الافتراض، يكون المركب الاسمي الموجود في نحو (الهرم مرتفع، والسُّكَّر من القصب) فاعلا. وبالفعل فهناك ما يدل على أنّ هذا المركب فاعل، باعتبار خصائصه الإعرابية (إذ هو مرفوع) والرُّتبية (في الرُّتبة الأولى بعد الفعل) والإحالية (حيث يراقب فاعل الصفة، أو الفضلة بصفة أعم)"[14]. وحسب الفهري فإنّ الاسم المُتصدِّرَ الجُملة الاسمية فاعل باعتبار حركته؛ حيث يأتي مرفوعا على نحو الفاعل وباعتبار رتبته؛ حيث يلي الفعل الرابط المُقدَّر (كان) على نحو ما يرد الفاعل بالنسبة للفعل، وباعتبار إحاليته؛ حيث يراقب صفة الارتفاع، نحو (الهرم مرتفع) أو الفضلة، نحو (السُّكّر من القصب).

وانطلق الفاسي الفهري في تفسير التغييرات التي يمكن أنْ تطرأ على هذه الرُّتبة (ف فا مف) المُستدَلِّ عليها كأصل لترتيب مكونات الجملة في اللغة العربية، من مفهوم **التبئير والخفق والتفكيك** التي يتم بمقتضاها نقل المُكوِّنات من رُتبَتها الأصلية إلى رُتَب مختلفة، مشتقة من هذه الرُّتبة الأصلية. وتحكم هذا النقل أو التغيير في الرُّتبة عدد من القيود "وذلك على اعتبار أنّ المكون التَّحويلي له قدرة توليدية كبيرة؛ فكما يُنتِج جملا نحوية، يُنتِج جملا لاحنة (غير نحوية) فالبحث في القيود يؤدي إلى الاكتفاء بتوليد الجمل النَّحويَّة فقط"[15] وبما أنّ التحويلات لها توليد عدد من البنى اللغوية قد يأتي البعض

منها سليما كما قد يأتي البعض منها لاحنا، فقد جعل الفهري لكل نوع من التحويل قيودا خاصة، وذلك على النّحو الآتي:

1- التبئير (الموضعة): يُعرِّف الفهري هذا النَّوع من النَّقل بأنه "عملية صورية يتم بمقتضاها نقل مقولة كبرى، كالمركبات الاسمية أو الحرفية أو الوصفية ... إلخ من مكان داخلي؛ أي داخل الجُملة إلى مكان خارجي (خارج الجُملة)"[16] ويعني ذلك أنّ هذا النَّوع من النَّقل أو التحويل، يَتمُّ في البنية السطحية للجملة، عن طريق إخراج مكوِّن من مكوِّناتها من الترتيب الأصلي في البنية العميقة إلى خارج الجُملة ويشمل هذا النَّوع من النَّقل المركبات الاسمية (الأسماء) والمركبات الحرفية (التي يأتي حرف الجر رأسا لها) والمركبات الوصفية (التي يأتي الموصوف رأسا لها) والمركبات الموصولة (التي يأتي اسم الموصول رأسا لها). ويستدل الفهري على هذا النَّوع من النَّقل أو التحويل بالجُمل الآتية: "إياك نعبد، الله أدعو، في الدّار وجدته، غدا سنلتقي أميتا كان؟"[17]

ويَعدُّ الفهري المقولات التي تحتل الموقع الأول في هذه الجُمل، والتي تشمل المركب الإضافي (إياك) والمركب الاسمي (الله) والمركب الحرفي (في الدار) والظرف (غدا) والاسم (ميتا) مقولات نُقلَت من رتبتها الأصلية داخل الجُملة إلى خارجها يمينا؛ إذ الأصل الذي تقتضيه رتبة هذه الجُمل قبل أن تُنقَل إلى مكان البؤرة، هو على النحو الآتي: نعبد إياك، أدعو الله وجدته في الدار سنلتقي غدا، أكان ميتا؟

ويرى الفهري أنّ لهذا النَّوع من النَّقل قيودا خاصة "منها ما يتعلق بالمكان المَصدَر؛ أي المكان الذي تنطلق منه المقولة المنقولة، ومنها ما يتعلق بالمكان الهدف؛ أي المكان الذي تنتقل إليه هذه المقولة ومنها ما يتعلق بميدان التحويل، ومنها ما يتعلق بصورة التحويل، ومنها ما يتعلق بخَرْج التحويل؛

أي البنية الناتجة عن خَرجِ التحويل"[18] والقيود التي تتعلق **بالمكان المَصدَر**؛ أي المكان الذي تنتقل منه المقولة الداخلة في الجُملة، إلى الربض الأيمن للجملة (خارج الجُملة) اعتمد فيها الفهري على القيود التي وضعها النُّحاة شرطا على التقديم، جاعلا إياها قيدا على المَصدَر، ومفاد هذا القيد أنْ لا يتصدَّر المَصدَرَ (الجُملة المنقول منها المُكوِّن) أحدُ المقولات التي تمنع أنْ يعمل ما بعدها في ما قبلها، وهذه المقولات هي "أدوات الاستفهام وأدوات الشرط، وأدوات التحضيض، ولام الابتداء، وكم الخبرية والحروف الناسخة والأسماء الموصولة والأسماء الموصوفة بالعامل المشغول، وأدوات العرض"[19] وهذه المقولات التي وضعها النُّحاة شرطا على التقديم، تمنع أنْ يتقدم أحد المعمولات على العامل فإذا تقدم معمولها، وتوسّط بينه وبين العامل أحد هذه المقولات صار المُتقدِّم في حكم الابتداء، ومُنِع العامل أنْ يعمل في ما قبله، وهي بذلك مانعة التقديم في نظر النُّحاة، ومانعة التبئير في نظر الفهري، كما يدل على ذلك لحن الجُملة الآتية:

– ؟؟؟ زيدًا إنِّي ضربتُ.

ويكمن لحن هذه الجُملة في كونها تجعل الاسم الذي على اليمين، معمولا للفعل الواقع بعد المقولة التي تمنع أنْ يعمل العامل في ما قبله (الحرف الناسخ (إنّ)) ومَنْعُ هذه المقولات العامل في أنْ يعمل في ما قبله، يَمنَع أنْ يتقدم المعمول المنصوب باعتباره تابعا لعامله لا منفصلا عنه. ولحن هذه الجُملة يُوضِّح أنّ هذا الشرط الذي وضعه النُّحاة للتقديم يكون كذلك مانعًا لنقل التبئير باعتبار أنّ المُكوِّن المُبَأَّر يكون بمثابة نقل أحد المعمولات من الرُّتبة الأصلية إلى خارج الجُملة، ولا يجوز نقله ما لم يزل المانع.

وأمّا القيود التي تتعلَّق **بالمكان الهدف**؛ أي المكان المنقول إليه المُكوِّن المُبَأَّر فيحددها الفهري بقيد واحد، وهو "أنّ العنصر المنقول، يَحطُّ في مكان بؤرة (وهو المكان الذي يحطُّ فيه الموضع أو البؤرة) في الربض الأيمن للجملة"[20] وذلك على نحو ما توضِّحه الجُملتان الآتيتان؛ حيث يقبع المفعول في رتبته الأصلية في الجُملة الأولى، ويُنقَل إلى الربض الأيمن في الجُملة الثانية:

– قرأ خالد دلائلَ الإعجاز

– **دلائلَ الإعجاز** قرأ خالد

وأمّا القيود التي تتعلَّق **بميدان التحويل وصورة التحويل**، أي الجُمل التي يمكن أنْ يقع فيها هذا النَّوع من النَّقل وطريقة النَّقل، فهي خاصة بالجمل التي تتضمن أكثر من محمول مُدْمج، والتي يخضع فيها النقل لقيود "التَّتابع السِّلكي التي تُقيِّدُ هذا الانتقال عبر الأسلاك"[21] ومن هذه القيود التي تتعلق بمبدأ التتابع السلكي[22]:

– لا يحدث هذا النَّقل إلا عبر الصّدر (المنقول منه) الذي يُعتبَر بابا للإفلات؛

– لا يحصل هذا النَّقل إلا حينما يعمل في صدر الجُملة فعل من الأفعال التي تُعتبَر جسورا؛

– أنّ الموصول يجب أنْ يكون خبريا لا استفهاميا.

ويمثل الفهري لهذا النوع من الانتقال عبر الأسلاك المدمجة، باسم الاستفهام الذي يمكن أنْ ينتقل من صدر كل جملة مدمجة إلى الربض الأيمن للجملة الرئيسية؛ حيث يرى أنّ الاستفهام مثلا، ينطبق في ميدان جُمْلِي واحد في جملة مدمجة، أو جملة غير مدمجة، كما ينطبق عبر أكثر من جملة، نحو ما هو في الجمل الآتية[23]:

مَنْ **جاء؟**	مَنْ **تريد** أنْ **انتقدَ؟**	مَنْ **حَسِبْتَ** أنَّ زيدا **انتقدَ؟**	مَنْ **حَسِبْت** أنّ عمرا **يعرف** أنّ زيدا **انتقدَ؟**

وذهب الفهري في تفسيره تَصدُّر اسم الاستفهام هذه الجُمل، إلى أنّ "افتراض التتابع السِّلكي يقر أنّ (مَنْ) في الجُمل الثلاث الأخيرة، لم ينتقل في وثبة واحدة من المكان المصدر (مكان المفعول) إلى المكان الهدف (مكان الموصول) وإنّما انتقل عبر المصدر (مص) الموجود في كل جملة بصفة سلكية؛ أي بالتدرج من سلك إلى آخر"[24] ويعني ذلك أنّ اسم الاستفهام لمْ يتم تبئيره من موقعه الأصلي، إلا بعد تتابعه عبر المصدر الذي قبع فيه في كل الجُمل المدمجة؛ حتى ثبت أخيرا في الربض الأيمن للجملة الرئيسية، نحو ما توضحه الترسيمة الآتية:

وتوضِّح الترسيمة أنّ اسم الاستفهام (مَنْ) حسب ما يرى الفهري، كان قد وُلِد مفعولا في جُملة (أنْ انتقدَ مَنْ) أي موقعه الأصلي وهو مصدر النَّقل، ثمّ بعد دمج هذه الجُملة بجملة (تُريدُ) انتقل اسم الاستفهام إلى الجُملة الرئيسية (تريد) أي أصبح مفعولا في جملة (تُريدُ مَنْ أنْ انتقدَ) ثم نُقِل إلى ربضها الأيمن (من تريد أنْ انتقد)؛ أي انتقل إلى موقع البؤرة، تحت قيد النَّقل عبر المصدر، ومبدأ التتابع السلكي.

وأمّا القيود التي تتعلق **بخَرْج التحويل**؛ أي البنية الناتجة عن هذا النَّوع من النَّقل (التبئير) فهما قيدان[25]:

- أنّ الرّبط يجب أنْ يتمَّ في إسقاط مؤاخ.
- توارث الإعراب.

ومفاد **القيد الأول** أنّ البنية الناتجة عن هذا النَّوع من النَّقل أو التحويل يجب أنْ تربط بين المُكوِّن المُبَأَّر والجُملة في إسقاط مؤاخ، نحو ما توضِّحه الجُملة الآتية:

- **زيدا** ضربتُ.

ويمتنع أنْ تكون البنية الناتجة عن هذا النَّوع من النَّقل، جاعلة المُكوِّن المُبَأَّر في إسقاط والجُملة في إسقاط، نحو ما يوضِّحه لحن الجُملتين الآتيتين:

- ؟؟؟ **زيدا** إنّي ضَرَبْتُ.
- ؟؟؟ اللهَ هل دعا محمدُ.

ويكمن لحن هذه الجُمل في كونها تخرق قيد الإسقاط المؤاخي المُتعلِّق بالبنية النّاتجة عن التبئير؛ حيث تجعل المُكوِّن المُبَأَّر والجُملة في إسقاطين مختلفين، إسقاط الجُملة الرئيسية، وإسقاط الجُملة المُدمَجَة باعتبار أنّ هذه التراكيب –حسب الفهري– تُعتَبر مُكوَّنة من جملتين مُدمَجتين "وبالفعل نجد في هذا التّركيب أنّ المُركَّب الاسمي (الأثر) لا يُوجَد في إسقاط مؤاخ لـــ (زيد) أو (الله) فهناك إسقاطان الجُملة الرئيسية (ج) والجُملة المُدمَجة (جَ) والأثر يُوجَد تحت (جَ) لا تحت (ج) ونفس الشيء ينطبق على جملة (زيدًا إنّي ضَرَبْتُ)"[26] ومنع جعل المُكوِّن المُبَأَّر في إسقاط والجُملة في إسقاط؛ لأنّ تباعد الإسقاطين يمنع توارث الإعراب، بين المُكوِّن المُبَأَّر والمصدر المنقول منه المُكوِّن؛ إذ الأصل الذي تُصبِح عليه هذه الجُمل في حالة ما إذا تباعد الإسقاطان هو على النّحو الآتي:

–زيدٌ إنّي ضربتُه.

ومفاد **القيد الثاني** أنّ المُكوِّن المُبَأَّر يجب أنْ يرث حركة الإعراب عن المصدر المنقول منه المُكوِّن، نحو ما توضِّحه صحة الجُملة الأولى في مقابل لحن الجُمل الثانية:

- الكتابَ قرأتُ
- ؟؟؟ الكتابُ قرأتُ

2- الخفق: ذهب الفاسي الفهري إلى أنّه بخلاف التغيرات التي تَحدُث قبل الفعل، والتي يجسِّدها نقل التبئير "هناك تغيُّرات تُحدُث بعد الفعل، وتُغيِّر محليا رُتَبَ الفضلات، كما هو ممثل له في الجُملة الآتية:

- ضرب الولدَ زيدٌ"[27].

ويُوضِّح المثال أنّ نقل الخفق يختلف عن نقل التبئير، في كون الخفق متعلِّقا بإعادة ترتيب الفضلات الواردة بعد الفعل، والتي تشمل الفاعل والمفعول والمخصصات كالمفاعيل الأخرى (المفعول فيه (ظرفي الزمان والمكان) والمفعول له، والمفعول المطلق) والمركبات الحرفية (الجار مع الجرور) وداخل إسقاط (الجُملة) وليس خارجها كما هو في التبئير، ولهذا ذهب الفهري إلى أنّ "مثل هذا التقديم يختلف عن التبئير في عدة خصائص؛ إذ هناك قاعدة من نوع خاص، تضبط هذا النَّوع من الرُّتبة، هي قاعدة خفق ميدانها إسقاط واحد لا تخرج عنه، ولا تنطبق إلا على العجر الأخوات"[28] ويتضح من قول الفهري أنّ الخفق لا يتجاوز النَّقل فيه حدود الفعل؛ حيث يَتِمّ من خلاله إعادة ترتيب المُكوِّنات الواردة بعده لا غير وهو بذلك يخضع لقيدين اثنين، خلافا للقيود التي يخضع لها التبئير، وهذان القيدان هما:

أ- أنْ لا تخرج عن إسقاط واحد في الجُملة.

ب- لا تنطبق إلا على العُجَرِ الأخوات

ومفاد **القيد الأول** أنّ الخفق بخلاف التبئير، يكون داخل إسقاط الجُملة، ولا يمكن أنْ يَعبُر المُكوِّن المنقول من رتبته الأصلية، حدود الإسقاط الواحد إلى غيره من إسقاطات الجُمل المُدمجَة، نحو ما يوضحه لحن الجُملة الثانية في مقابل الجُملة الأولى:

- كم تظنُّ أنّ زيدا تزوج **من النساء**.
- ؟؟؟ كم تظنُّ **مِنَ النساء** أنّ زيدا تزوج

ويكمن لحن الجُملة الثانية في كونها تنقل المُكوِّن (من النساء) الواقع في الجُملة المُدمجَة (زيد تزوج من النساء) إلى الجُملة الرئيسية (تَظُنُّ) وهذا خرق لقاعدة الخفق التي مفادها أنَّ المُكوِّن المَخفُوق، لا يُمكِن أنْ يتجاوز حدود الإسقاط الواحد، باعتبار أنّ هذا النَّوع من التّغيير في الرُّتبة، يقع داخل إسقاط الجُملة وليس خارجه؛ أي بعد الفعل وليس قبله.

ومفاد **القيد الثاني** أنّ هذا النَّوع من النَّقل لا ينطبق إلا على العُجرِ الأخوات؛ أي التي تجتمع في سلك واحد بعد الفِعل (تجمعها عقدة واحدة في المُشجَّر) ويمتنع حسب هذا القيد أنْ يكون نقل الخفق بين عجرتين ليستا أختين؛ لعدم إمكانية تبادل المواقع في ما بينها، نحو ما يوضحه لحن الجملة الأخيرة مِنْ بيْن الجمل الآتية:

- جاء كثير من الرجال البارحة
- جاء **البارحة** كثير من الرجال
-؟؟؟ جاء كثيرٌ **البارحة** من الرجال

ويكمن لحن الجُملة الثالثة في كونها تنقل المُكوِّن (البارحة) إلى عجرة أخرى هي عجرة المركب الاسمي (كثير من الرجال) وهي بذلك تتبادل المَوقِع مع عجرة ليست أختا، وهو ما يُعَدُّ خرقا للقيد الذي مفاده أنَّ الخفق لا ينطبق إلا على العجر الأخوات.

3- التفكيك: يُعدُّ التّفكيك في القواعد التوليدية التحويلية، قاعدة من القواعد التي يَتمّ بمقتضاها نقل مُكوِّن من مُكوِّنات الجملة من رتبته الأصلية، إلى خارج الجُملة إمّا يمينا أو يسارا، ولهذا ذهب الفاسي الفهري إلى أنّ "التفكيك نوعان باعتبار الجهة: تفكيك إلى اليمين كما في جملة: زيدٌ ضربته. وتفكيك إلى اليسار كما في جُملة: ضربته زيدٌ"[29] ويرى الفهري أنّ المُكوِّن (زيد)

الواقع يمين الجُملة الأولى، ويسار الجُملة الثانية، مُفكَّك من الجملتين إلى خارجهما.

ويَجمَع التّفكيك والتبئير النَّقل إلى اليمن، إلا أنّهما يختلفان؛ من حيث قواعد النَّقل؛ إذ يُشترَط في العنصر المُفكَّك الرّفع دائما خلافا للعنصر المُبَأَّر الذي يرث الحركة الإعرابية عن المصدر المَنقُول منه كما يمتنع أنْ يترك أثرا ضميريا "فالتفكيك يكون دائما بالارتفاع، سواء كان المكان المصدر مجرورا أو مرفوعا، وهو يُخالِف التبئير في هذا نحو:

–زيدٌ ضربت غلامه.

–زيدٌ مررت به."[30]

وتُوضِّح الجُملتان أنّ العُنصرَ المُفكَّك إلى اليمين لا يرث الحركة الإعرابية عن المكان المصدر على نحو ما هو في البؤرة، ويترك أثرا ضميريا (الهاء) وهذا ليس قيدا؛ لأنّ العنصر المُفكَّك قد يترك وقد لا يترك أثرا ضميريا خلافا للبؤرة التي ترث الحركة الإعرابية عن المكان المصدر، ويمتنع أنْ تترك أثرا ضميريا؛ إذ الأصل في الجُملتين أنهما على نحو:

– ضربتُ غلامَ زيدٍ.

– مررتُ بزيدٍ.

ومن القيود التي وضعها الفهري لهذا النَّوع من النَّقل **قيد التعيين**، الذي مفاده أنّ العنصر المُفكَّك يجب أنْ يكون مُحدَّدا؛ من حيث الجنس أو النَّوع أو يكون إشاريا، مخالفا في ذلك القدماء حول عدم جواز الابتداء بالنكرة؛ حيث يرى أنّ "بعض النُّحاة اشترطوا فيه التعريف، ولكن هذا غير صحيح فالعنصر المفكك يمكن أنْ يكون نكرة، فيكون جنسيا، أو مُعيَّنًا نوعيا، أو إشاريا. والقيد الوحيد هو ألا يكون المفكك غير مُعيَّن، ومعلوم أنّ غير المعين ليس إحاليا البتة، نحو ما هو في الأمثلة الآتية:

– بقرةٌ تكلمتْ.

– رجلٌ جاءني في هذا الصباح.

– أستاذٌ في الجامعة لا يمكن أنْ يرغب في هذه المسؤولية"[31]

وتوضح الأمثلة التي أوردها الفاسي الفهري حول التفكيك إلى اليمين أنّ الابتداء بالنَّكرة جائز بخلاف ما قال به النُّحاة من عدم جوازه إلا بشروط (مسوغات الابتداء بالنكرة)؛ حيث اشترط الفاسي الفهري في النّكرة أنْ تكون مُعيِّنة لجنس حيوان (بقرة، نسر، ناقة) أو إنسان (رجل، أستاذ، جاسوس) أو معينة نوعيا (سيارة زرقاء أقبلت مسرعة) أو إشارية (هذا).

ويُستنتَج مما تقدَّم أنّ الفهري قد انطلق في تفسير توليد البنى اللغوية في العربية، من فكرة الاشتقاق؛ أي أنّ كلَّ البنى اللغوية التي تجيزها العربية مُشتقَّة من بنية واحدة هي (ف فا مف) عن طريق التّحويل الذي تُعبِّر عنه أنواع النقل الثلاثة التبئير والخفق والتفكيك، وتفسيره أخذَ مُكوِّنات هذه البنى حركة الإعراب جاء بناء على أصلية هذه الرّتبة، الرّفع للفاعل والنّصب للمفعول إلغاءً لنظرية العامل. والفهري بذلك يخالف النُّحاة حول أخذ مُكوِّنات الجملة حركتها الإعرابية، بموجب عامل لفظي أو معنوي؛ إذ إنّه لا يعتبر العامل في البنى المُبَأَّرة أو المفككة أو المخفوقة، أحد العوامل التي يراها النُّحاة (العامل اللفظي أو العامل المعنوي) بل يعتبر أنّ مكونات الجملة المخالفة لأصل الترتيب، ترث حركتها الإعرابية عن الرتبة الأصلية (إمّا حركة الفاعل أو حركة المفعول) مهما كان موقعها، على أساس أنّها مُشتقَّة من رتبة (فعل فاعل مفعول).

ثالثا– نموذج نظرية النَّحو الوظيفي لأحمد المتوكل: يُعَدُّ النَّحو الوظيفي مُعالَجةً نوعية للأنحاء التي قامت على الوصف البنوي، عازلة اللغة عن وظيفتها التواصلية، ولهذا كان "من الطبيعي أنْ يتَجاوز البحث اللساني في

إطاره الوظيفي، القدرة النَّحوية للغة إلى القدرة التّداولية ففهم اللغة فهما عميقا لا يمكن أنْ يكون إلا عن طريق ربطها بمختلف الأهداف التّداولية التي تُستَعمل مِنْ أجلها"[32] ويَعتبِر النَّحو الوظيفي بهذا أنّ الأنحاء البنوية أو الاتجاهات التي سارت في وصفها اللغة وصفا بنويا، تُمثّل فصلا للغة عن وظيفتها التواصلية، والنَّحو العربي لا يكاد يخرج عن هذا الاعتبار؛ لكونه لا يتجاوز تحديد العلاقة البنوية بين الوحدات اللغوية من خلال حركات أواخرها؛ لهذا عمد أحمد المتوكل إلى تبنِّي النَّحو الوظيفي؛ قصد إعادة وصف قواعد اللغة العربية وِفقَ مفاهيمه النّظرية؛ حتّى يتّصف نحوها بالشمولية في وصف الظواهر اللغوية في العربية، وأصبح بذلك نحو اللغة العربية الوظيفي يتضمّن ثلاثة أنواع من الوظائف هي: الوظائف الدّلالية والوظائف والتّركيبية والوظائف التّداولية، ويحكم هذه الوظائف **قيد أحادية الإسناد** الذي مفاده[33]:

– لا موضوع يحمل أكثر من وظيفة واحدة، من كل نوع من الوظائف الثلاث في نفس الحمل.

– لا وظيفة تُسنَد إلى أكثر من موضوع واحد، داخل نفس الحمل.

1– الوظائف الدّلالية: يكمن الدور الأساس الذي تقوم به الوظائف الدلالية في تعيين مختلف الأدوار التي تقوم بها الحدود في بناء الوقائع؛ حيث تتكون البنى التّركيبية في اللغة العربية من جملة إسنادية، تتكون من مُسنَد ومُسنَد إليه، أو من مسند ترد بالنسبة إليه عدة مسانيد، مثل قولك: جاء محمد (مسند + مسند إليه) أو قولك: شرب محمد لبنا (مسند + مسند إليه$_1$ + مسند إليه$_2$). ويُصطلَح على البنية المُكوَّنة على هذا الأساس في النَّحو الوظيفي بـــ (البنية الحملية) ويُسمَّى المسند فيها **محمولا**، وتسمى الموضوعات المُسنَد إليها المحمول **حدودا**.

وقد وضع أحمد المتوكل سلميّة توضح مختلف الأدوار الدلالية للحدود التي يمكن أن ترد مساوقة للمحمول في اللغة العربية، وتعكس هذه السلمية درجات الأسبقية بين الحدود، حسب أولوية تمركزها بالنسبة للمحمول، نحو ما هو في السلميّة الآتية[34]:

{منف / قو / متض / حا} > مستق> متق> [حد / زما / مك] > مستفيد> أداة> حال> علة> مصاحب

وترصد السلمية التي وضعها المتوكل مختلف الأدوار الدلالية التي تقوم بها الحدود، التي قد ترد مساوقة للواقعة التي تُعتبَر محمول البنية الحملية؛ حيث يرد كل حدّ له وظيفة دلالية تلعب دورا بالنسبة للواقعة، فالحدّ الحامل الوظيفة الدّلالية **(المُنفِّذ أو القوة أو المتموضع أو الحائل)** تدلّ على صاحب الواقعة والحدّ الحامل الوظيفة الدّلالية **(المستقبل)** يدلّ على مُستقبِلِ الواقعة، والحدّ الحامل الوظيفة الدّلالية **(المُتقبِّل)** يدل على متقبل الواقعة، والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الحدث)** يدلّ إما على تأكيد الواقعة (أكرمت زيدا **إكرامًا)** أو هيئة الواقعة (وقف زيد **وقفة** احترام) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الزمان)** يدلّ على زمن الواقعة (جاء زيد **يوم الخميس)** والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(المكان)** يدلّ على مكان الواقعة (دخل زيد **إلى الجامعة)** والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(المستفيد)** يدلّ على المستفيد من الواقعة (اشترى زيد سيارة **لابنه)** والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الأداة)** يدلّ على أداة الواقعة (سافرت **بالسيارة)** والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(الحال)** يدلّ على هيئة صاحب الواقعة (أقبل زيد **مسرعا)** والحد الحامل الوظيفة الدلالة **(العلة)** يدلّ على سبب الواقعة (نعبد الله **طمعا** في جنته) والحد الحامل الوظيفة الدّلالية **(المصاحب)** يدلّ على المُصاحبِ صاحبَ الواقعة (جِئْتُ و**زيدًا**).

2- الوظائف التركيبية: ترتبط الوظائف التركيبية بالوظائف الدلالية في النحو الوظيفي ارتبطا مباشرا؛ حيث تُسنَد الوظائف التركيبية إلى الحدود على أساس دلالي، وكما سبق أنْ أشرنا تتكوَّن البنية الحملية من محمول وحدود موضوعات وحدود لواحق، ويأخذ كلّ حدّ منْ تلك الحدود وظيفة دلالية تدلّ على الدور الذي يلعبه في بناء الواقعة أو في تحديد الظروف المحيطة بها وتختلف هذه الوظائف الدّلالية باختلاف أدوارها، كما يختلف عددها تبعا للحدود التي قد ترد مساوقة للمحمول (الواقعة) إذ قد يَرِد في البنية الحملية المُنفِّذ فحسب (جاء **عمر**) وقد يَرِد المُنفَّذ إلى جانب المُتقبِّل (كتب **عمر الدرس**) وقد يَرِد الاثنان معا إلى جانب المستقبل (وهب **زيد عمرا سيارة**).

ومع تعدد هذه الحدود المساوقة للمحمول واختلاف وظائفها، إلا أنّ الوظائف التّركيبية في نّحو اللغة العربية الوظيفي، لا تُسنَدُ إلا لحدين اثنين من بين الحدود الأخرى التي قد ترد ضمن البنية الحملية على أساس أنّ الوظائف التّركيبية قد قُلِّصت إلى وظيفتين تركيبيتين لا أكثر، هما وظيفتا **الفاعل والمفعول**، ولا تُسنَدان إلا لحدَّيْن اثنين حاملين لإحدى الوظائف الدّلالية؛ إذ "ثمّة اقتراحات قُدِّمت في إطار نماذج لغوية مختلفة، يجمع بينها أنّها تستهدف تقليص الوظائف التّركيبية إلى وظيفتين اثنتين: وظيفة الفاعل ووظيفة المفعول وأنّها تَعتَبر أنّ الوظيفة المفعول لا يحملها في نفس الجملة إلا مكون واحد"[35] وحسب هذا المبدأ فإنّه لا إمكانية في النَّحو الوظيفي لإسناد هذين الوظيفتين لأكثر من حدّ في البنية الحملية، بالرغم من توفّر اللغة العربية على مُكوِّنيْن يمكن أنْ يأخذا نفس الوظيفة التّركيبية المفعول نحو قولك: أعطت هند **خالدا القلم**.

وقد صاغ المتوكل سلميتين تضبطان وظيفتي الفاعل والمفعول في اللغة العربية، تِبَعا للوظائف الدّلالية التي لها إمكانية أخذ هاتين الوظيفتين التّركيبيتين على النَّحو الآتي:

2-أ سلميّة إسناد الوظيفة التّركيبية الفاعل: اقترح أحمد المتوكل السلميّة الآتية لضبط **الوظيفة التّركيبية (الفاعل)** والوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، من الوظائف التي يمتنع أنْ تُسنَد إليها هذه الوظيفة في قواعد اللغة العربية[36]:

{منف، قو، متض، حا} > مستق> متق> {حد، زم، مك} مستفيد حال علة مصاحب

فاعل + + + + − − − − −

وتفيد السّلميّة التي صاغها أحمد المتوكل لضبط الوظيفة التّركيبية الفاعل تِبَعا للوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، أنّ هذه الوظيفة التّركيبية (الفاعل) لها إمكانية الاستناد إلى الحدود الحاملة الوظائف الدّلالية **(المُنفِّذ أو القوة أو المتموضع أو الحائل)** في حالة بناء الفعل للمعلوم، وإلى **(المستقبل** و**المُتقبِّل، والمكان،** أو **الزمان،** أو **الحدث)** في حالة بنائه للمجهول. وتفيد السلميّة ذاتها أنّ الحدود التي لها الوظائف الدّلالية **(المستفيد، والحال، والعلة والمصاحب)** ليس للوظيفة التّركيبية الفاعل إمكانية الاستناد إليها "كما يدلّ على ذلك لحن الجمل الآتية:

- ؟؟؟ اشتُريَ لِزيد **(مستفيد)** حقيبةً.
- ؟؟؟ تُوقِف **تَعبٌ (علة).**
- ؟؟؟ جِيئَ **راكبٌ (حال).**
- ؟؟؟ سِيرَ و**النيلُ (مصاحب)**"[37]

وتُعَدُّ هذه الجمل المتوالية لاحنة؛ لأنّها تسند الوظيفة التّركيبية الفاعل إلى الحدود التي لا تُعتبَر داخلة في الوجهة، فالفعل (اشتَرَى) في الجملة الأولى

واقعة تستدعي استحضار (منفذ، المُشتَرِي) يأخذ الوظيفة التّركيبية الفاعل و(متقبل، المُشتَرَى) يأخذ الوظيفة التّركيبية المفعول، فإذ بُنِي الفعل للمجهول ناب الحد المُتقبِّل عن الحدّ المُنفِّذ في أخذ الوظيفة التّركيبية الفاعل، فتقول (اشْتُرِيتْ حَقِيبَةٌ) ولا يصحّ أنّ ينوب الحد المُستفِيد (زيد) من الواقعة عن الحدّ المُنفِّذ لها. ومثل ذلك ينطبق الحال على الحدود الحاملة الوظائف الدّلالية الحال والعلة والمصاحب في الجمل المتوالية على التّرتيب، فليس لها إمكانية أخذ الوظيفة التّركيبية الفاعل؛ لأنّها لا تصلح أنْ تنوب عن الحد (المُنفِّذ).

2-ب سلميّة إسناد الوظيفة التّركيبية المفعول: اقترح أحمد المتوكل السلميّة الآتية لضبط **الوظيفة التّركيبية (المفعول)** والوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، من الوظائف التي يمتنع أنْ تُسنَد إليها هذه الوظيفة في قواعد اللغة العربية[38]:

مستقبل	**>**	**متقبل**	**>**	**مكان / زمان / حدث**	**مستفيد**	**حال**	**علة**	**مصاحب**
مفعول	+	+		+	−	−	−	−	−

وتفيد السلميّة التي صاغها أحمد المتوكل؛ لضبط الوظيفة التّركيبية المفعول تِبَعا للوظائف الدّلالية التي لها إمكانية الاستناد إليها، أنّ الوظيفة التّركيبية المفعول، لها إمكانية الاستناد إلى الحدود الحاملة الوظائف الدّلالية (**المستقبل** و**المُتقبِّل**، و**المكان** و**الزمان** و**الحدث**). وتفيد السلميّة ذاتها أنّ الحدود الحاملة الوظائف الدّلالية (**المستفيد، والحال، والعلة، والمصاحب**) يمتنع إسناد الوظيفة التّركيبية المفعول إليها؛ وذلك لكونها خارجة عن حدود الوجهة التي تقتضيها الواقعة ودليل خروجها عن حدود الوجهة، هو أنّها لا يمكن أنْ تنوب عن الفاعل في حالة بناء الفعل للمجهول.

وبناء على مفهوم الوجهة عند فيلمور والإسناد عند النّحاة، فإن الوظيفتين التّركيبيتين الفاعل والمفعول في نحو اللغة العربية الوظيفي، لا يمكن أنْ يأخذها من الوظائف الدّلالية إلا الحدود التي تصلح أنْ تكون مسندا إليه بالنسبة للواقعة، والتي تشمل وفق قواعد اللغة العربية الحدّ ((المُنفِّذ والمتموضع والحائل، والقوة) أو المُتقبِّل، أو المستقبل، أو المكان، أو الزمان أو الحدث) بالنسبة للوظيفة التّركيبية الفاعل، والحد (المُتقبِّل والمستقبل والمكان، والزمان والحدث) بالنسبة للوظيفة التّركيبية المفعول.

3- الوظائف التداولية: يكمن الدور الأساس للوظائف التداولية في النحو الوظيفي في تعيين مختلف الأدوار التي تقوم بها مكونات الجملة بالنسبة لكل من طرفي التداول (المتحدث والسامع) وهي تعتبر أساس تميز النحو الوظيفي عن الأنحاء البنوية، حيث سعى أصحاب النّحو الوظيفي إلى رصد جميع الوحدات التركيبية في عدة لغات مختلفة نمطيا؛ قصد حصر مختلف الأدوار التي يمكن أن تقوم بها مكوناتها أثناء العملية التواصلية. وقد حصر المتوكل هذه الوظائف التّداولية التي يمكن أنْ تُحدِّد مختلف الأدوار التي تقوم بها مُكوِّنات الجملة أثناء العملية التواصلية في خمس وظائف، تتميّز فيما بينها؛ من حيث داخليتها أو خارجيتها، على نحو ما هو آتٍ:

3-أ الوظائف التّداولية الداخلية: وهي الوظائف التي تندرج ضمن البنية الحملية، وتشمل وظيفتي (**المحور والبؤرة**) على النَّحو الآتي:

3-أ-1 المحور: ذهب أحمد المتوكل إلى تعريف (المحور) وفق التعريف الذي اقترحه سيمون ديك بأنّه "المُكوِّن الدّال على ما يُشكِّل (المُحدَّث عنه) داخل الحمل"[39] ويُوضِّح هذا التعريف أنّ كلّ ما يمكن أنْ يُشكِّل بالنسبة لكل من المتحدِّث والسامع مدار حديثهما، تُسنَد إليه الوظيفة التّداولية الداخلية المحور على نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

– لمن أعطى **زيدٌ** الكتابَ؟

– أعطى **زيد** الكتاب محمدا.

ويُعَدُّ المُكوِّن **(زيد)** في الجملة الأولى محور الاستخبار، وفي الثانية محور الإخبار، ومع تَوفُّر الجملتين على مُكوِّن ثان (الكتاب) يمكن اعتباره محورا إلا أنّ ذلك يمتنع في النَّحو الوظيفي؛ لكونه يتنافى وقيد إسناد الوظائف والذي مفاده أنّه لا وظيفة لأكثر من حد، ولهذا فقد ذهب أحمد المتوكل إلى أنّه في هذه الحالة، يأخذ الحد (الفاعل أو ما ينوب عنه) الأولوية في أخذ الوظيفة التّداولية المحور، ويرى أنّه "يُزكِّي فرضية أسبقية المُكوِّن الفاعل على غيره من المُكوِّنات في أخذ الوظيفة التّداولية المحور حصر النحاة العرب القدماء لعلاقة ما أسموه بالإسناد بين الفعل (أو ما يقوم مقامه) والفاعل (أو نائبه) مصطلحين على الأول مسندا والثاني مسندا إليه"[40] ويعني ذلك أنّ وظيفة المحور ينفرد بها (الفاعل) أو (ما ينوب عنه) في حالة بناء الفعل للمجهول نحو ما توضّحه الأمثلة الآتية:

– أعطى **زيدٌ** خالدا الكتاب. **(محور)**

– أُعطِي **خالدٌ** الكتاب. **(محور)**

– أُعطِي **الكتابُ** خالدا. (بشرط الإحالية: تعني أنْ يكون المُكوِّن المحور محيلا على شيء يعلمه المتحدِّث والسامع ويشكِّل مدار حديثهما)

3-أ-2 البؤرة: ذهب أحمد المتوكل إلى تعريفها وِفقَ التعريف الذي اقترحه سيمون ديك، بأنّها "المُكوِّن الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزا في الجملة"[41] ويُقصَد بها المعلومة التي ينقلها المتحدِّث للسامع أو الحدّ الذي يتضمن الفائدة الإخبارية، وقد اقتصرت النظرية النَّحوية الوظيفية عند ديك في بدايتها على إسناد هذه الوظيفة لكل مكوِّن يُعتبَر في التّركيب متضمنا معلومة جديدة بالنسبة للسامع إلا أنّ أحمد المتوكل ذهب إلى التمييز بين

نوعين من البؤرة على أساس أنّ "ما يُمكِن أنْ يضيفه المتكلم إلى مخزون المخاطب ليس معلومات جديدة فحسب؛ بل كذلك معلومات تُعدِّل، أو تصحِّح أو تعوِّض معلومات في مخزون المُخاطَب، يعدُّها المتكلم مُستوجِبة للتعديل أو التصحيح أو التعويض"[42] وبناء على الفرق بين نقل معلومة جديدة، وبين تعديلها أو تصحيحها أو تعويضها بواسطة المكون الحامل الوظيفة التّداولية البؤرة، ميّز المتوكل بين بؤرتين رئيسيتين، هما: **بؤرة جديد، وبؤرة مقابلة** "واقترح دعما للتمييز بينهما رائزين اثنين: رائز سؤال جواب ورائز التّعقيب"[43] ويرتبط رائز السؤال والجواب ببؤرة الجديد حيث تمثِّل جوابا طبيعيا جملة **(عمر مسافر غدا)** والتي تتضمن بؤرة جديد، لسؤال مثل: **متى مسافر عمر؟ أو ما الخبر؟** ولكن لا تصلح أنْ تكون أجوبة طبيعية للجمل التي تتضمن بؤرة مقابلة، نحو ما تبيّنه الإجابات اللاحنة الآتية:

- متى مسافر عمر؟
- ؟؟؟ **غدا** مسافر عمر.
- ماذا قرأتَ؟
- ؟؟؟ كتابَ الجرجاني قرأتُ.

ويرتبط رائز التعقيب ببؤر المقابلة؛ حيث يُطلَقُ "على العبارات المُصدَّرة بحرف النّفي أو بحرف الإضراب (بل) اللذان يُستعملَان رائزا لوجود بؤرة المقابلة"[44] ويعني ذلك أنّ الجملة إذا تصدرها نفي أو حرف الإضراب (بل) أو إذا أَمكَن إلحاق تعقيب النفي أو الإضراب بها فإنّها متضمنة بؤرة مقابلة نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

- **بل يوم الخميس** مسافر عمر. (لا يوم الغد)
- ليس المسافر **زيد**. (بل عمر)
- عمر ليس مسافرا **غدا**. (بل يوم الخميس)

– **كتاب الجرجاني** قرأتُ. (لا كتاب سيبويه)

وكما ميّز المتوكل بين نوعين من البؤرة؛ من حيث طبيعتها (بؤرة الجديد وبؤرة المقابلة) كان قد ميّز البؤرة؛ من حيث مجال التبئير بين نوعين من البؤر: بؤرة الجملة وبؤرة المكوِّن؛ حيث "تُسنَد كل من بؤرة المقابلة وبؤرة الجديد إلى مكوِّن من مكونات الجملة، أو إلى الجملة برمتها"[45] فإذا أسندت البؤرة إلى جملة بأكملها عُدَّت بؤرة جملة، وإذا أسندت إلى مُكوِّن من مكوناتها عُدَّت بؤرة مُكوِّن، نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

– عاد زيد من السفر **البارحة**. (بؤرة مكون جديد)

– **البارحة** عاد زيد من السفر. (لا اليوم). (بؤرة مكون مقابلة)

– عمر، **عاد أخوه من السفر**. (بؤرة جملة جديد)

– **أحَضَر الضيوف؟** (أم لا). (بؤرة جملة مقابلة)

وتوضِّح الأمثلة المتتالية نوع البؤرة؛ من حيث طبيعتها بالنسبة لكل من المتحدِّث والسامع (بؤرة جديد أو بؤرة المقابلة) كما توضّح نوع البؤرة من حيث مجال التبئير؛ إذ تُعدُّ الجملتان الأولى والثانية متضمِّنة بؤرة مكوِّن على أساس أنّ مجال التبئير فيها يمسّ مكونا من مكوناتها، سواء كانت بؤرة جديد أو بؤرة مقابلة. أمّا الجملتان الثانية والثالثة فتُعدّ متضمنة بُؤَرا جُمَلِيَّة، على أساس أنّ مجال التبئير فيها يمسُّ الجملة بأكملها سواء كانت بؤرة جديد أو بؤرة مقابلة وهذا التَّمييز بين نوعي البؤرة؛ من حيث مجال التبئير، يوضّح أنّ البؤرة قدّ تمسّ إحدى مكونات البنية الحملية، كما يمكن أنْ تمسّ البنية الحملية بأكملها؛ لكون البؤرة بالنسبة للجملة وظيفة تداولية داخلية، ولا يمكن أنْ يمسَّ مجال التبئير فيها الوظائف التّداولية الخارجية (المنادى، والمبتدأ والذيل).

3-ب الوظائف التّداولية الخارجية: وهي الوظائف الخارجة عن حدود البنية الحملية، وتشمل الوظائف التّداولية **(المبتدأ، والذيل، والمنادى)** على النّحو الآتي:

3-ب-1 المبتدأ: عرّف المتوكل الوظيفة التداولية المبتدأ، وِفقَ التعريف الذي اقترحه ديك، بأنّه "ما يُحدِّد مجال الخطاب، الذي يُعتَبر الحمل بالنسبة إليه واردا"[46] ويعني ذلك أنّ الخاصية المميزة للمبتدأ هي ورود الحمل بأكمله تابعا له، أو واردا بالنسبة إليه نحو ما تبيّنه الجمل الآتية:

- **زيد**، أبوه مريض - **زيد**، هل لقيت أباه - **زيد**، إنْ تُكرِمه يُكرِمْك.

وتأخذ المركبات الاسمية الأولى في الجمل المتتالية؛ حيث البنية الحملية الموالية لها كلّها واردة بالنسبة إليها، الوظيفة التّداولية المبتدأ باعتبارها تشكِّل مجال الخطاب، وما يلاحظ على هذه المكونات الاسمية أنّها لا تأخذ سوى الوظيفة التّداولية (المبتدأ) وليس لها إمكانية أخذ وظيفة دلالية؛ لأنّها لا تُعتَبر حدا من حدود البنية الحملية، وكذلك يمتنع أنْ تأخذ وظيفة تركيبية؛ لأنّها لا تعتبر فاعلا ولا مفعولا، وهذا ما جعلها تنضوي ضمن الوظائف التّداولية الخارجية لا الداخلية، ويدل على خارجيتها، أنّها بخلاف المحور الذي يُعَدُّ وظيفة تداولية داخلية، له وظيفة دلالية ووظيفة تركيبية؛ ويفرض الحمل قيود انتقائه، في حين أنّ المبتدأ لا يخضع لقيود انتقاء الحمل، نحو ما توضحه الأمثلة الآتية:

- **زيد** منطلق. **(محور)**
- **المسافرون** منطلقون. **(محور)**
- **زيد**، أخواه مسافران **(مبتدأ)**
- **المسافرون**، غادر أحدهم. **(مبتدأ)**

وتوضّح الأمثلة المتتالية أنّ (المحور) يفرض الحمل قيود انتقائه، فيكون مطابقا للمحمول في الجنس العدد، أما المبتدأ فلا يخضع لقيود انتقاء الحمل؛ بمعنى أنه ليس من الضروري أنْ يطابق المبتدأ المحمول في الجنس والعدد؛ لكونه خارجا عن الحمل، وهذا ما يجعل وظيفته خارجية، مقارنة بوظيفة المحور الداخلية؛ حيث "يشكل المحور بخلاف المبتدأ موضوعا من موضوعات المحمول في البنية المحمولية، ويترتّب عن ذلك؛ أنّه يأخذ وظيفة دلالية، وتلحق به وظيفة تركيبية معينة، بالإضافة إلى وظيفته التّداولية (المحور) نحو قولك:

- **زيد** منطلق **(منفذ فاعل)**

وبخلاف المبتدأ الذي يأخذ وظيفة تداولية فحسب، وليس له إمكانية أخذ وظيفة دلالية ولا تركيبية لأنّه ليس حدا من حدود البنية الحملية"[47] نحو قولك:

- **زيد**، أخواه مسافران. **(مبتدأ، لكن ليس منفذا ولا فاعلا)**

3-ب-2 الذيل: يُعرِّف المتوكل الذيل بأنه "المُكوِّن الذي يُوضِّح معلومة داخل الحمل، أو يعدِّلها أو يصحِّحها"[48] وبعبارة أخرى "هو المُكوِّن الذي يوضِّح أو يعدِّل أو يصحح معلومة واردة في الحمل"[49] ويوضّح التعريفان أنّ الوظيفة التّداولية (الذيل) تنقسم إلى ثلاثة أنواع **ذيل توضيح**، و**ذيل تعديل**، و**ذيل تصحيح**، وأمثلتها الجمل الآتية:

- أخوه مسافر، **زيد**. (ذيل توضيح)
- ساءني زيد، **سلوكه**. (ذيل تعديل)
- قابلت اليوم زيدا، **بل خالدا**. (ذيل تصحيح)

وقد ذهب أحمد المتوكل بخلاف النحاة القدماء الذين يعدّون المكونات الأخيرة في هذه الجمل، على التوالي، **مبتدأ مؤخرا**، و**بدلا**، و**مضربا به (معطوف)** إلى أنّه يعتبر "هذه البنيات على اختلاف خصائصها البنوية، حاملة

وظيفة تداولية واحدة، هي **وظيفة الذيل**، ويرجع هذا الاختلاف البنوي إلى اختلاف الأدوار التي يقوم بها المُكوِّن الذيل على مستوى البنية الإخبارية للجملة"[50] والتي يأتي فيها المُكوِّن الحامل الوظيفة التّداولية الذيل، مختلفة أدواره وفقا لخطابات تداولية مختلفة، بين التوضيح أو التعديل أو التصحيح للمعلومة المراد نقلها للسامع.

3-ب-3 المنادى: عرِّف أحمد المتوكل الوظيفة التداولية المنادى بأنّها "المُكوِّن الدال على الكائن المنادى في مقام معيّن"[51] ويُمثِّل أحمد المتوكل للوظيفة التّداولية (المنادى) بالأمثلة الآتية: "**زيد**، ناولني الملح - **يا خالد** اقترب - **يا طالع الجبل**، انزل - **أيها الأطفال**، حان وقت النوم - **وا زيداه** - **وا خالدا** ابتعد - **يا لزيد**، لخالد - **يا لعمرو**، لما أصابنا."[52]

ويُلَاحظ على الجمل التي مثّل بها المتوكل للوظيفة الدّلالية (المنادى) أنّ الجملة الأولى منها، لا تشتمل على حرف النداء، وأما باقيها فإنّها قد تضمّنت أدوات النداء (يا، وأيها، ووا) مع أنّ ما عُرِفَ عن استعمالات العرب القدماء لأحرف النداء، أنّها قد بلغت سبعة حروف على الأقل وهي (أَ، أَيْ، يا، آ أَيا هَيا، وَا). ويرجع تقليص عدد هذه الحروف إلى الاقتراح الذي قدمه أحمد المتوكل، والذي مفاده أنْ "تُقلَّص قائمة الأدوات الواردة في كتب النَّحو إلى عدد أقل؛ إذ إنّه من الواضح أنَّ بعض هذه الأدوات، ليست إلّا بدائل لهجية كما هو الشّأن مثلا بالنسبة لـــ (هيا) في مقابل (أيا) كما أنّه لم يَعُد مُستَعمل في اللغة العربية المعاصرة إلا بعض من الأدوات التي أحصاها النّحاة العرب القدماء وأهمُّ الأدوات التي تُستَعمل الآن في البنيات الندائية (أيها) و(يا) و(أ)"[53] واقتصر بذلك المتوكل على وصف الوظيفة التداولية المنادى، بناء على أربع أدوات هي أداة النداء الصفر، والحروف الثلاثة (أيها، ويا

والهمزة) بناء على محدودية استعمالها في اللغة العربية المعاصرة، مقارنة بما كان مُستعمَلا عند العرب قديما.

4- قيود إسناد الحركات الإعرابية في نحو اللغة العربية الوظيفي: ينطلق النَّحو الوظيفي من مبدأ تحديد الوظيفة للبنية؛ ويعني ذلك أنّ الوظيفة الدّلالية أو التّركيبية أو التّداولية هي المسؤولة عن تحديد الحركات الإعرابية للمكونات داخل الجملة، وقد ميّز أحمد المتوكل في نحو اللغة العربية الوظيفي بين ثلاثة أنواع من الحالات الإعرابية التي يمكن أنْ تَلحَق المُكوِّنات، منها "حالتان إعرابيتان (وظيفيتان) وحالة إعرابية (بنوية) **الحالتان الإعرابيتان الوظيفيتان** هما حالتا **(الرفع والنصب)** أما **الحالة الإعرابية البنوية** فهي الحالة الإعرابية **(الجر)**"[54] وما يُميِّز الحالة الإعرابية الوظيفية عن الحالة الإعرابية البنوية هو أنّ الأولى (الرفع والنصب) ترتبط بالمكون عن طريق الوظيفة الدّلالية أو التّركيبية أو التّداولية التي يشغلها داخل الجملة، في حين أنّ الثانية (الجرّ) ترتبط بالمُكوِّن إذا كان مسبوقا بحرف جرٍّ أو كان مضافا، بغضّ النّظر عن وظيفته الدّلالية أو التّركيبية أو التّداولية؛ بمعنى أنّ الحركة الإعرابية البنوية تجعل المُكوِّن يأخذ حركة الجرّ التي تحجب حركته الإعرابية الوظيفية.

وتُسنَد الحالات الإعرابية الوظيفية إلى المُكوِّنات داخل الجملة، تِبَعًا للوظيفة التي يمكن أنْ يشغلها المُكوِّن؛ حيث تتضافر الوظائف التّركيبية والوظائف الدّلالية، والوظائف التّداولية في تحديد الحركات الإعرابية للمكوِّنات، ويتمّ إسنادها وفق القواعد الثلاث الآتية[55]:

- لا تتغيّر الحالات الإعرابية اللازمة بتغيّر أسيقتها الوظيفية، ولا بتغيّر أسيقتها البنويّة، فهي تلزم حالتها الإعرابية، كما هو ممثّل لها داخل المعجم ذاته.

- تأخذ المُكوِّنات **المنتمية إلى الحمل؛** أي المكونات التي تشكِّل حدودا للمحمول، إمّا باعتبارها موضوعات أو باعتبارها لواحقا، الحالة الإعرابية

التي تقتضيها وظيفتها الدّلالية، إنْ لم تكن لها وظيفة تركيبية (إن لم تكن فاعلا أو مفعولا) وتأخذ الحالة الإعرابية التي تخولها إياها وظيفتها التّركيبية (الفاعل والمفعول) إنْ كانت مسندة إليها وظيفة تركيبية، بالإضافة إلى وظيفتها الدّلالية.

– تأخذ المُكوِّنات **غير المنتمية إلى الحمل** ذاته حالاتها الإعرابية بمقتضى وظيفتها التّداولية ذاتها؛ إذ إنّ هذه المكونات بحكم خارجيتها بالنسبة للحمل، لا تحمل وظيفة دلالية ولا وظيفة تركيبية فالمكون المبتدأ مثلا يأخذ الحالة الإعرابية (الرّفع) بمقتضى وظيفته التّداولية نفسها وظيفة (المبتدأ).

وما يمكن استخلاصه مما قدّمه المتوكل في تطبيقه أحدث نظريات البحث اللساني على اللغة العربية أنّه هدف من خلال مشروعه إلى إعادة وصف قواعد اللغة العربية، بما يحقق الوصف الكافي لمستوياتها الثلاثة الدلالية والتركيبية والتداولية، ويعكس هذا الوصف حقيقة الظاهرة اللغوية؛ من حيث هي مجموعة من الوحدات اللغوية لها أدوار دلالية، تحكم إسنادها إلى بعضها البعض في المستوى التركيبي قواعد تركيبية وتحكم مضمونها وشكلها الوظيفة الأساسية للغة وهي الوظيفة التداولية. ويقوم نموذج النظرية النحوية الوظيفية على إلغاء فرضية العامل، بناء على أنّ الوظائف هي التي تحددّ البنية أو الحركات الإعرابية؛ حيث تتضافر الوظائف التّداولية، والوظائف التّركيبية والوظائف الدّلالية في تحديد الحركات الإعرابية للمكونات في الجملة.

خاتمة: تضمّن هذا المقال ثلاث نظريات لسانية تصف الظواهر النحوية في اللغة العربية، بناء على فرضيات متباينة من حيث الوصف والتفسير تُمكِّن تعليمية اللغات من بناء محتويتها التعليمية وفق ما تقدّمه النظرية من معطيات حول طبيعة هذه الظاهرة اللغوية. وبما أنّ اللغة العربية قائمة على الإعراب (حركة أواخر الكلمات) وكذا أنّه من شروط كفاءة أيّ نظرية، هو

تحقيقها الشمولية والموضوعية في وصف الظاهرة فإنّ ما يمكن استخلاصه عن طبيعة هذه النظريات منها ما يتعلق بتفسير حركة الإعراب بالنسبة للغة العربية ومنها ما يتعلق بكفاءتها في وصف الظواهر اللغوية في العربية:

تفسير حركة الإعراب:

– تقوم النظرية الخليلية في وصف الظواهر النحوية بناء على فرضية العامل؛ حيث ترى أنّ المستوى التركيبي لا يكون إلا وفق عامل معنوي أو لفظي يتحكم في البناء مبنا ومعنى، وتأخذ بذلك مكونات الجملة حركتها الإعرابية عن العامل في هذا البناء.

– يقوم نموذج النظرية التوليدية التحويلية على إلغاء فرضية العامل، بناء على أنّ حركة الإعراب يُنطلق في تفسريها من مبدأ توارث الإعراب؛ أي أنّ مكونات الجملة ترث حركاتها الإعرابية عن رتبتها الأصلية (ف فا مف) مهما كان موقعها (فا ف مف–مف فعل فا–ف مف فا) على أساس فرضية الإشتقاق أو التحويل.

– يقوم نموذج النّحو الوظيفي على إلغاء فرضيتي العامل والتحويل؛ بناء على فرضية تحديد الوظيفة للبنية؛ أي أنّ الوظيفة التواصلية هي المسؤولة عن تحديد البنى اللغوية من حيث مضمونها وشكلها، وتأخذ بذلك مكونات الجملة حركتها الإعرابية بموجب الوظيفة التي تشغلها.

كفاءة النماذج النظرية:

– تكتفي النظرية الخليلية بوصف الظواهر النحوية في اللغة العربية وصفا بنويا، دون وصفها الجانب الدلالي والتداولي، ما يجعل متعلم اللغة العربية يدرك من نحوها سوى العلاقة البنوية التي تجمع بين الوحدات اللغوية.

– يبتعد نموذج النظرية التحويلية الذي قدمه الفهري عن الموضوعية في وصف الظواهر النحوية في اللغة العربية، في إخضاعه هذه الظاهرة لفرضيات النّظرية؛ حيث إجازة الابتداء بالنّكرة، مع أنّ اللغة العربية لا تسمح بذلك إلا بشروط (مسوغات الابتداء بالنكرة).

– يحقِّق نموذج النحو الوظيفي الموضوعية والشمولية في وصف اللغة العربية في مستوياتها الثلاثة: المستوى الدلالي والمستوى التركيبي والمستوى التداولي، ما يُسهِم في قدرة استيعاب متعلم اللغة العربيةِ العربيةَ قواعدًا وتداولًا.

الهوامش:

1– عبد الرحمن الحاج صالح "أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية" مجلة اللسانيات، الجزائر: 1973، معهد العلوم اللسانية والصوتية، ص35.

2– عبد الرحمن الحاج صالح، النَّظرية الخليلية الحديثة: مفاهيمها الأساسية، دط. الجزائر: 2007، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، ص36–37.

3– المرجع نفسه، ص36–37.

4– المرجع نفسه، ص37.

5– ينظر: المرجع نفسه، ص37.

6– أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون ط3. القاهرة: 1988، مكتبة الخانجي، ج1، ص57.

7– عبد الرحمن الحاج صالح، النَّظرية الخليلية الحديثة: مفاهيمها الأساسية، ص38.

8– المرجع نفسه، ص39.

9– رضي الدين الأستراباذي، شرح الرَّضي على الكافية، تح: يوسف حسن عمر، دط. طرابلس: 1987، جامعة قاريونس ج3، ص63.

10– ينظر: عباس حسن، النّحو الوافي، ط15. القاهرة: دت، دار المعارف، ج2، ص30–34.

11– عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ط4. الرباط: 2000، دار توبقال للنشر، ج1، ص142.

12- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص105.
13- المرجع نفسه، ج1، ص134.
14- المرجع نفسه، ج1، ص135.
15- عبد السلام شقروش، النظرية التوليدية التحويلية وأثرها في البحث اللساني العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، إشراف: رابح بوحوش، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة باجي مختار –عنابة، الجزائر: 2013 ص102-103.
16- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص114.
17- المرجع نفسه، ج1، ص114-115.
18- المرجع نفسه، ج1، ص115.
19- المرجع نفسه، ج1، ص116.
20- المرجع نفسه، ج1، ص117.
21- المرجع نفسه، ج1، ص117.
22- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص119.
23- المرجع نفسه، ج1، ص118.
24- المرجع نفسه، ج1، ص118.
25- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص121.
26- المرجع نفسه، ج1، ص121.
27- المرجع نفسه، ج1، ص123-124.
28- المرجع نفسه، ج1، ص124.
29- المرجع نفسه، ج1، ص28.
30- المرجع نفسه، ج1، ص130-131.
31- المرجع نفسه، ج1، ص131.
32- حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ط1. بيروت: 2009، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص346.
33- أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكوّنية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية ط1. الدار البيضاء: 1987، دار الثقافة، ص98.
34- المرجع نفسه، ص24.
35- المرجع نفسه، ص93-94.

36- المرجع نفسه، ص42.

37- أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ط1. الدار البيضاء: 1986، دار الثقافة، ص38.

38- أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكوّنية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية ص24.

39- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط1. الدار البيضاء: 1985، دار الثقافة ص69.

40- المرجع نفسه، ص75.

41- المرجع نفسه، ص28.

42- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ط1. الرباط: 2001، دار الأمان، ص118.

43- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص30.

44- المرجع نفسه، ص31.

45- المرجع نفسه، ص31.

46- المرجع نفسه، ص115.

47- المرجع نفسه، ص132-133.

48- المرجع نفسه، ص147.

49- حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص352.

50- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص146-147.

51- المرجع نفسه، ص161.

52- المرجع نفسه، ص148.

53- المرجع نفسه، ص166.

54- أحمد المتوكل، من البنية الحملية إلى البنية المكوّنية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية ص33.

55- ينظر: المرجع نفسه، ص34.

واقع استخدام أساتذة التعليم العالي للحاسوب التعليمي – قسم اللغة والأدب العربي بجامعة أدرار أنموذجا–

د.أمال بوخريص
جامعة أدرار

يعيش الإنسان العربي اليوم في مجال التّعليم تحديّات كبيرة فرضتها عليه جملة من الأسباب والظروف العلميّة المحيطة به، ولاسيما في القرن الحادي والعشرين حيث أصبحنا نسمع اليوم عن مصطلحات جديدة؛ أفرزتها التّغيرات والتّجديدات المستمرّة في سياسة التّعليم، إضافة إلى مخلّفات العولمة التي حملت إلينا فكرة جعل العالم الكبير قرية صغيرة؛ ليسهل علينا مراقبتها وتطويرها وتسييرها وحمايتها وتبادل الخبرات المختلفة بين أفرادها في كلّ مجالات الحياة، ولا يهمّ في ذلك لونك أو لغتك أو دينك أو ثقافتك أو مستواك التعليمي.

ومن المصطلحات العلميّة التّعليميّة التي أثارت انتباه الدّارسين والباحثين اليوم في حقل تعليميّة اللّغات ما ينعت بـــ"**تكنولوجيا التّعليم**"، حيث يعتقد كثير من المهتمين بهذا الموضوع ومجاله أنّه بات من الضّروري على الأمّة العربيّة أن تتبنى وتطبّق مشروع إدخال التكنولوجيا في التّعليم بأطواره المختلفة؛ ابتدائي ومتوسط وثانوي وجامعي، فما القصد إذاً من هذا المصطلح؟.

جاءت تعاريف مختلفة حاول أصحابها تقريبنا من مفهوم هذا الدّال، وإعطائنا على الأقل رؤية واضحة عن أبعاده ومعانيه، حيث تجمع في أغلبها على أنّ القصد من "كلمة تكنولوجيا أو علم التقنية استخدام الطرق العلميّة في أيّ مجال من مجالات النشاط البشري[1]"، ولكن لغرض ما، وإلاّ تحوّل هذا الفعل إلى حدث نقطة

انطلاقه هي بدايته، فتتشكل بذلك حلقة مفرغة من دون هدف، فما الهدف يا ترى من وراء استخدام التكنولوجيا في التعليم؟.

لقد قامت فكرة إقحام الوسائل التكنولوجية في تعليم اللّغات بهدف تسهيل العملية التعليمية في حد ذاتها، وتطبيق ذلك لم يقتصر على المستويات اللغوية فحسب، بل امتد أوّلاً ليشمل العلوم الدّقيقة كالرياضيات والفيزياء، ليصل بعدها إلى اللّغة؛ بحكم أنّ الاعتقاد الذي كان سائداً فترة من الزمن حول زئبقية وميوع الدّراسات اللّغوية وبُعدها عن العلميّة عطّل من التحاقها بالرّكب.

وقد قدّم أنصار هذا الاتجاه حُجَجًا وبراهين لإثبات حسن زَعمهم، ولاسيما حين اعتقدوا أنّ التّعليم التكنولوجي لا يصبح فيه المعلّم حبيس قاعات الدروس والمحاضرات، ولا ملتزما بتوقيت ساعي معيّن، بل إنّ التّعليم فيه أصبح مفتوحًا يكفل للمتعلّم أداء واجبات كثيرة في آن واحد، ومن هنا فإنّ دور المعلم وفقاً للطريقة الكلاسيكية مضاعف مقارنة بالتّعليم التكنولوجي، ولا يعني هذا أنّ دوره في التّعليم الكلاسيكي أكثر أهمية"[2].

إضافة إلى هذا فإنّ تكنولوجيا التّعليم أسهمت كثيرًا في تجاوز عقبة ومشكلة الفروق الفردية في التّعلّم إذ يسير كلّ حسب قدرته وطاقته ومستواه، فهو لا يقارن نفسه مع أيّ أحد، ولهذا تجده لا يخجل من تعثراته في الاستجابات، فهو يكرّر المحاولة إلى أن يصل.

وللإشارة فإنّ تكنولوجيا التّعليم لا تستخدم في التّعليم المفرد فقط، بل تستخدم أيضًا في التّعليم الجماعي داخل قاعات الدرس وفي المحاضرات والملتقيات لتقريب المعلومة؛ ولأنّها تجمع بين خاصيتين مهمتين في العمليّة التّعليميّة المتمثّلة في الصّوت والصّورة اللّتان تعتمدان على حاستي السّمع والبصر؛ لأنّ إدراك المرء يعتمدهما معاً في الفهم، وإن كان لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ السّمع يسبق البصر في ترتيبه[3]، مصداقاً لقوله تعالى :﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[4]، وكذلك قوله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ

لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[5]، وقوله سبحانه وتعالى:﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [6].

إنّ هذا الرأي يتبنّاه أنصار تكنولوجيا التعليم، بينما نجد في الضّفة الأخرى حشدًا كبيراً من الباحثين يرفضون تماماً أو نوعا ما فكرة تغيير الطّرائق القديمة الكلاسيكية، واستبدالها بأخرى تكنولوجية، ولهم في ذلك تبريرات يقدّمونها، وحجج يستندون عليها نذكر منها:

– رفضهم لفكرة الجنوح نحو الحوار مع الحاسوب، الذي لا تعتمد إلاّ على طرح الأسئلة وتلقي الأجوبة، ممّا يجعل التّعامل رمزيّا، فالتّعامل الحاسوبي اللّغوي مثلاً يعتمد في أساسه على أبجدية من الرموز المتفق عليها[7]، وتستخدم هذه الرموز الأوليّة لتكون إشارات مركّبة خلال سلسلة متدرجة من عمليات التركيب والتي تتسم عادة بالخطيّة"[8].

– الإفراط في استعمال التكنولوجيا قد تنجم عنه أضرار صحيّة وخيمة(أمراض الكلى، والسرطان وهشاشة العظام وغيرها...)، وبعضها الآخر نفسي وحتى اجتماعي، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الانطواء النّفسي والانعزال الاجتماعي، وكذا الانحراف بأشكاله (لفظي، سلوكي، أخلاقي).

– الإدمان على التكنولوجيا نتيجة سلبيّة أخرى تَحدُث في حال لم يستطع مستعملها السّيطرة على نفسه اتجاهها، فيكون استعماله لها بشكل يومي مستمر دون توقف، حتّى وإن حاول تناول الغذاء، فإنّه يفعله بمعيّتها وهو يشتغل عليها.

بين هذين الموقفين المتضاربين اخترنا نموذجاً من نماذج تكنولوجيا التّعليم أَلاَ وهو"**الحاسوب التعليمي**" وحاولنا رصد واقع استخدامه داخل قسم اللغة والأدب العربي بجامعة أدرار من خلا ل استبيان وزعناه على واحد وأربعين أستاذا بهذا القسم، لم يستجب لنا منهم إلاّ تسعة وثلاثين أستاذا.

وقد حاولنا تلخيص وعرض النتائج المتحصل عليها في هذا الجدول، الذي سنحلّله بعد ذلك.

السؤال	الجواب	عدد الإجابات / النسبة المؤويّة
* الجنس: - ذكر. - أنثى.	 + +	 29 ٪74.35 10 ٪25.64
* السن: - 30 سنة فما فوق. - 40 سنة فما فوق. - 50 سنة فما فوق.	 + + +	 22 ٪56.41 12 ٪30.76 5 ٪12.82
* الشهادات العلمية المتحصل عليها: - ماجستير. - دكتوراه. - شهادات أخرى.	 + + - تكوين خاص	 25 ٪64.10

	في الإعلام الآلي (secrétariat bureautique) - دراسات عليا قانون أعمال	14 ٪35.89 01 ٪2.56 01 ٪2.56
* تخصصك: - لغوي. - أدبي.	+ +	22 ٪56.41 17 ٪43.58
* المقاييس التي تدرسها بالجامعة: - في تخصصك. - خارج تخصصك.	+ +	36 ٪92.30 08

		٪20.51
* خبرتك المهنية في التدريس بالجامعة:	من سنة إلى 28 سنة: - خبرة سنة (أقل نسبة). -خبرة 10 سنوات(أعلى نسبة).	02 ٪5.12 09 ٪2307
* هل اشتغلت بقطاعات أخرى قبل توظيفك بالجامعة؟ : - نعم. - لا. - تابع لوزارة التربية والتعليم. - غير تابع لوزارة التربية والتعليم.	+ + + +	33 ٪84.61 05 ٪12.82 28 ٪71.79 04

		٪10.25
*هل تحسن استخدام الحاسوب ؟ - لا. - نوعا ما. - نعم	 + + +	 00 ٪00 20 ٪51.28 19 ٪48.71
*هل طبيعة أسباب عدم استعمالك للحاسوب في بحثك العلمي أكثرها ؟: - نفسية. - اجتماعية. -مادية. -علمية. -لغوية. - عضوية. -ثقافية. - دينية.	 + + + + + + + +	 02 ٪5.12 02 ٪5.12 01

		٪2.56 09 ٪23.07 01 ٪2.56 01 ٪2.56 02 ٪5.12 00 ٪00
كم من مرة تستخدم الحاسوب في الأسبوع؟: -مرة واحدة. - مرتين. - 3 مرات. - 4 مرات. - 5 مرات. - 6 مرات.	 + + + + + +	 02 ٪5.12 03

– كل يوم .	+	ــــــــــــ
– لا أستعمله تماما.	+	٪7.69
		05ــــــــــــــــــ
		ــــــــــــــــــــ
		٪12.82ــــــــ
		01ــــــــــــــــــ
		ــــــــــــــــــــ
		ــــــــــــ
		٪2.56
		01ــــــــــــــــــ
		ــــــــــــــــــــ
		ــــــــــــ
		٪2.56
		4ــــــــــــــــــ
		ــــــــــــــــــــ
		ــــــــــــــــ
		٪10.25
		23ــــــــــــــــــ
		ــــــــــــ
		٪58.97ــــــــ
		00ــــــــــــــــــ
		ــــــــــــ
		٪00ــــــــ
* كم من ساعة تستخدم		

الحاسوب في اليوم؟ – أقل من ساعة . – حوالي ساعة. –حوالي ساعتين. –حوالي 3ساعات. –حوالي 4ساعات. * أو ضع عدد ساعات أخرى لم ترد في الاحتمالات:	+ + + + + – حوالي 6 ساعات. –حوالي 7 ساعات. – اليوم كله.	04 10.25٪ 10 25.64٪ 07 17.94٪ 11 28.20٪ 02 5.12٪ 02 5.12٪ 03 7.69٪ 01 2.56٪

*أنت تستعمل الحاسوب لغرض:		
– طباعة النصوص ومعالجتها.	+	22
– تخزين المعلومات واسترجاعها.	+	٪56.41
– تستخدمها في البحث العلمي.	+	21 ٪53.84
		33 ٪84.61
* ماذا تفضل؟:		
– الحواسيب الثابتة.	+	18
– الحواسيب المحمولة.	+	٪ 46.15
– اللوحات الإلكترونية	+	30 ٪ 76.92
		00 ٪00
هل تفضل أن يكون حاسوبك موصولا بالانترنيت ؟:		
– نعم.	+	36
– لا.	+	

		٪ 92.30 03 ٪7.69
* ما هو انطباعك حول استخدام هذه التكنولوجيا في البحث والتعليم ؟: - ضرورية. - غير ضرورية	+ +	38 ٪ 97.43 01 ٪ 2.56

نلاحظ من خلال هذا الجدول تفاوتاً كبيرًا في النّسب المؤويّة في كلّ جواب يقدّم على كلّ سؤال يطرح، ونحن نعتقد من خلال هذه النّتائج المقدّمة أنّ الطاقم التعليمي العامل بالقسم من أساتذة وأستاذات هم شبان في مقتبل العمر، وما زال أمامهم مشوار تعليمي كبير، وعطاء علمي حافل بانتظارهم، وعلى الرّغم من وجود دكاترة بين صفوفهم (35.89٪)، إلاّ أنّ البنية الغالبة من الأساتذة متحصلون على ماجستير في تخصّصات مختلفة بنسبة 64.10٪، وقد لاحظنا أنّ التّخصّص اللّغوي يغلب على التّخصّص الأدبي بفارق 12.83٪ .

ولأنّ خبرة أساتذة قسم اللّغة والأدب العربي متفاوتة من شخص إلى آخر؛ احتاج الأساتذة الباحثون إلى وسائل تعليمية تدعّمهم وتساعدهم في البحث، وتذلّل

صعوبات التّعليم خصوصاً أمام اشكالية الفروق الفردية التي تطرح بحدّة داخل قاعات الدروس والمحاضرات.

ولعلّ تركيزنا على الخبرة يكمن في أنّها تمنح الأستاذ طاقةً متجدّدة في البحث كما تكسبه مهارات وخبرات في طريقة تقديم المادة وتبسيط عرضها، بالانتقال في عرضها من الأسهل إلى السّهل إلى المتوسّط إلى الصّعب إلى الأصعب، محترمًا في ذلك تسلسلاً منطقيّا يربط وحداتها مع بعضها البعض، وقد وجدنا هذا الشّرط متوّفرا بشكل كبير، فعلى الرّغم من اختلاف سنوات الخبرة عند كلّ أستاذ، إلاّ أنّ أكثر من نصفهم له خبرة مهنية قبل التحاقه بالتدريس بالجامعة، حيث سجّلنا ما نسبته 71.79٪ اشتغلوا في قطاع التربية والتّعليم بمختلف أطواره (ابتدائي متوسط، ثانوي)، بل منهم من تدرّج مع هذه الأطوار جميعها، ولعلّ ذلك ما أكسبه خبرةً علميّة تعليميّة ممّا زاد من حماسه في تحسين مستواه الأدائي والمعرفي واللّغوي ليرقى مع طلبته إلى أرقى مستويات تفكيرهم ويعالج معهم كثيرًا من القضايا اللّغويّة التي شغلت اهتمامهم وأثارت فضولهم.

ومن هنا فإنّ السؤال المهم الذي نطرحه على أنفسنا في هذا المقام يَكْمُنُ في موقف أساتذة قسم اللّغة والأدب العربي بجامعة أدرار من هذه التّقنيّة أمام خبرتهم التي اكتسبوها قبل وبعد التحاقهم بالجامعة، ولاسيما أنّ هذه الوسيلة باتت اليوم من الضّروريات التي لابد أن يتمكّن الأستاذ الباحث منها وفيها مهما كان تخصّصه، واللغة العربية اليوم أصبحت كغيرها من العلوم معنيّة بذلك، حيث أصبح أنصارها يرسمون لها طريقاً معبّدة نحو هذا الاتجاه الذي من شأنه أن يحقّق لها العالميّة ومطالبتنا بتفعيل مثل هذه الوسائل السمعية البصرية له مبرراته العلمية والتعليمية والميدانية والتجريبية، ولاسيما إن عرفنا أنّ التّعليم بمساعدة الحاسوب (enseignement assisté par ordinateur) هو"نظام من التّعليم يستفاد منه في عرض المعلومات وتخزينها، وتسجيل الاستجابات وتوفير التّغذية الراجعة"[9] التي يقصد بها تلك الطريقة لمراقبة مدى تفاعل المستقبل مع الرسالة التي بعثها إليه

الباث وفقا للبرنامج المسطّر ويتمّ قياس هذا التفاعل عن طريق الأجوبة التي يبعث بها المستقبل، وفي هذه الحالة قد يتحوّل المستقبل إلى باث مستقبل والشيء نفسه بالنسبة للباث[10]، كما أنه يمكّن المتعلم من اكتشاف حلول محتملة لمشكلة ما بنفسه[11]، وهو بذلك يخدم المتعلمين على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم[12]، ومن هذا المنطلق فإن الحاسوب يحقق التفاعل في التعليم[13].

هذا عن المتعلم أما المعلم فمن شأنه أن يحقق نتائج إيجابية في تقديم مادته العلمية التعليمية اللغوية باستخدام الحاسوب في تحضير المحاضرات والدروس، أو تقويم وتقييم استجابات الطلبة ومن ثم ترتيبها وإحصاء عددها وفرز الصحيح من الخاطئ منها ،ومن ثم تقييم فهم الطلبة لمادته اللغوية المقدمة، والبحث عن الصعوبات التي أعاقت فهم طلبته له.

كل هذا يحملنا للاعتقاد أنّ استخدام الحاسوب في التّعليم بشكل عام وعند الأستاذ الجامعي بشكل خاص يتجاذبه تيارين متعارضين متضاربين، بعضهم يقف منه موقف المؤييد، بينما يقف منه بعضهم الآخر موقف المعارض، وذلك ما عكسته لنا نتائج الاستبيان المقدم للأساتذة، والتي حاولنا تلخيصها في النقاط التالية:

- لا يوجد من بين أساتذة قسمنا من لا يعرف استخدام الحاسوب، غير أن النسبة العالية منهم لا تحسن ذلك، وقد أرجعوا ذلك إلى الأسباب التالية :

أ – النفور من هذه التكنولوجيا (2.56٪).

ب – لأنهم يفضلون استعمال وسائل أخرى في التعليم والبحث العلمي كالكتاب والسبورة؛ أي الوسائل الكلاسيكية (17.94٪).

ج – سلبيات الحاسوب حسب اعتقادهم أكثر من إيجابياته (5.12٪).

ح – إنّهم يعتقدون أنّ هذه التكنولوجيا غير ضرورية فهي موضة فقط، فرضتها علينا الشركات الأجنبية المنتجة للعتاد والبرمجيات بغرض التّسويق فقط بنسبة(2.56٪) .

خ- ولعلّ أعلى نسبة لهذا الاتجاه لتبرير موقفهم هو كونهم لم يتلقوا تكوينا علميًّا في طريقة استخدامه واستعماله(33.33٪).

إضافة إلى أسباب أخرى متفرّقة كانشغال بعض الأساتذة بالإعداد للدكتوراه ممّا ضيّق عليهم ساعات البحث وحرمهم من تحسين مستوى استخدامهم لهذه التقنية، زيادةً على هذا بعض الأسباب الماديّة خصوصًا مع بداية ظهور الثورة التكنولوجية في هذه البلاد العربية، حيث وجد بعضهم صعوبةً كبيرةً في اقتناء الحاسوب فصرفوا نظرهم عنه حينها، وعندما تراجعوا عن فكرتهم هذه وجدوا أنفسهم متخلّفين عن الرّكب.

كما أن بعضهم ما زال مقتنعاً بفكرة أنّ المراجع الورقيّة تغنيهم إلى حدّ كبير عن المصادر والمراجع الالكترونية، خصوصًا المصوّرة منها ضوئيّا في شكل ب د ف **(pdf)**.

وقد تمكنا من تصنيف طبيعة أسباب هذا الضّعف، حيث تعدّدت وتنوعت أصنافها؛ فمنها النّفسية(كالتخوّف من هذه التّقنيّة، وعدم الثّقة في قدرات الشّخص بسبب عدم تمكّنه بعد من التّحكّم فيها...)، ومنها الاجتماعيّة(كنظرة المجتمع السلبيّة لهذه التقنية، الانشغالات الاجتماعية الكثيرة ما خلق ضيقا في الوقت...)، وكذلك المادية(كتكلفة صيانة الحواسيب وشرائها وتشغيلها...)، ومنها العلميّة التي حقّقت أعلى نسبة 23.07٪ (والتي تتمثل في عدم تمكّن هؤلاء من هذه التقنية تمكنا تاما) إضافة إلى أسباب لغوية وعضوية (بالنسبة للأساتذة الذين يعانون من عاهات خاصة) وثقافية، إلاّ الدّينية التي مثلت نسبة استجابتهم فيها 00٪، ممّا يعبّر أنّ أساتذة القسم لا يملكون أي أسباب دينية تمنعهم من استخدام أو استعمال هذه الوسائل في التعليم أو البحث العلمي.

وقد علّق بعض الرّافضين لاستعمال الحاسوب في التعليم والبحث بشكل عام ردا عن سؤالنا القائل: "فسّر سبب عدم استخدامك للحاسوب في التعليم أو في بحثك العلمي؟" بما يلي:

- الحاسوب يقتل فيك عادة ألفة الكتاب، وجمالية القراءة.
- يتسبب في خمول الذاكرة.
- يتسبب في حدوث أخطار صحية كالسرطان، واعوجاج العمود الفقري وأمراض الكلى بسبب الجلوس الدائم والانحناء المستمر، ضعف الرؤية....).
- هذه الوسيلة أصبحت تساهم في رداءة المستوى عكس ما يعتقده بعضهم إضافة إلى الاعتماد على أعمال واجتهادات الغير مما يكبح الاجتهاد فتجعل من الباحث والأستاذ الجامعي ناقلا للمعرفة بدل أن يكون موجها لها.

هذا الموقف السلبي إزاء هذه التقنية ترجمته أيضاً معدّل وعدد ساعات استخدام الأستاذ بهذا القسم للحاسوب في الأسبوع، إذ تستخدمه النسبة الغالبة منهم كلّ يوم ولكن بمعدّل منخفض قدره ما بين ساعة (25.64٪) إلى ثلاث ساعات (28.20٪) في الأسبوع، وهذه نسبة متدنية مقارنة بالوظائف التي يمكننا أن نستعمل فيها الحاسوب، وقد كان من شأنها أن تكون مقبولة لو كانت خلال اليوم بدل الأسبوع.

وإن يكن فإنّ هذه المعطيات لا تنفي اقبال بعضهم الآخر على استخدامه في حياته العملية العلميّة، فمن خلال النّتائج المتحصّل عليها توصلنا إلى أنّ أعلى نسبة من أساتذة القسم تستخدم الحاسوب لأهداف محددة وغالبة هي:

- البحث العلمي(84.61٪).
- طباعة النصوص ومعالجتها (56.41٪).
- تخزين المعلومات لاسترجاعها (53.84٪).

إضافة إلى أهداف أخرى كالإبداع، والتسلية، والتواصل الاجتماعي، والتثقيف) وتحميل الكتب العلمية والمجلات النادرة، ولم نجد حضورا لفكرة استخدامه في التعليم باعتباره وسيلة تعليمية مساعدة إلاّ عند أستاذين اثنين حيث أقرّا بضرورة ذلك، وأكدّا تأكيدًا قطعيّا على ضرورة تحديث الأستاذ الجامعي لطرقه في البحث والتعليم والتقديم والتقييم.

كما أسفرت نتائج الاستبيان أنّ الفئة الغالبة من الأساتذة يفضلون ويميلون إلى استعمال الحواسيب المحمولة على الثابتة، لما لها من مميّزات تميّزها نذكر منها:

- سهولة حملها، وإمكانية أخذها لأيّ مكان خصوصًا في العطل والرّحلات العلميّة.
- امكانية استعمالها في التّدريس كوسيلة تعليميّة لما لها من مميّزات خصوصًا أنّها تصنّف ضمن الوسائل السّمعيّة البصريّة(audio-visuel).
- قدرته على تخزين كميّة كبيرة من المعلومات واسترجاعها وتصنيفها.
- هي أكثر تطوّرًا من الثابتة، لا تتطلب منك مساحة كبيرة، ولا خيوطاً كثيرة للوصل بالمآخذ الكهربائية.

ولكن رغم ذلك هناك من الأساتذة الكرام بهذا القسم من مازال يفضل استعمال الحواسيب الثابتة، وبعضهم الآخر يقترح المزاوجة بينهما واستعمالهما معا على حسب الحاجة والموقف، فمن الأفضل مثلا –حسب رأيهم– أن يكون مكتب الأستاذ مجهزا بحاسوب ثابت، بينما يترك المحمول للرّحلات أو للاستعمال داخل قاعات التّدريس والمحاضرات، وهذا رأي معقول ومنطقي إلى حدّ كبير.

وحُجّة أصحاب هذا الرأي أُسّست اعتمادا على المعطيات التالية:

- مكان الحاسوب ثابت غير متحرك، ويكون حسب اختيار صاحبه، وفقا لمعطيات معيّنة كتوفر الإنارة الطّبيعية التي من شأنها أن تسهّل له القراءة والكتابة وكذا القدرة على التّركيز والتنظيم بعيدا عن المؤثرات الخارجية كالضوضاء وغيرها، وهذا يعتبر من الأمور المهمة التي يجب أن يبنى عليها اختيار مكان الحاسوب وتحديده.
- الحاسوب الثابت هو الأفضل للكتابة والطباعة مقارنة بالمحمول.
- الاعتماد عليها بسبب الاعتياد، ولاسيما أنّها السّباقة بالنّظر إلى المحمولة.
- عدم حاجة الحواسيب الثابتة للشّحن في كلّ مرّة؛ بسبب وصلها المستمر بالمآخذ الكهربائية، جعل كثيرا من الباحثين والدارسين يفضّلونها على المحمولة.

- سهولة تبديل قطع غيارها والإطلاع على مكوّناتها الدّاخلية والخارجية عن قرب، ممّا يزيد من خبرة الأساتذة فيما يتعلّق بالأعطاب الخاصة بالعتاد.

في ظل هذا التنوّع والتعدّد في المواقف والآراء الخاصة بتفضيل الحواسيب الثابتة أم المحمولة، وجدنا عدم رغبة مطلقة(00٪) في إدخال أو استعمال اللوحات الالكترونية (les tablettes)، على الرّغم من أنّ هذه التّقنية الحديثة متطوّرة، ولها من المميّزات ما يحفّزنا على استعمالها في التعليم والبحث العلمي أيضا، حيث أصبحت في الدّول المتقدّمة – بما فيها بعض الدول العربية- المنافس الأول للحواسيب المحمولة، ونحن نعتقد أنّ هذا الرّفض مردّه عدم شيوع هذه الوسيلة بعد، ونحن نعتقد أنها تمر الآن بنفس المراحل التي مرّ بها الحاسوب قبل اعتماده في التعليم والبحث العلمي، ولاسيما أنّه لحد الآن مازال الناس يقفون منه موقف تأييد ومعارضة من الحاسوب في حدّ ذاته على الرّغم من كونه قديم النشأة، إذ تشير الأبحاث والدراسات أن الحواسيب تمّ اختراعها في شكل خمسة أجيال، ولعلّ من أشهر حواسيب الجيل الأول حاسوب اسمه (abc) تمّ اختراعه سنة 1939م، ثم حاسوب آخر اسمه (mark1) سنة 1944م، والذي اخترعه (Haward Aiken)[14]، ثم جهاز (Eniak)[15] عام 1946م، وهو أوّل جهاز يعمل بالطاقة الكهربائية وحدها[16]، وكل هذا يشير إلى أنّ ظهور الحواسيب يعود إلى النّصف الأوّل من القرن العشرين، وعلى الرّغم من ذلك مازالت قضيّة استعماله كوسيلة تعليميّة لم تلق القبول التّام.

وللإشارة فإنّ اعتماد الأساتذة هذه الوسيلة في التّعليم يفضل غالبيتهم- إن لم نقل كلّهم تقريبا- أن تكون موصولة بالانترنيت، وذلك ما عكسته نسبتهم بالجدول 92.30٪، وعلّلوا هذا الموقف بالحجج التالية:

- السّرعة والفاعلية في الاستفادة من جميع المعلومات والبحوث اللّغوية على اختلافها.
- الاتصال المستمر والمباشر بالعالم الخارجي.

- عدم الشعور بالعزلة العلمية واللّغوية، خصوصًا أنّ أدرار من المناطق الصحراويّة المترامية الأطراف، وبعدها الكبير عن العاصمة جعلها شبه معزولة؛ لولا بعض الجهود لبعض الجهات في إعادة ربطها بالعالم الخارجي.
- الخدمات المتميزة التي توفرها خدمات الانترنيت كخدمة البريد الالكتروني، وبروتكول نقل الملفات وغيرها.

بينما تعتقد الأقلية أن الانترنيت لا تحمل إلينا كثيرا من الفوائد بسبب افرازاتها السلبية التي مازالت الساحة العلمية والتعليمية تطرحها يوميا وتحاول الخروج منها نذكر أهمها:

- الفيروسات الحاسوبية التي تخرب يوميا آلاف الحواسيب والملفات بغرض إتلافها، وبالتالي تجديدها مما يضمن لشركات الإنتاج (عتاد وبرمجيات) سوقا مربحة نشطة.

وللإشارة فإنّ حتى برامج الحماية تحتاج إلى تحديث عن طريق ما يعرف بـــ: (la mise à jour)، الذي لا يتحقق إلاّ عن طريق وصل حاسوبك بالانترنيت في حالة ما برمجتها أوتواتيكيا (mise à jour automatique).

- القرصنة المعلوماتية، فبحكم التّطور التكنولوجي أصبح الإنسان اليوم يعيش تحت الرّقابة اليوميّة بطرق تقنية قد يجهلها، بل قد يتعرض حاسوبه للاختراق دون معرفة منه وهذا ما يجعل بعضهم يفضل عدم وصل حاسوبه بخط الانترنيت.

- ما تتمتع به الانترنيت من مميّزات كالصّوت والصّورة والمؤثرات المحيطة بهما من ألوان مختلفة وجذابة، قد تكون سببا في ضياع وقتك بتأثيرها عليك، فتحيد عن هدفك الذي سطّرته قبل بداية اشتغالك وبحثك، وكي لا تقع في هذا الفخ وهذه المصيدة لا بد أن لا تكون طيّعا أمام إغراءات الشّبكة وعروضها التي قد تحوّل أهدافك العلميّة اللّغوية إلى ملهاة، وهو حسب اعتقادي من أخطر الفخاخ التي قد يقع فيها المتصفح للشبكة، الغافل لقواعد التّعامل معها فبوجود

خدمات جليلة تقدمها الشبكة ولا نحسن نحن استغلالها نتحول إلى عرائس تحرّكنا هي كما تشاء، خصوصا بتوفّر خدمة الرّبط بين المواقع .

خلاصة القول: خرجنا بعد البحث المتواضع بقسم اللغة والأدب العربي بجامعة أدرار حول موضوع "**واقع استخدام أساتذة التعليم العالي للحاسوب التعليمي – قسم اللغة والأدب العربي بجامعة أدرار أنموذجا–**" إلى جملة من الاستنتاجات هي كالأتي:

– هناك اقبال وقبول عند هذه العيّنة لفكرة استعمال الحاسوب في التعليم باعتباره وسيلة حديثة فعالة، وفي البحث العلمي كونه أداة طيّعة متى أحسنا استخدامها.

– موقف الرّفض الذي وجدناه عند بعضهم إزاء بعض الأسئلة مقبول ومنطقي، وهو ما يجعلنا نؤكّد على ضرورة الاحتراز من التّقنية بشكل عام والحواسيب بشكل خاص، وأن نكيّف خدماتها على حسب حاجتنا وقدرتنا، فلا نصل بذلك إلى حدّ الإدمان فتنقلب الآية وتصبح هي التي تتحكّم فينا.

– ضرورة التفكير في دورات تكوينيّة جادة وقصيرة المدى؛ لتكوين الأساتذة في هذا المجال، ليتخلص بذلك من العُقد النّفسية التي باتت تسيطر عليه نتيجة خوفه منها وعدم قدرته على التحكم فيها.

– تخصّص اللّغة العربيّة تخصص علمي، ومن حق أصحابه القائمين عليه من أساتذة ودكاترة الاستفادة من النتائج التي حققتها العلوم الأخرى على رأسها مجال تعليمية اللغات، واللسانيات الحاسوبية، واللسانيات التطبيقية، واستثمار النتائج المحقّقة في خدمة اللّغة العربيّة وتحسين طرائق ووسائل تعليمها.

– مزايا ومساوئ الحاسوب متوقّفة على وعي مستخدميه بسلبيات وإيجابيات هذه التقنية.

– تحديث التعليم لم يعد مقتصرا فقط على الطّرق والمواد والمحتوى لتلائم حاجات المتعلم ورغباته وميولاته؛ بل أصبح تطوير الوسيلة التعليمية ضرورة

حتميّة فرضتها علينا المستجدات المختلفة المحيطة بنا، وأعتقد أنّه آن الأوان لنعيد النّظر في منظومتنا التّربويّة والتّعليميّة لنساهم في بناء جيل الغد بناءً لغويًّا سليمًا وقويًّا، يجعله فردًا معتزًّا بلغته قويًّا في بنيته الفكرية واللغويّة، وهي مسؤولية الجميع دون استثناء، بدءًا بالمتعلّم فالأستاذ فالمسؤولين، لنشكل جميعنا طاقما تعليميا متكاملاً، يعرف ما له وما عليه.

الهوامش:

1- أحمد عبد الجواد، إشكالية البحث العلمي والتكنولوجيا في الوطن العربي، دار قباء، القاهرة 2000، ص 165.

2- ينظر: يعقوب حسن نشوان، التعليم المفرد بين النظرية والتطبيق، الفرقان للنشر والتوزيع ط1، عمان(الأردن)، 1993، ص45.

3- الأهمية هنا يكمن أن تكون في كون الانسان الذي يفقد بصره لا يعيش منعزلا تماما عن عالمه الخارجي لكونه يتصل ويتواصل معهم بعكس الأخرس الذي تجده حياديا عن المجتمع غير متفاعل دوما منفعل ولعل هذا الذي جعلني أسبّق السمع عن البصر من حيث الأهمية.

4- سورة يونس، الآية 31.

5- سورة المؤمنون، الآية 78.

6- سورة الملك، الآية 23.

7- كاستعمال دخول اختصار لجملة تأمر بتنفيد المطلوب(entrée)، أو استعمال نعم (ok) للدلالة على قبول الشيء، أو استعمال كلمة رفض (ignorer) للدلالة على عدم قبول الفعل أو التعليمة والأمر؛ أي أن المستعمل يتخلى عن الجملة المتكونة من فعل وفاعل ومفعول به ويستبدلها بالمفردة.

8-ينظر:علي نبيل، اللغة العربية والحاسوب، في مجلة عالم الفكر، م18،ع3، الكويت، أكتوبر ديسمبر1987، ص84.

9- ينظر : محمد بن أحمد، اللغة العربية والنظم الحاسوبية والبرمجيات، في مجلة استخدام اللغة العربية في المعلوماتية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996،ص138.

10 -voir : Robert Escarpit, théorie générale de l information et de la communication © librairie hachette, paris, 1976, p49.

11- ينظر: أمل الأحمد، التعلم الذاتي في عصر المعلومات، ط01، مؤسسة الرسالة ناشرون بيروت، 2002، ص 172 .

12- ينظر: عبد الحق، مدخل إلى المعلوماتية – العتاد والبرمجيات-، قصر الكتاب، البليدة، دت، ص13.

13- voir : T.Decigny, Technologie éducative et audio-visuel, ©édition Labor-Bruxelles et Fernand Nathan – paris, 19.09.1975, p69.

14- ينظر: لطفي الخطيب، أساسيات في الكميوتر التعليمي، دار الكندي للنشر، ط01، الأردن 1993، ص14.

15- ENIAK : electronie numérical integrator and calculator

16- ينظر: غازي ج بيتر، ثقافة الكمبيوتر، الوعي البرمجة التطبيق، مؤسسة الأبحاث اللغوية، ط 02، القاهرة،1997، ص 19 .

المبتذل من خلال كتاب البخلاء للجاحظ
– دراسة دلالية معجمية–

أ.سعيد فاهم

جامعة مولود معمري/ تيزي–وزو

الجاحظ في سطور: (الجاحظ) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي البصري، الملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده وذهب أغلبهم على أنه ولد في سنة 159هـ الموافق لـ 775م بالبصرة مهد العلم والأدب، وذلك بداية خلافة المهدي الخليفة الثالث في الخلافة العباسية، طلب العلم أولا في الكتاتيب والحلقات في المساجد، واتصل بأكبر علماء زمانه في اللغة والأدب وفي مختلف علوم المعرفة كالبلاغة وتميز بسعة الإطلاع، وتحرير العقل وربما فاق أستاذه النظام في اطلاعه على كتب الثقافة الفارسية، كما أعجب الأدباء بأسلوب الجاحظ في الكتابة والحياة عموما، فألفوا كتبا في تقريضه.[1]

وكان من عادة الوزير ابن العميد أكبر كتاب الرسائل الديوانية إذا حضر مجلسه أحد منتحلي العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد والجاحظ. وقد ألف أكثر من 350 كتابا صور فيها جميع مظاهر الحياة ونشاطها في المجتمع الإسلامي وفي كل ذلك، فهو متسع الرواية، مائل إلى الفكاهة، حريص على تصوير الواقع بصدق معتمدا في غرضه على الجدل المنطقي في لغة حلوة متميزة أحيانا بالاستطراد فلقت هذه الطريقة هوى في نفوس البعض، واتهمه البعض بالثرثرة الجميلة، التي هي فن تعمد الجاحظ معالجته.[2]

ويرى المسعودي أن خروج الجاحظ من الجد إلى الهزل له ما يبرره مما جعل سائر كتبه في نهاية الكمال، كما لازم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات زمنا طويلا، صاحبه فيه خير صحبة، ولما قتل الزيات على يد المتوكل هرب الجاحظ

ثم فبض عليه، ولما عفي عنه عاد إلى موطنه وكان قد تجاوز السبعين حولا، وبقي يرضي رغبته في القراءة والكتابة والتأليف حتى أصيب بالفالج واشتد به الحال فكان يشتكي بالأسقام ووطأة الأيام. [3]

وأصبح يتذمر من أحوال الدنيا وما آلت إليه، فبعث إلى بعض إخوانه في ذم الزمان: "كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، وأشبه عليه حال دهره، ومخرج أمره، وقل عنده من يثق بوفائه، ويحمد مغبّه إخائه لاستحالة زماننا وفساد أيامنا ودولة أنذالنا." [4]

واختلفوا في تاريخ وفاته كما اختلفوا من قبل في تاريخ ميلاده، والغالب أنه توفى سنة255هـ إبان حكم المعتز بالله، مات في عمر يناهز السادسة والتسعين بعد أن ملأْ ذكره الأرض.

2- التعريف بكتاب البخلاء: يعتبر البخلاء من أعظم آثار الجاحظ التي أبقت الأيام عليها، ومن الصعب الإحاطة بكل المميزات الفنية لهذا المؤلف، وهذه بعض الملاحظات التي استنتجتها أذكر منها ما يلي:

1- إن للجاحظ روحا فنية طليقة سيطرت عليها النزعة الفنية والأدبية فكان قالبا أدبيا جذابا.

2- إيراد الحجج بالجد والهزل وتشقيق الكلام وربما وضع وولد كثيرا من الأحاديث توليدا دون تحرج.[5]

3- التهكم والسخرية: وسخريته متميزة فهو يسخر من القاضي كما يسخر من الراعي، وقد يتهكم على البخيل بالدفاع عنه والاحتجاج له.

وأعتقد أن الجاحظ قد تجشم هذه الصحاب لأغراض وأهداف اجتماعية أراد من ورائها خيرا، كإصلاح الفكر والتوحيد النفسي للتخلص من شحنات نفسية معينة ولعل اشتغال المجتمع بالماديات كان سببا في ذلك.

4- دقة الوصف وتتبع جزئيات الحوادث: فكان صريحا في كثير من المواقف التي تتطلب الوقار والاحتشام يمزج بين الجدل والهزل فيرصد حركات البخلاء ونظراتهم ويفضح أسرارهم.

ومن جهة أخرى فقد عني الجاحظ بالخصائص الاجتماعية والأحوال المعيشية لطبقات المجتمع المختلفة، فكان كتاب البخلاء من الأدب الواقعي المتميز بالإبداع الفني، وكان لظهور كتاب البخلاء في زمن ظهور اهتمام الناس بالكتب إلى جانب الرغبة الجامحة عن الملذات واقتناص الشهوات، فحصل ترف اجتماعي تبعه ترف في اللغة عجيب، وكان الجاحظ قد ترصد رغبات الناس وفهم ميولهم، فعمل على إرضائهم.

وركز أغلب نقده للبخلاء على ظاهرة البخلاء أو بالأحرى ظاهرة البخل بالطعام والشراب، وهذه من ملذات الدنيا التي لا يستغني عنها إنسان سوي والبخل صفة من المنع والحرص على ما يبقي الحياة ويشترك فيه الناس في كل زمان ومكان لذا يمكن القول بأن ما في كتب الجاحظ سمات تجعل أدبه من بواكر الآداب الإنسانية، وقد كان الجاحظ حريصا كل الحرص، فلم يترك للنقاد الباب مفتوحا فيأخذون عليه تهكمه واستهتاره، فلجأ إلى الاعتذار من اللحن وسوء التعبير فقال: "إن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهته فاعلموا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده، إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشياعه."[6]

أما ما يخص المدونة قد اخترت كتاب البخلاء ليكون مدونة أستخرج منها المفردات التي أتناولها بالبحث والدراسة، أما ما يخص مسوغات البحث فهي:

1- بعد تفكير جدي في طبيعة الموضوع وقع اختيارنا على الجاحظ وأعماله لاعتبارات كثيرة أهمها:

أ/ طبيعة الجاحظ الشخصية وقدراته الفكرية والعلمية

ب/ القيمة المتميزة لأعماله الأدبية وشهرتها في اللغة والأدب.

ج/ طبيعة العصر الذي عاش فيه وما يتميز به من رقي حضاري ولغوي.

تعريف الابتذال: معناه في اللغة الامتهان، وابتذل الثوب وغيره امتهنه وابتذال الألفاظ وامتهانها هو من الاحتقار لما تحمله من معان تنفر منها النفس ويهرب منها الذوق، فتنحط دلالتها شيئا فشيئا لقلة استعمالها على ألسنة المتكلمين، ثم استبدالها بغيرها، والألفاظ ذات الدلالات القبيحة كالحياء أو الغريزة الجنسية أو الضعف النفسي أو الهلاك[7]، فتستعيض الناس عن هذه الألفاظ بأخرى تعبر عن الدلالات نفسيا ولكن في رموز، فمن ذلك الرموز المحرمة لأسباب اجتماعية التي ترغب في تغيير الكلمات مراعاة للياقة، إذ ليس من اللائق أن تتكلم في أحد المجتمعات الراقية عن أفعال معروفة بالفظاظة أو أنها مما يحرج الحياء، اعتمادا على العرف السائد في المجتمع.

أما ما يخص الجزء التطبيقي فقد اعتمدنا طبعتين من كتاب البخلاء، فالأولى للدكتور يوسف الصميلي، والثانية للدكتور طه الحاجري، ثم قمنا باستخراج بعض الألفاظ المبتذلة ولاسيما الألفاظ التي تختص بالأطعمة والأشربة، كما ذكرنا ألفاظا تختص بالحياة الاجتماعية.

ويمكننا أن نمثل بهذا الجدول الآتي:

الكلمات المبتذلة	**البخلاء طبعة الصميلي[8]**	**البخلاء طبعة الحاجري[9]**
السكباج	لقد ذكرها الصملي بمعنى المرق الذي يعمل من اللحم والخل	أما الحاجري فقد قال إنها لحم
الطباهج	طعام من بيض وبصل ولحم	ضرب من قلي اللحم
الجوارشن	نوع من الأدوية والكلمة فارسية معناها الهضام	نوع من الأدوية يقوي المعدة
الخشكار	ما خشن من الدقيق او ما بقي في	ما خشن من الطحن ويصنع

	المنخل بعد الانتخالة أي النخالة	من دقيق الشعير ويحشى قيه الجوز والسكر
الشيرقات	قطع من لحم صغيرة يطبخ	طعام العجم وعيش كسري، بئس العيش هذا كان عمر بن الخطاب يضرب على هذا
اليستندود	نوع من الفطائر المحشوة	نوع من الفطائر المحشوة
الشاذروان	ماحول المدينة من بيوت ومساكن	لم يشر إليها الحاجري أنها مبتذلة
جرذ قتان	مفردها جرذقة ومعناها الرغيف	الرغيف، حيث مازال بعض السورين يصنعون ضربا من الخبز الرقاق.
الأشنان	ما تغسل به الأيدي من الحمض	الملاحظة نفسها
الشاهسيرم	نوع من الرياحين يقال له الريحان السلطاني إذا رش بالماء اشتدت رائحته	الملاحظة نفسها
الشحشحان	الشحيح	الملاحظة نفسها
الجواسق	مفردها جوسق ومعناها القمر	//
الجمات والسكرجات	والسكرجة الصحفة التي يوضع عليها الطعام	إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم
الخشكنان	نوع من الكعك محشو بالجوز والسكر والفستق ويكون على شكل هلال	الملاحظة نفسها

الكلمات المبتذلة	البخلاء طبعة الصميلي[10]	البخلاء طبعة الحاجري[11]
طفيشلة	نوع من المرق	لم يشر إليها الحاجري
الدرياجة	البحيرة	للدلالة على الجزء المحدود من الشاطئ
الفالوذق	حلوى تصنع من الحنطة	الملاحظة نفسها
البرني	نوع من الثمر أقل جودة	الملاحظة نفسها
الجيسران	جنس من أجود الثمر	جنس من أفخر النخل
الفالونجات	جمع فالوذج فتات الخبز بالعسل والسمن	الملاحظة نفسها
التبليا والبربند	أدثان لصعود النخل	الرباط أو المصعد المصنوع من الحبل
الأزد مردية	الرجل الكريم، الأجرار وكانت هذه اللفظة تطلق على بعض الطبقات الرفيعة في إيران قبل الإسلام	الملاحظة نفسها
الإسار	الضيافة	الملاحظة نفسها
نشوار	لم يشر إليها الصميلي	أصلها نشخوار ومعناها جرة الحيوانات المجترة
البابة	الملاحظة نفسها	حيث يقول في البخلاء "أما سائر حديث هذا الرجل فإنه من هذه البابة "ويقصد به المدخل
اشكنج	الملاحظة نفسها	معناه التعذيب
الأثافي	الملاحظة نفسها	وهو حديد ذو ثلاث قوائم تنصب عليه القدور
النعال السندية	الملاحظة نفسها	نسبة إلى إقليم السند الذي كان مشهورا بصناعة النعال
الخروش	الملاحظة نفسها	هي صاحبة الخرسة

الوكيرة	الملاحظة نفسها	هي طعام يعمل عند الفران من البنيان يقول الجاحظ "ومن طعامهم الوكيرة وهو طعام البناء كان الرجل يطعم من بنى له وإذا فرغ من بنائه تبرك بإطعام أصحايه ودعائهم
الجردبيل	الملاحظة نفسها	الذي يضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره
النشال	الملاحظة نفسها	الذي يتناول من القدر ويأكل قبل أن تنزل من القدر
خوامزكة	الملاحظة نفسها	من ألوان اللحوم
كردناج	الملاحظة نفسها	نوع من أنواع الشواء
النشاستج	الملاحظة نفسها	قال الجاحظ "أشكيت أياما صدر من سعال كان أصابني فأمرني قوم بالفنانيد السكري وأشار إلى آخرون بالخريزة تتخذ من النشاستج والسكر ودهن اللوز وأشباه ذلك مسحوق أبيض يكثر في الحبوب
الفنانيد	لم يشر إليها الصميلي	حلوى تصنع من السكر ودقيق الشعر
الخبيص	الملاحظة نفسها	ضرب من الحلوى يعمل بالتمر

خاتمة: من خلال هذا البحث الموجز توصلنا إلى أن الألفاظ التي استعملها الجاحظ تعبر عن الحضارة، ولاسيما أن عصره، عصر ترف وبذخ تنوعت فيه الأطعمة والأشربة. ولعل الاحتكاك بالأعاجم خاصة الفرس، أدى إلى إثراء المعجم العربي بألفاظ جديدة، دخيلة، أغلبها في الأطعمة والأشربة وغيرها.

ــ لقد اعتمدنا طبعتين مختلفتين، الأولى ليوسف الصميلي والأخرى لطه الحاجري، والظاهرة اللافتة للانتباه أن هناك ألفاظا أشار إليها الحاجري، إنها ألفاظ مبتذلة في حين أن الصميلي قال إنها ألفاظ فصيحة. ولعل هذا الاختلاف يعود إلى اختلاف منهج الدراسة.

ــ كما قمنا باستخراج حوالي أربعين (40) لفظة مبتذلة أغلبها فارسية، كما قدمنا دلالاتها المعجمية.

ــ وبناء على ما سبق أن كتاب البخلاء من أعظم أثار الجاحظ التي أبقت الأيام عليها، ومن الصعب الإحاطة بكل المميزات الفنية لهذا المؤلف، وأعتقد أن الجاحظ قد تجشم هذه الصعاب لأغراض وأهداف اجتماعية، أراد من ورائها خيرا كإصلاح الفكر والمجتمع.

الهوامش:

1- المسعودي: مروج الذهب، ج4، دار الأندلس: 1981، ص102.

2- المرجع نفسه، ص109.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت: 1982، ص242.

5- تهذيب الأزهري، ج1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص30.

6- الجاحظ: البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، مصر: 1981، ص40.

7- ينظر: صحاح الجوهري، ج4، ص102.

8- ينظر: الجاحظ: البخلاء، تقديم وضبط وشرح وتدقيق وفهرسة: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت: 2001، ص24، 34، 87، 208، 60، 45، 48، 74، 83، 110، 112.

9- ينظر: الجاحظ، البخلاء، تحقيق: د/طه الحاجري، سلسلة ذخائر العرب23، دار المعارف مصر: دت، ص121، 212، 35، 96، 211، 63، 120، 292.

10- ينظر: الجاحظ، البخلاء، تح: الصميلي، ص114، 118، 120، 123، 180، 185، 193، 210، 212.

11- ينظر: الجاحظ، البخلاء، تح: الحاجري، ص129، 127، 212، 82، 132، 143، 223، 104، 213، 34، 76، 31، 203.

جماليّات الإيقاع الموسيقيّ، ودلالته في القرآن الكريم
– دراسة من الحزب 43 إلى48 –

أ. كهينة بناي
جامعة مولود معمري/ تيزي–وزو

مقدّمة: الإيقاع في القرآن الكريم إيقاع لغوي متفرّد لا يماثله إيقاع أو يقترب منه؛ فهو يتّسم بالتّحرّر من كلّ قيد يقيّد المعنى، أو يحدّ من النّظام الصّوتي، وهو إيقاع جماعي– إن صحّ التّعبير– منبعث من النّص في تكوينه الصّوتي واللّفظي تبرزه كلّ مكوّنات النّص القرآني؛ فحروفه متآخية في كلمات ذات إيقاع موسيقى ونغم تهتزّ المشاعر منه اهتزازًا، وتسكُن النّفوس مطمئنةً راضيةً، ويختلج الوجدان متأثّرًا منفعلاً، ويطرب القلب حين يدرك المعنى مصحوبًا بإيقاع مؤثّر يرهّف الحسّ ويرقّق الوجدان، وما دامت هذه دراسة فنيّة متواضعة اختصّت بموضوع جماليّات الإيقاع الصّوتي ودلالته في القرآن الكريم؛ فلا مناص من التّعرّض أوّلا لمفهوم كلّ من الجمال أو الجماليّة والإيقاع ودلالتهما في اللّغة العربيّة والقرآن الكريم، ثمّ تتبُّع بعض روافد التّنغيم في القرآن– من الحزب 43 إلى غاية الحزب 48– مستشهدة بما تضمّنه كتاب **الظّلال** لـِ: **سيّد قطب**؛ في ما يخصّ هذا الموضوع، وذلك بغية توضيح جوانب مهمّة من الإعجاز الصّوتي والنّغمي في القرآن الكريم، وتوضيح جانب من جوانب الإعجاز اللّغوي في القرآن المجيد والرّوافد الإيقاعيّة التي أوضحها البحث مع الشّواهد القرآنية التي تتعلّق بظواهر متعدّدة منها: جرس الألفاظ والتّكرار، والمقاطع الصوتية المتنوّعة، والأثر التّنغيمي الكبير الذي يحدثه حسن توزيع المقاطع في سياق الآيات الكريمة، وتوازن الإيقاع وتنوّع الإيقاع، ونغم الفواصل. مستعرضة أوّلا مفهوم التّنغيم والإيقاع ودلالتهما في

القرآن الكريم، وأهميّة كتاب **الظّلال** لـِ **السيّد قطب** في دراسة هذا الجانب الفنّي المتعلّق بالقرآن الكريم.

1- **مفهوم جماليات الإيقاع الموسيقي ودلالته في القرآن الكريم:** انفرد القرآن الكريمة بطريقة سويّة في تأدية المعاني، وإبرازها في قوالب لغويّة لا تنافر بين ألفاظها ولا بين حروفها، إنّها طريقة مستقيمة لا عوج فيها، قال **الخطابي** (ت388هـ): "إن الكلام إنّما يقوم بأشياء ثلاثة: لفظ حاصل ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه"[1]. فأسلوب القرآن الكريم في الإقناع ممتع يقول تعالى ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً(1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً(2)﴾ [الجن:01-02] ويقول **محمّد بكر إسماعيل** مقدّماً لهذا الأسلوب القرآني في خصائصه الفنيّة، وسماته البلاغيّة ولطائفه اللّغويّة، وتأثيره الخاص في النّفوس السويّة، وفي النّفوس الجامحة أيضا: "وله جمال يعرف ولا يوصف فمهما قيل فيه فهو أسمى وأرفع من أن تحيط به العقول، أو تعبّر عنه ألسنة المتكلّمين أو أقلام الكاتبين".[2] ويقول أيضا: "القرآن في جميع ذلك نمط فريد لا يدانى من بعيد ولا من قريب، فمهما بذل العلماء من جهد في تخريج لطائف أسلوبه ودقائق تعبيره، ورقّة تصويره، وعذوبة منطقه، فلن يبلغوا من ذلك كلّه إلاّ كما يبلغ العصفور من البحر".[3] والجماليّة لغة مثلما يعرّفها **عبّاس حسن**: "الجماليّة مصدر صناعي مشتق من الجمال والمصدر الصناعي يطلق على كلّ لفظ زيد آخره حرفان، هما ياء مشدّدة بعدها تاء تأنيث مربوطة ليصير بعد زيادة الحرفين اسما دالا على معنى مجرد لم يكن يدلّ عليه قبل الزّيادة، وهذا المعنى الجديد هو مجموعة الصفات الخاصة بذلك اللفظ، مثل الاشتراك الاشتراكيّة، والوطن الوطنية، والإنسان الإنسانية".[4] والجماليّة القرآنيّة مثلما يراها أحد الباحثين المحدثين: "لاشكّ أنّ الظّاهرة الجماليّة في القرآن الكريم أرفع وأجلّ من أن يختلف فيها اثنان: فالظّاهرة القرآنيّة ربّانيّة المصدر تتوّج الإعجاز البياني الذي تحدّى العرب بيانا، وتحدّى

النّاس شريعة نظام، وهي تتحدّى الجماليين في روائعه وجماليّاته وجلاليّاته ودراسة الجماليّة في القرآن ذات جوانب متشابكة:

– فهي منطلق وجود حضاري لأقدس وأعظم سجل حضاري في الوجود.

– وهيّ اتّجاه أدبي وفنّي رائد يغني الموضوعات الكونية والإلهية بأبهى الصّور الدّلاليّة الأدبيّة والفنيّة الرّائعة.

– وهي منحى تربوي يلبّي حاجات الإنسان الجماليّة، ويصبغه بالشّخصيّة المسلمة على نمط جامع وفريد ومتميّز".[5]

والإيقاع الموسيقي من أهم الظّواهر الفنيّة في الأسلوب القرآني في تنوّعه وتشكيلاته. فهو ظاهرة لغويّة فنيّة مثلما يعتبره بعض البلاغيين: "... فالإيقاع ظاهرة حيوية وهو كذلك ظاهرة لغويّة عامة، وإذا تقرّر أنّ الإيقاع ظاهرة لغويّة عامة فهو في اللغة العربيّة أكثر وضوحا وأشدّ ظهورا. ومصطلح الإيقاع معروف عند العرب باختصاصه بالألحان والغناء. وفي اللسان: الإيقاع من إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقّع الألحان ويبيّنها، وسمّى **الخليل** كتابا من كتبه في ذلك المعنى كتاب الإيقاع وهو مشتق من التّوقيع، أي الضّرب المنتظم على آلة أو غيرها بنظام معروف. وذلك في جوهره قائم على التّكرار، وربّما تولّد منه فيما بعد ذلك الإيقاع اللفظي الذي يعتمد هو الآخر في جوهره على صورة لغويّة"[6]. فاللغة العربيّة بطبيعتها لغة إيقاعيّة، ونعني بالإيقاع هنا كلّ ما يحدث نغما صوتيا مؤثّرا وهذا النّغم – أيّا كانت صورته– يعتمد أساسا على التّكرار الإيقاعي، والطبيعة الصرفيّة للعربيّة تعطيها مجالا واسعا لتنويع الإيقاع. فالعربيّة ذات طبيعة اشتقاقيّة لا إلصاقيّة[7]. والتّنغيم كما يعرفه العلماء والباحثون: "مصطلح يدلّ على ارتفاع الصوت وانخفاضه في الكلام، ويسمّى أيضاً موسيقى الكلام".[8] بل هو من الظواهر الصوتية التي تساعد في تحديد المعنى، لأنّ "تغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات"[9]. فوظيفته الدلالية النحوية مثلاً تقتضي منه أن يكون فيصلاً في الحكم بين كون الجملة تقريرية أو استفهامية، ويعتبر **تمّام حسّان:** "مفهوم

الإيقاع هو ظاهرة استعماليّة".[10] ونحن نعتبر هذه الظاهرة مع اضطراب دلالة هذا المفهوم لدى الباحثين والدّارسين العرب خاصة، أنّ الإيقاع في اللّغة العربيّة من الجوانب التي تنتظر من يقوم بدراستها دراسة جديّة معتمدة على استقراء أوسع للنّصوص العربيّة.

2- روافد الإيقاع في القرآن الكريم: دراسة تطبيقيّة من الحزب 43 إلى48:

2ـ1- **سورة الأحزاب**؛ مدنيّة وعدد آياتها (73) ومن الرّوافد التّنغيمية التي نتحسّسها في هذه السّورة: نغم الفواصل أو إيقاع الفواصل؛ والفاصلة هي الكلمة الأخيرة في الآية القرآنيّة مثلما عرّفها **سيد الأخضر**: "الفاصلة هي كلمة آخر الآية كقافية الشّعر، وقرينة السّجع، وقال الدّاني، كلمة آخر الآية... وقال **القاضي أبو بكر**: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني".[11] ولقد اختصّت لفظة الفاصلة بالقرآن الكريم ولم يكن مناسبا أن تطلق لفظة السّجع أو القافية على الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنيّة تنزيها للقرآن الكريم عن أن يكون شبيها بحديث الكهّان الذي ارتبطت به لفظة السّجع، وفي ذلك يقول **تمّام حسان**: "ولم ينسبوه إلى سجع الكهّان لوضوح مقاصده، وغموض السّجع ولأنّه ليس مسجوعا، ولا يلتزم ذلك في أسلوبه".[12] أو أن يكون ضربا من الشّعر الذي ارتبطت به لفظة القافية، والفاصلة القرآنية ملمح أساسي من ملامح الإيقاع الموسيقى، والنّظم الصوتي في القرآن، فهي جزء من الآية، وعنصر تعبيري متميّز قوي ومثير للإيقاع. وهي تنضوي على دلالتين هامتين: دلالة صوتية تتمثل في الإيقاع، والرّنين الصوتي المحكوم بنسق الآية والسياق العام. ودلالة معنوية تحمل تمام الفكرة في الآية. وعن أهميّة الفاصلة يقول **تمّام حسّان**: "الفاصلة في نهاية الآية لتُحقّق للنّص جانبا جماليا لا يخطئه الذّوق السّليم، لأنّنا مهما يكن من شيء نحسّ أنّها تضفي على النّص قيمة صوتيّة منتظمة ينقسم سيّاق النّص بها إلى وحدات أدائيّة، تعدّ معالم للوقف والابتداء وتتضافر مع الإيقاع الذي سبق شرحه

فينشأ من تضافرها أثر جمالي لا يبعد كثيرا عمّا نحسه من وزن الشّعر وقافيته ولكنّ هذا الأثر يمتاز عن ذلك بالحريّة من كلّ قيد ممّا تفرضه الصّنعة على الوزن والقافية، ولأمر ما كان الوقف على رؤوس الآي سنّة إلاّ أن يفسد المعنى. ذلك أنّ الوصول بالقراءة إلى فاصلة الآية يتّفق في الأغلب الأعلم مع طاقة النّفس الواحد لدى القارئ، فيقف القارئ عند الفاصلة يتزوّد بزاد نفس جديد وليحسّ عند الفاصلة بأنّه يقف لدى معلم من معالم السيّاق المتّصل تحفّ به روائق الإيقاع وروائع المعنى من كلّ جانب".[13] وإنّنا لندرك تلك الدلالة من خلال الآيات البيّنات التّالية التي وردت فيها الفاصلة متلائمة تمامًا مع المعنى المراد؛ لارتباط الفاصلة بالسياق وهذا أمر أساسي، فهي لم تأت كحلية لفظية لا ارتباط لها بالمعنى أو دون اعتبار له فالفاصلة القرآنية لها مكانها عبر السّياق الذي تستقر فيه بلا نفور أو قلق، بل تتلاءم وترتبط به ارتباطاً قويًا بحيث لو طُرحت لاختلّ المعنى واضطرب الفهم. يقول تعالى ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: 25] فقد جاءت الفاصلة في قوله ﴿قَوِيًّا عَزِيْزًا﴾ لتحدث المعنى المطلوب خاصةً وأن حرف الروي اختلف (الزاي) واتفقت الفاصلة في التنوين على الحرف الأخير المتنوّع، وهذا التّنوين لون من ألوان الإيقاع المؤثّر في النّفس، والحامل قدرًا كثيرًا من الرّنين الصّوتي. ولو انتهت الآية كما يرى **الزركشي** في مصنّفه **البرهان في علوم القرآن** عند قوله عز وجل ﴿وَكَفىٰ اللهَ الْمُؤْمِنِيْنَ القِتَالَ﴾ لتوهم بعض الضعفاء أنّ ذلك يعني موافقة الكفار في اعتقادهم أنّ الرّيح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا، وأنّ ذلك أمر اتّفاقي فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ في فاصلة الآية عن نفسه بالقوّة والعزّة، ليعلم المؤمنين ويزيدهم يقينًا وإيمانًا على أنّه الغالب الممتنع وأنّ حزبه كذلك فقال عزّ وجل ﴿وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيْزًا﴾ كما أنّ هذه الفاصلة بيّنت أنّ تلك الرّيح التي هبّت ليست اتّفاقًا بل هي من إرساله عزّ وجلّ على أعدائه كعادته، وأنّه ينوّع النّصر للمؤمنين ليزيدهم إيمانًا بنصرهم[14]. ومثلا في قوله تعالى ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً(30) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(31) يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ. فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ؛ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً 32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى؛ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ – أَهْلَ الْبَيْتِ– وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً (34)﴾ [الأحزاب30–34] فإضافةً إلى الفواصل الصّوتيّة – والفواصل الصوتية مصطلح نطلقه على مجموعة من الظّواهر الصوتية التي تشكّل مع ظواهر أخرى كالنّبر والتّنغيم تلوينا موسيقيا خاصا بالمنطوق يحدّد طبيعة التّركيب وماهيته ودلالته وهذه الفواصل هي: الوقفة (stop) والسّكتة (pause) والاستراحة وأخذ النّفس وهي كلّها ذات خطر وبال في صحة الآداء الصّوتي وتجويده، وفي التّحليل النّحوي والدّلالي للتراكيب. والسّكتة أخفّ من الوقفة وأدنى منها زمنا وهي في حقيقة الأمر لا تعني إلاّ مجرّد تغيير مسيرة النّطق بتغيير نغماته إشعارا بأنّ ما يسبقها من الكلام مرتبط أشدّ ارتباط بما يلحقها ومتعلّق به ومن ثمّ يسميها بعضهم وقفة أو سكتة معلّقة، والقاعدة أنّها تكون مصحوبة بنغمة صاعدة (rising tone) دليلا على عدم تمام الكلام وعلامتها في الكتابة الفاصلة[،] وهذه الفاصلة فاصلة واصلة فاصلة نطقا واصلة للسابق باللاحق بناء ومعنى، وهي وسيلة تعبيريّة بالغة التّأثير حيث يتم فيها اكتمال المعنى، وتصل فيها الآية إلى ذروة النّغم. وهي في هذه الآيات أضفت إيقاعا فيه شدّة وتأكيد مغري يتلاءم مع غرض هذا الدّرس من سورة الأحزاب الخاص بأزواج النّبي (ص)، فنلاحظ على سبيل المثال إيقاعا لطيفا مثيرا في جرس اللّفظ (وقَرْنَ) في قوله سبحانه ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33] يقول **سيّد قطب:** "من وقر، يقر، أي ثقل واستقر، وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنّها إطلاقا. إنّما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل

في حياتهنّ، وهو المقرّ وما عداه استثناء طارئا لا يثقلن فيه ولا يستقررن. إنّما هي الحاجة تقضى, وبقدرها، والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوّهة ولا منحرفة ولا ملوّثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة".[15] كما يظهر لنا في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ – أَهْلَ الْبَيْتِ– وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب:33] تنغيم جميل يتأتّى في هذا التّعبير من الإيحاءات الكثيرة؛ فهو يسميهم (أهل البيت) بدون وصف للبيت ولا إضافة. كأنّما هذا البيت هو(البيت) الواحد في هذا العالم، المستحقّ لهذه الصّفة فإذا قيل(البيت) فقد عُرف وحُدّد ووُصف ومثل هذا قيل عن الكعبة – بيت الله – فسميت البيت، والبيت الحرام فالتّعبير عن بيت رسول الله (ص) كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم. يقول **سيّد قطب:** "وفي العبارة تلّطف ببيان علّة التّكليف وغايته. تلطف يشي بأنّ الله سبحانه –يشعرهم بأنّه بذاته العليّة– يتولّى تطهيرهم وإذهاب الرّجس عنهم، وهي رعاية عُلويّة مباشرة بأهل هذا البيت، وحين نتصوّر من هو القائل –سبحانه وتعالى– ربّ هذا الكون. الذي قال للكون: كن فكان. الله ذو الجلال والإكرام. المهيمن العزيز الجبار المتكبر. حين نتصوّر من هو القائل – جلّ وعلا – ندرك مدى هذا التّكريم العظيم"[16]. ومن صور التّنغيم التي تتجلّى في فواصل هذه السورة التي تأتي كلّها بألف مد ناشئ عن الوقف على تنوين النّكرة، ما عدا الآيتين التّاليتين ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:10] و﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب:67] فالفاصلة فيهما معرفة، وآية أخرى فاصلتها(السبيلَ) في قوله تعالى ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:04] ولأجل إجراء الفاصلة في الآيتين المذكورتين زيدت الألف في المعرّف بالألف واللام، وهو غير معتاد في النثر العربي، ولكن القرآن كما نذكر مرارا يراعي الفاصلة تماما ويغير ويزيد ويحذف لأجلها[17]؛ فالمقرّر في القواعد أنّ الألف تنوب عن التّنوين الذي بعد الفتحة عند الوقف، ولأنّ التّنوين الذي نابت عنه الألف لا يجتمع مع أداة التّعريف (أل) خلت النّصوص العربيّة من الجمع بينهما حتّى في قوافي الشعر، لأنّ الألف

التي تجامع (أل) في قوافي الشعر هي ألف إطلاق، وليست ألف إبدال أو تعويض ومع ذلك تأتي ألف الإبدال في القرآن في كلمات اقترنت بأداة التعريف، وكانت الألف في هذه الحالة لرعاية الفاصلة، كما في قوله تعالى ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ وفي قوله سبحانه ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[18] والفاصلة ذات أثر صوتي خاص في هذه السورة؛ فمن جهة أعطى التّكرار لونا موسيقيا خاصا. ومن جهة أعطى التّرنيم بالمدّ والتّنوين أو المدّ – وهو الغالب على الفواصل في القرآن– أعطى جمالا صوتيا خاصا بتنويع أحرف الفاصلة خاصة (الميم) قال **السيوطي:** "كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النّون، وحكمته وجود التّمكّن من التّطريب بذلك، كما قال **سيبويه:** "إنّهم إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنّون لأنّهم أرادوا مدّ الصّوت ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع"[19]. وقد جاء في ترتيب حروف الفاصلة حسب كثرتها في السورة (الميم) و(اللام) التي أحدثت هذا الإيقاع المترنّم الخفيف. ومن صور الإيقاع في هذه السورة أيضا تكرار توازن الإيقاع؛ و"الوزن والتّوازن كليهما من صور الإيقاع وهما أيضا من القيم الصوتية التي تصلح أن تكون مجالا للفنّ والجمال. أمّا الوزن فبحسبك أن تتأمّل ما يمنحه من الجمال للشّعر والموسيقى ونحوهما. وأما التّوازن فيكفي أن تنصت إلى صوت قارئ مجيد يرتّل القرآن –ولا أقصد ترتيل التّطريب بل التّرسّل بدون تطريب– وترى عندئذ أنّ ما في القرآن من جمال التّوازن يجاوز أحيانا جمال الوزن[20]. ونلمس صورا منه في قوله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:35] فهذا الإيقاع المتجانس الذي تحمله هذه الآية يتناسب ومضمونها؛ التي يُعمّم الحديث فيها عن صفة المسلم والمسلمة ومقوّمات شخصيتهما، بعدما

خصّص نساء النبي (ص) في أوّل هذا الشّوط من السّورة، وتذكر المرأة في الآية بجانب الرّجل كطرف من عمل الإسلام في رفع قيمة المرأة، وترقية النّظرة إليها في المجتمع وإعطائها مكانها إلى جانب الرّجل في ما هما فيه سواء من العلاقة بالله، ومن تكاليف هذه العقيدة في التّطهر والعبادة والسلوك القويم في الحياة[21].

ومن صور إيقاع الفاصلة بتكرار نفس الوزن مع اختلاف الرّوي؛ نجده في قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا(66) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا(67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً(68)﴾ [سورة الأحزاب: 65-68] ومن أمثلة الفاصلة المتشابهة الوزن والروّي تظهر في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً(44)﴾ [الأحزاب: 43-44] وفي قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً(45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً(46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (47)﴾ [الأحزاب:45-47] وفي هذه الآية إضافة إلى إيقاع الفاصلة المتجانس نلحظ نغما متميّزا في قوله ﴿وسراجا منيرا﴾ جاء في قول فصل لا شبهة فيه ولا غموض (سراج) وفي أسلوب جاء بتصوّر واضح يبيّن النّير لهذا الوجود، ولعلاقة الوجود بالخالق ولمكان الكائن الإنساني من هذا الوجود وخالقه وللقيم التي يقوم عليها الوجود كلّه، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه وما جاء به رسول الله (ص) من النّور، أسلوب يُخاطِبُ الفطرة خطابا مباشرا، وينفذ إليها من أقرب السبل وأوسع الأبواب وأعمق المسالك والدروب[22]. وفي قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(48) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(49)﴾ [الأحزاب:48-49] وفي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ

نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً(53) إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(54)﴾ [الأحزاب:53-54] وفي ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً(57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً(58)﴾ [الأحزاب:57-58] وفي قوله سبحانه ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (60) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً 61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(62)﴾ [الأحزاب:60- 62] أمّا في قوله سبحانه ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً(73)﴾ [الأحزاب72-73] فإنّنا نتحسّس نغما في جرس اللفظ في (وأشفقن) الذي يوحي بالإرادة والإدراك والمحاولة وعدم القدرة على حمل التّبعة وبالمبالغة بعظمة الخوف والفزع والخشية من عدم القدرة على حمل آمنة الله في الكون، فهذا الإيقاع يصوّر جسامة التُّبعة وضخامة الأمانة، ويحدّد موضع الجسامة ومنشأ الضخامة. ويحصرها كلّها في نهوض الإنسان بمعرفة الله والاهتداء إلى ناموسه والخضوع لمشيئته؛ فهذا القمر، وهذه النّجوم والكواكب وهذه الرياح والسحب وهذا الهواء وهذا الماء، وهذه الجبال... كلّها... كلّها... تمضي لشأنها بإذن ربّها وتعرف بارئها، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كدٍ ولا محاولة. لقد أشفقت من أمانة التّبعة. أمانة الإرادة. أمانة المعرفة الذاتيّة. أمانة المحاولة الخاصة. فحملها الإنسان؛ الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه وشعوره. ويهتدي إلى ناموسه بتدبّره

وبصره. ويعمل وفق هذا النّاموس بمحاولته وجهده، ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ومقاومة انحرافاته ونزعاته، ومجاهدة ميوله وشهواته. وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مُريد مدرك يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق! إنّها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة الضعيف الحول، المحدود العمر، الذي تناوشه الشهوات والنّزعات والميول والأطماع وهذا كلّه ليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله. ولينهض بالأمانة التي اختارها والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها! وبهذا الإيقاع الهائل العميق تختم السورة التي بدأت بتوجيه الرسول (ص) إلى طاعة الله وعصيان الكافرين والمنافقين، واتّباع وحي الله والتّوكل عليه وحده دون سواه، والتي تضمّنت توجيهات وتشريعات يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامي خالصا لله، متوجّها له، مطيعا لتوجيهاته... فيتناسق بدؤها وختامها، مع موضوعها واتجاهها. ذلك التّناسق المعجز، الدّال بذاته على مصدر هذا الكتاب[23].

2ـ 2- **سورة سبأ؛** مكيّة وآياتها (54) وكان التّركيز الأكبر في هذه السّورة على قضية البعث والجزاء وعلى إحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه. وتتكرر الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرق منوّعة وأساليب شتّى تظلّل جو السّورة كلّه من البدء إلى النّهاية. والإيقاع الذي يتمخّض من هذه السّورة هو جرّاء التّنويع في الأسلوب بين التّقرير والاستفهام؛ فهذه القضايا التي تعالجها السّور المكيّة في صور شتى، تعرض في كلّ سورة في مجال كوني، مصحوبة بمؤثرات منوّعة جديدة على القلب في كلّ مرّة، ومجال عرضها في سورة **سبأ** هو ذلك المجال ممثّلاً في رقعة السّماوات والأرض الفسيحة، وفي عالم الغيب المجهول المرهوب. وفي ساحة الحشر الهائلة العظيمة، وفي أعماق النّفس المطويّة اللّطيفة وفي صحائف التّاريخ المعلومة والمجهولة، وفي مشاهد من ذلك التّاريخ عجيبة غريبة، وفي كلٍّ منها مؤثّر موح للقلب البشري، موقظ له من الغفلة والضّيق والهمود.[24] وهكذا تطوف السورة بالقلب البشري في تلك المجالات المتنوّعة

وتواجهه بتلك المؤثرات الموحيّة الموقظة. حتّى تنتهي بمشهد عنيف أخّاذ من مشاهد القيام.[25] يقول تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(2)﴾ [سبأ:02] فالإيقاع المتأتّي من هذه الآية نتحسّسه من هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو حشد هائل عجيب من الأشياء والحركات والأحجام، والأشكال، والصور، والمعاني، والهيئات التي لا يصمد لها الخيال! ولو أنّ أهل الأرض جميعا وقفوا حياتهم كلّها يتتبّعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة ممّا تشير إليه الآية لأعجزهم تتبّعه وإحصاؤه عن يقين! فكم من شيء في هذه اللّحظة الواحدة يلج في الأرض؟ وكم من شيء في هذا اللّحظة يخرج منها؟ وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها؟ كم من شيء يلج في الأرض؟ وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله؟ وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلاّ الله؟ ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر؟ ومن ذرة غاز صاعدة من جسم؟ وكم وكم ممّا لا يعلمه سواه! كم في لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر، وإحصاؤهم لما في اللّحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوّال في العدّ والإحصاء؟ وعلّم الله الشامل الهائل اللّطيف العميق يحيط بهذا كلّه في كلّ مكان وفي كل زمان... وكلّ قلب وما فيه من نوايا وخواطر وما له من حركات وسكنات تحت عين الله، وهو مع هذا يستر ويغفر... وإنّ آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمِمّا يوحي بأنّ هذا القرآن ليس من قول البشر؛ فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر، ومثل هذا التصوّر الكوني لا دافع إليه من طبيعة تصوّر البشر، ومثل هذه الإحاطة باللّمسة الواحدة تتجلّى فيها صنعة الله بارئ هذا الوجود! التي لا تشبهها صنعة العبيد![26] ومن الأساليب المتنوّعة والمؤثّرة في هذه السّورة أسلوب الاستفهام في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (8)﴾ [سبأ:07-08] هذا الحد من الاستغراب والدّهش

ورد في أسلوب حاد من التّهكم والتّشهير؛ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ بمعنى؛ هل ندلّكم على رجل عجيب غريب، ينطق بقول مستنكر بعيد، حتّى ليقول: إنّكم بعد الموت والبلى والتّمزق الشّديد تخلقون من جديد، وتعودون للوجود ![27] أمّا قوله تعالى: أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ؟ فهو أسلوب استفهام يتضمّن معنى التعجّب والتّعجيب والاستنكار والتّشهير، وما يقول مثل هذا الكلام – بزعم الكفّار– إلاّ كاذب يفتري على الله ما لم يقله، أو مسّته الجنّ فهو يهذي أو ينطق بالعجيب الغريب! ولم هذا كلّه؟ لأنّه يقول لهم: إنّكم ستخلقون خلقاً جديداً! وفي ما العجب وهم قد خلقوا ابتداء؟ إنّهم لا ينظرون هذه العجيبة الواقعة عجيبة خلقهم الأوّل، ولو قد نظروها وتدبّروها ما عجبوا أدنى عجب للخلق الجديد ولكنّهم ضالون لا يهتدون، ومن ثم يعقب على تشهيرهم وتعجيبهم تعقيباً شديداً مرهوباً، ومن الأساليب الواردة في هذه السورة الأمر في قوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ(22) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(23) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(24) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(26) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(27)﴾ [سبأ: 22–27] فهذه الآيات البيّنات تعتبر جولة قصيرة حول قضية الشّرك والتّوحيد. ولكنّها جولة تطوف بالقلب البشري في مجال الوجود كلّه، ظاهره وخافيه، حاضره وغيبه سمائه وأرضه دنياه وآخرته، وتقف به مواقف مرهوبة ترجف فيها الأوصال، ويغشاها الذّهول من الجلال، كما تقف به أمام رزقه وكسبه وحسابه وجزائه، وفي زحمة التّجمع والاختلاط، وفي موقف الفصل والعزل والتّميز والانفراد... كلّ ذلك في إيقاعات قويّة وفواصل متلاحقة، وضربات كأنّها المطارق (قل... قل... قل...) كلّ قولة

منها تدمغ بالحجّة، وتصدع بالبرهان في قوة وسلطان، توحي بالمشهد الخاشع الواجف المرهوب العسير... ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:22] التي تبيّن عجز المعبودين من دون الله حين لا شفاعة لهم؛ فهذه الآية تبيّن موقف الشّفاعة المرهوب، وصورة الملائكة فيه بين يدي ربهم، فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنّهم شركاء لله شفعاء في من يشرك بالله! فهذا هو الإيقاع الأوّل؛ في ذلك المشهد الخاشع الواجف المرهوب العسير... ويليه الإيقاع الثاني؛ عن الرّزق الذي يستمتعون به، ويغفلون عن مصدره الدّال على وحدة الخالق الرّازق، الباسط القابض، الذي ليس له شريك ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(24) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(25)﴾ [سبأ:24-25] ومنه كذلك الإيقاع الثالث؛ الذي يقف كل قلب أمام عمله وتبعته في أدب كذلك وقصد وإنصاف ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25)﴾ ولعلّ هذا كان رداً على اتّهام المشركين بأن الرسول (ص) ومن معه هم المخطئون الجارمون! وقد كانوا يسمونهم (الصابئين) أي المرتدين عن دين الآباء والأجداد. وذلك كما يقع من أهل الباطل أن يتهموا أهل الحق بالضلال! في تبجح وفي غير ما استحياء! ثم الإيقاع الرابع ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26)﴾ ففي أوّل الأمر يجمع الله بين أهل الحق وأهل الباطل، ليلتقي الحق بالباطل وجهاً لوجه وليدعو أهل الحق إلى حقهم ويعالج الدعاة دعوتهم. وفي أوّل الأمر تختلط الأمور وتتشابك ويصطرع الحق والباطل. ثمّ يأتي الإيقاع الأخير شبيهاً بالإيقاع الأول في التّحدي عن الشركاء المزعومين ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)﴾ وفي السؤال استنكار واستخفاف ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أروني إياهم من هم؟ وما هم؟ وما قيمتهم؟ وما صفتهم؟ وما مكانهم؟ وبأي شيء استحقوا منكم هذه الدعوى...؟ وكلّها تشي بالاستنكار والاستخفاف ثم

الإنكار في ردع وتأنيب (كلاّ) فما هم بشركاء، وما له سبحانه من شركاء ﴿بل هو الله العزيز الحكيم﴾ ومن صفاته لا يكون هؤلاء شركاء له، ولا يكون له على الإطلاق شريك وبهذا ينتهي ذلك الشوط القصي، وتلك الإيقاعات العنيفة العميقة في هيكل الكون الهائل، وفي موقف الشفاعة المرهوب، وفي مصطرع الحق والباطل، وفي أعماق النفوس وأغوار القلوب.[28] ومن روافد التّنغيم في هذه السورة: المُشاكلة؛ فالمشاكلة احتلّت مساحة كبيرة من نصوص القرآن الكريم فبوصفها بنية إيقاعية تعدّ من أسمى ظواهر البديع في الخطاب القرآني والأدبي. ومدار المشاكلة على المعنى، وإيقاع اللّفظ دال على ذلك وتسمية المشاكلة سواء كانت لفظية أو تقريرية محسّنا بديعيا معنويا إنّما هو بالنّظر إلى أنّها لها تعلّق بالمعنى المصاحب، إذ هي ذكر ذلك المعنى بلفظ غيره للصّحبة بين المعنيين فتلزم الصّحبة بين اللّفظين. وللماشكلة أوجها متعدّدة في الاستخدام اللغوي والدّلالي تدلّ على قدرة صوتية وإيقاعية هامّة في توليد الشّحنة الانفعالية عند تلقي النّص، وهذه خاصية جمالية انفرد بها التّعبير القرآني في تعدّد سياقات بنية الإيقاع الافرادي ومن مواقع المشاكلة في القرآن الكريم التي نقع عليها تكون في مواقع مبدأ الجزاء من حسب العمل، لكن ليس كلّ ما في القرآن الكريم من قبيل مبدأ الجزاء، فقد تأتي المشاكلة ولا جزاء فيها، وقد تأتي للتهكّم كقوله تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: 16] قال **الزّمخشري** في **الكشّاف:** "وتسمية البدل جنّتين لأجل المشاكلة وفيه ضرب من التّهكّم".[29] فالأكل الخمط لا يكون في الجنّة بحال ولا الثل ولا السّدر وكلّ ذلك جاء على وجه المشاكلة والوقوع في الصّحبة وقوعا حقيقيا، وقد تبيّن شكل من أشكال الإيقاع من التّناظر والتّشابه بين مفردات التّعبير القرآني.[30] ونلحظ إضافة إلى تنوّع إيقاع السياق إيقاع الفواصل الصّوتيّة في قوله تعالى ﴿ويوم يحشرهم جميعاً، ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم. بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون. فاليوم لا يملك بعضكم

لبعض نفعاً ولا ضراً، ونقول للذين ظلموا: ذوقوا عذاب النّار التي كنتم بها تكذبون﴾ [سبأ: 40-42] يختم سبحانه في هذه السورة بمشهد الكفّار محشورين يوم القيامة مشهد معروض يتغيّر فيه السّياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة. بتوجيه القول إلى الكفّار بالتأنيب والتبكيت[31]. يقول سبحانه ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (43) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (44)﴾ [سبأ:43-44] فهذا الشوط الأخير في السورة يبدأ بالحديث عن المشركين ومقولاتهم عن النبي(ص) وعن القرآن الذي جاء به؛ ويذكرهم بما وقع لأمثالهم ويريهم مصرع الغابرين الذين أخذهم النّكير في الدنيا وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى، فقوله سبحانه ﴿...وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم: إنّ هذا إلا سحر مبين﴾ كلام مؤثّر يزلزل القلوب، فلم يكفي الكفّار أن يقولوا: إنّه مفترى، فحاولوا إذا أن يعلّلوا وقعه القاهر في القلوب، فقالوا: إنّه سحر مبين! فهي سلسلة من الاتهامات، حلقة بعد حلقة يواجهون بها الآيات البيّنات كي يحولوا بينها وبين القلوب، ولا دليل لهم على دعواهم. وقد كشف القرآن أمرهم، وهو يقرر أنهم أميّون لم يؤتوا من قبل كتاباً يقيسون به الكتب ويعرفون به الوحي؛ فيفتوا بأنّ ما جاءهم اليوم ليس كتاباً وليس وحياً، وليس من عند الله، ولم يرسل إليهم من قبل رسول فهم يهرفون إذا بما لا علم لهم به ويدعون ما ليس يعلمون﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ و﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(45) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(46)﴾ ويلمس قلوبهم بتذكيرهم بمصارع الذين كذبوا من قبل وهم لم يؤتوا معشار ما أوتي أولئك الغابرون من علم، ومن مال، ومن قوة، ومن تعمير. فلمّا كذّبوا الرسل أخذهم النّكير، أي الهجوم المدوي المنكر الشّديد ﴿وكذب

الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير...﴾ ولقد كان النّكير عليهم مدمراً مهلكاً، وكانت قريش تعرف مصارع بعضهم في الجزيرة فهذا التّذكير يكفي، وهذا السّؤال التّهكمي: فكيف كان نكير؟ سؤال موح يلمس قلوب المخاطبين، وهم يعرفون كيف كان ذلك النّكير! أمّا قوله تعالى ﴿قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلاّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ [سبأ:46] ذلك هو الإيقاع الأوّل المؤثّر الموحي يتبعه الإيقاع الثاني ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سبأ:47] فقد دعاهم في المرة الأولى إلى التفكر الهادئ البريء- ما بصاحبكم من جنّة- ويدعوهم هنا أن يفكروا ويسألوا أنفسهم عما يدعوه إلى القيام بإنذارهم بين يدي عذاب شديد، ما مصلحته؟ ما بواعثه؟ ماذا يعود عليه؟ ويأمره أن يلمس منطقهم ويوقظ وجدانهم إلى هذه الحقيقة في صورة موحية ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ ويشتدّ الإيقاع الثالث وتقصر خطاه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ:48] وهذا الذي جئتكم به هو الحق. الحق القوي الذي يقذف به الله، فمن ذا يقف للحق الذي يقذف به الله؟ إنّه تعبير مصوّر مجسّم متحرك. وكأنما الحق قذيفة تصدع وتخرق وتنفذ ولا يقف لها أحد في طريق، يقذف بها الله -علاّم الغيوب- فهو يقذف بها عن علم، ويوجهها على علم، ولا يخفى عليه هدف، ولا تغيب عنه غاية، ولا يقف للحق الذي يقذف به معترض ولا سد يعوق، فالطريق أمامه مكشوف ليس فيه مستور! ويتلوه الإيقاع الرابع في مثل عنفه وسرعته ﴿قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:49] جاء هذا الحق في صورة من صوره في الرسالة، وفي قرآنها، وفي منهجها المستقيم، جاء الحق، جاء بقوته جاء بدفعته، جاء باستعلائه وسيطرته ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ فقد انتهى أمره وما عادت له حياة، وما عاد له مجال، وقد تقرّر مصيره وعرف أنّه إلى زوال، إنّه الإيقاع المزلزل الذي يشعر من يسمعه أنّ القضاء المبرم قد قضى، وأنّه لم يعد هناك مجال لشيء آخر يقال، والإيقاع الأخير يتجلّى في قوله تبارك ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ

فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:50] وأخيراً يجيء الختام في مشهد من مشاهد القيامة حافل بالحركة العنيفة المترددة بين الدنيا والأخرى. كأنما هو مجال واحد، وهم كرة يتقاذفها السياق في المشهد السريع العنيف ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ(51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ(52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ(53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ(54)﴾ وهكذا تختم السورة في هذا الإيقاع السريع العنيف الشديد، وتختم بمشهد من مشاهد القيامة؛ يثبت القضية التي عليها التركيز والتوكيد في السورة، كما مضى في نهاية كلّ شوط فيها وفي ثناياها، وقد بدأت السورة بهذه القضية وختمت بها هذا الختام العنيف.[32]

2ـ 3- سورة فاطر؛ مكيّة وآياتها (45) وهذه السورة نسق خاص في موضوعها وفي سياقها، فهي أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد، فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها، إيقاعات موحية مؤثّرة تهزّه هزاً، وتوقظه من غفلته ليتأمّل عظمة هذا الوجود، وروعة هذا الكون؛ وليتدبّر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه، المتناثرة في صفحاته؛ وليتذكّر آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته؛ وليتصوّر مصارع الغابرين في الأرض ومشاهدهم يوم القيامة... وهذه السّورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات متتالية الإيقاعات، يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهي كلّها موضوع واحد، كلّها إيقاعات على أوتار القلب البشري، تستمدّ من ينابيع الكون والنّفس والحياة والتّاريخ والبعث فتأخذ على النّفس أقطارها وتهتف بالقلب من كلّ مطلع، إلى الإيمان والخشوع والإذعان، والسمة البارزة الملحوظة في هذه الإيقاعات هي تجميع الخيوط كلّها في يد القدرة المبدعة. وإظهار هذه اليد تحرّك الخيوط كلّها وتجمعها؛ وتقبضها وتبسطها، وتشدّها وترخيها، بلا معقب ولا شريك ولا ظهير، ومنذ ابتداء السورة نلمح هذه السمة البارزة، وهي تطرد إلى ختامها[33]؛ فهذه السورة كما قال **سيّد**

قطب: "شوط واحد متّصل الإيقاعات والحلقات من بدئها إلى نهايتها".[34] فهي سورة قوامها توجيه القلب إلى الله، وإيقاظه لرؤية آلائه، واستشعار رحمته وفضله وتملي بدائع صنعه في خلقه، وامتلاء الحس بهذه البدائع، وفيضه بالتّسبيح والحمد والابتهال؛ تبدأ بتقديم الحمد لله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:01] ويتلو حمد الله ذكر صفته الدالة على الخلق والإبداع فهذه الصّفة توقع على القلوب وعلى أوتاره تلك الإيقاعات الموقظة الموحية، التي توقعها على القلوب الموصولة بذكر الله، المتيقظة لآثار يده المبدعة في هذا الوجود. وذلك أنّ الألفة قد أفقدتنا الوهلة والرّوعة التي يحسها القلب، وهو ينظر إلى مثل هذه البدائع للمرة الأولى،[35] أمّا الآية الثّانية من هذه السورة في قوله ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:02] فهي صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى حين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعا، يقول **سيّد قطب** في قوله تعالى ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ : "أيّة طمأنينة ؟ وأيّ قرار؟ وأيّ وضوح في التّصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير؟ أيّة واحدة ترسم للحياة صورة جديدة؛ وتنشئ في الشّعور قيماً لهذه الحياة ثابتة؛ وموازين لا تهتزّ ولا تتأرجح ولا تتأثّر بالمؤثرات كلّها، ذهبت أم جاءت، كبرت أم صغرت جلت أم هانت، كان مصدرها النّاس أو الأحداث أو الأشياء! صورة واحدة لو استقرّت في قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات، ولو تضافر عليها الإنس والجن، وهم لا يفتحون رحمة الله حين يمسكها، ولا يمسكونها حين يفتحها، وهو العزيز الحكيم"[36]. أمّا وقع قوله تعالى على النّفوس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 03] فلا يمكن وصفه إلاّ كما وصفها **سيّد قطب** بقوله: "ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه

الآية، لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجهد وضيق ومشقة واجهتني في لحظة جفاف روحي, وشقاء نفسي، وضيق بضائقة وعسر من مشقة واجهتني في ذات اللحظة، ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها، وأن تسكب حقيقتها في روحي؛ كأنّما هي رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه في كياني، حقيقة أذوقها لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها، تقدّم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا، وقد قرأتها من قبل كثيراً، ومررت بها من قبل كثيراً، ولكنّها اللّحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة وتقول: هأنذا نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون! إنّه لم يتغير شيء ممّا حولي، ولكن لقد تغيّر كلّ شيء في حسي! إنّها نعمة ضخمة أن يتفتّح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمّنها هذه الآية، نعمة يتذوّقها الإنسان ويعيشها؛ ولكنّه قلّما يقدر على تصويره، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة، وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتمّ هذا كلّه في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرّت بي في حياتي، وهأنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كلّ قيد ومن كلّ كرب ومن كلّ ضيق وأنا في مكاني! إنّها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته، آية من القرآن تفتح كوة من النور، وتفجر ينبوعاً من الرحمة، وتشق طريقاً ممهوداً إلى الرضا والثقة والطمأنينة والراحة في ومضة عين وفي نبضة قلب وفي خفقة جنان اللهم حمداً لك، اللهم منزل هذا القرآن، هدى ورحمة للمؤمنين... فهذه الإيقاعات الثلاثة القوية العميقة هي المقطع الأول في السورة، وفي كلّ منها صورة تخلق الإنسان خلقاً جديداً حين تستقرّ في ضميره على حقيقتها العميقة، وهي في مجموعها متكاملة متناسقة في شتى الاتجاهات".[37] أمّا الإيقاع في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

غَفُورٌ(28)﴾[فاطر:27 – 28] فيتأتّى من التّنويع والتّلوين في ذكر خلق الله؛ فهذه اللّفتة العجيبة التي تطوف في الأرض كلّها، تُتبع فيها الألوان والأصباغ في كلّ عوالمها، في الثّمرات وفي الجبال، وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً، تدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً.[38]

أمّا قوله سبحانه ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(35) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ(37) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(38)﴾ [فاطر:34–38] فالإيقاع فيه يتأتّى أوّلا: من الألفاظ المختارة لتتّسق بجرسها وإيقاعها مع هذا الجو الحاني الرحيم لأنّ الجوّ كلّه يسر وراحة ونعيم؛ مثل كلمة (الحَزَن) بالتّسهيل والتّخفيف؛ فهذه الكلمة تعتبر من أمثلة الآيات الكريمة التي تعتبر شواهد على مماثلة جرس الألفاظ ونغمها للدّلالات، وإيحائها بالمعاني ومناسبتها للسياق والتي تدلّ على اختيار الألفاظ في النّسق القرآني اختيارا – معنى وجرس– ممّا يجعل من المحال على أيّة لفظة في اللّغة أن تحلّ محلّ اللّفظة القرآنيّة، وأن تؤدّي ما تؤدّيه كما تحمله من دقّة في المعنى وإيحاء في الجرس والنّغم، فإنّنا نحسّ في هذه الآية الكريمة أنّ الفتحات المتتابعة على أحرف لفظة (الحَزَن) تضفي على جرسها خفّة وسهولة تتناسب مع الجو الرّحيم الذي منحهم لهم الله تعالى مثلما وصفه **سيّد قطب** في قوله: "والإيقاع الموسيقي للتّعبير كلّه هادئ ناعم رتيب"[39]. ومثل كلمة (يصطرخون) بصوتها الغليظ الذي يطرق أسماعنا، صوت مختلط الأصداء، متناوح من شتى الأرجاء؛ إنّه صوت المنبوذين في جهنّم يصطرخون؛ فجرس اللّفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعاً

ولتكن لنا وقفة مع هذا اللّفظ ذا الجرس المشعر بالمعنى في القرآن الكريم لبيان وتحليل بواعث هذا الجرس، فعندما نتتبّع الألفاظ التي تتسم بسمت الجرس نلحظ أنّها ربّما اكتسبت جرسها وقدرتها على حكاية معناها من مخارج وصفات حروفها كلفظ (يصطرخون) في قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: 37] فإنّ لفظ (يصطرخون) مثلما وصفه **سيّد قطب** في مؤلّفه التّصور الفنّي في القرآن: "يحكي بجرسه صراخا غليظا مختلفاً آتيا من نواحي مختلفة منبعثا من حناجر مكتظّة بالأصوات الخشنة"[40]. وهذا يصوّر ألم العذاب الذي يكتوون به، ولعلّ لنا مدخل لصفات الحروف في جرس الكلمة بالوقوف على الفرق بين (صرخ) و(اصطرخ) ولماذا عبّر القرآن بالثّانية دون الأولى؛ فلا توجد في المعاجم فرقا بين (الصّراخ) و(الاصطراخ) فكلاهما الاستغاثة بصوت مرتفع، بيد أنّ (اصطرخ) على وزن (افتعل) والافتعال يدلّ على جهد أكبر وتعب أشد من طول الصراخ، وهذا ما أدركه **أبو السعود** في كتابه **إرشاد العقل السّليم** بقوله: "الاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته"[41]. فالإحساس بالتّعب نتيجة استمرار الصّراخ نراه في (اصطرخ) ولا نراه في (صرخ) وذلك من زيادة حرف (الطاء) في الأولى وهو حرف قوي من صفاته الشدّة، لأنّ مجرى الهواء ينغلق انغلاقا تاما عند النّطق به منفجرا من مخرجه، وتسمعه يحكي بقوّته مع سائر حروف الكلمة صوت المستغيث المكظوم المختلطة بأصوات أمثاله، ومن الملاحظ أنّ (اصطرخ) أثقل على السّمع من (صرخ) فالتّعبير بـِ لفظ (يصطرخون) على الرّغم من ثقله للدّلالة على أنّ ما يصدر منهم إنّما هي أصوات بشعّة منكرة لا يمكن إغفال دور الجرس في الإشعار بكلّ هذا فيه؛ فهي بجرسها الغليظ ترسم في الخيال صورة غلظ الصّراخ المختلط المنبعث من كلّ مكان ومن حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما نستشف من النّسق الذي انتظمت فيه هذه اللّفظة ظلّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به. وبذلك يكون جرس هذه اللّفظة قد ساعد على إيصال صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون مثلما قال

تمّام حسان: "ثمّ أنظر إلى ما يوحيه تعزيز التّفخيم من الإحساس بالمبالغة في الحدث أو في الصّفة في قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ فكأنّ ارتفاع أصواتهم بالصّراخ ومشاركتهم جميعا فيه. وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يعبّر عنه بالفعل المجرّد فيقال مثلا ﴿وهم يَصرُخُونَ فيها﴾ فجاءت تاء الافتعال لتدلّ على المبالغة في إيقاع الحدث، وقد قُصِد لها أن تجاور الصاد المطبقة فتتحوّل بالمجاورة إلى التفخيم، ليكون في تفخيمها فضل المبالغة في إيقاع الفعل "[42]. فتكون هذه الآية الكريمة بألفاظها الصّاخبة حقيقة من أصدق الآيات البيّنات التي تُظهر تميّز القرآن الكريم بتمام التّلاؤم بين طبيعة المواقف والأغراض وبين التّعبير عنها مثلا من حيث الوعيد والتّهديد حيث نجد البناء التعبيري قويا بجملته وتفصيله إذ نجد الأصوات زاجرة زجر ما تحمله من معاني، على العكس من ذلك في مواقف اللّين والوداعة. وثانيا: الإيقاع في هذه السورة الكريمة مصدره من فواصل الآيات، فهذه السورة يسود فيها التّباين بين الفواصل، والذي يسود سور كثيرة من القرآن منها: فاطر، الصفات، ص، الزّمر، فصلت. والفاصلة في هذه السورة فيها المدّ المعتاد بالتّنويع بين حروف العلّة قبل الحرف الأخير؛ إذ نجد آية فاصلة صورتها فعلا مضارعا من الأفعال الخمسة مسندا إلى واو الجماعة في حالة الرّفع (توفكون) ونجد فواصل أخرى في السورة نفسها ليست على هذه الصورة، مثل صيغة (فعيل) أو (فعول) مثل (قدير، الحكيم، قطمير، جديد عزيز، المصير، البصير، شكور...) وهذه الألوان تغلب على سورة البقرة أطول سور القرآن. وثالثا: من فواصل الالتفات والعدول عند الإشارة إلى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم، لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفّف عنهم من عذابها! كذلك نجزي كلّ كفور﴾[43]... أمّا المقطع الأخير من هذه السورة [من الآية 39 إلى 45] فإنّه يشتمل عل جولات واسعة المدى كذلك، ولمسات للقلب وإيحاءات شتّى، تختتم بإيقاع ختامي موقظ رهيب من قوله سبحانه ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. **وفيما يتضّح فيه** التّنغيم في السورة:

الاستفهام وما ورد باستعمال الهمزة، حيث لم يصرّح فيه بخبر المبتدأ اعتمادا على التّنغيم ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:08][44]

2ــ 4- **سورة يس**؛ هذه السورة مكيّة وهي ذات فواصل قصيرة، وإيقاعات سريعة، ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون. وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص، فتتلاحق إيقاعاتها، وتدقّ على الحس دقات متوالية يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها. وهي متنوّعة وموحية وعميقة الآثار. والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكيّة. وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة. فهي تتعرّض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها ﴿يس(1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(3) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(4) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(5)...﴾ [يس:01-05] وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه، وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ(69) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(70)﴾ [يس:69-70] كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية، فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(22)﴾ [يس:21-24] وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ(74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ(75)﴾ [يس:74-75] والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور وهي تتردّد في مواضع

كثيرة في السورة، حيث تجيء في أوّلها ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس:12] وتأتي في قصة أصحاب القرية، فيما وقع للرجل المؤمن، وقد كان جزاؤها العاجل في السياق ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)﴾ [يس:26-27] ثم ترد في وسط السورة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(48) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(50)﴾[يس:48-50] ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة، وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)﴾ [يس:78-79] فهذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها تتكرّر في هذه السور المكية ولكنّها تعرض في كل مرة من زاوية معينة، تحت ضوء معين، مصحوبة بمؤثّرات تناسب جوّها، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها، وهذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة – بصفة خاصة- ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها ومن مصارع الغابرين على مدار القرون، ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية؛ مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة، ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام ومشهد الشمس تجري لمستقر لها، ومشهد القمر يتدرج في منازله حتى يعود كالعرجون القديم، ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين، ومشهد الأنعام مسخّرة للآدميّين، ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبين! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون! وإلى جوار هذه المشاهد مؤثّرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه؛ منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ(8) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(9)﴾ [يس:08-09] ومنها صورة نفوسهم في سرهم

وفي علانيتهم مكشوفة لعلم الله لا يداريها منه ستار ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:82] وكلّها مؤثّرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود[45]. ولنتدبّر أمر الإيقاع في هذه السورة الكريمة، نضرب مثلا من قوله تعالى في هذه الآية حين يتفاوت التّأكيد في الكلام بحسب الدّاعي وقوّة الحاجة إليه، فقوّة الإنكار مثلا نلحظُها في مخاطبة رسل سيدنا عيسى عليه السّلام أصحاب القرية ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ(13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16)﴾ [يس: 13– 16] فهذا من رشيق الكلام وبديعه، حاز من البلاغة على نكت كثيرة ومحاسن جمّة، فبعد أن كذّب أصحاب القرية الرّسولين خاطبهم الثّلاثة فقالوا: إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، فأكدوا لهم الكلام بإنّ واسمية الجملة، ولمّا اشتدّ الإنكار قالوا لهم: رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، فأكّدوا الكلام بإنّ واللام واسمية الجملة فكثرت التّأكيدات لمبالغة المُخاطَبين في الإنكار، وقد ورد في الإتقان أنّ إذا اجتمعت اللام كانت بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرّات لأنّ (إنّ) أفادت التّكرير مرّتين، فإذا دخلت (اللام) صار ثلاثا وورد فيه أيضا أنّ **ابن جنّي** قال: "كلّ حرف زيد في كلام العرب قائم مقام إعادة الجملة مرّة أخرى".[46] فمن محاسن الكلام وروعته مجيء هذه المؤكدات الكثيرة التي طلبها المقام، وبها يستقيم المعنى وترتبط الجملة مع بعضها ولو أسقط منها واحد يصبح الكلام مفككا ولا يتحقّق المعنى[47]. ومن آيات الله في تسخير البحار والسفن للناس ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(41) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(42) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ(43) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ(44)﴾ [يس:41–44] ففي سياق هذه الآية مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها، والفلك المشحون السابح في الماء يحمل ذرية بني آدم! مناسبة في الشكل، ومناسبة في الحركة

ومناسبة في تسخير هذا وذلك بأمر الله، وحفظه بقدرته في السماوات والأرض سواء، وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبرونها، بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبراً لو فتحوا قلوبهم للآيات[48]. وفي قوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83] فعند هذا المقطع يجيء الإيقاع الأخير في السورة الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود، وخالق الوجود في جرس لفظة (ملكوت) فلفظة (ملكوت) بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة، علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود، والسيطرة القابضة على كل شيء من هذا المملوك[49]. إنّه الإيقاع الختامي المناسب لهذه الجولة الهائلة، وللسورة كلّها ولموضوعاتها المتعلّقة بهذه الحقيقة الكبيرة، التي يندرج فيها كلّ تفصيل، ومن مميّزات هذه السورة تنوّع الفاصلة فيها بين الفعل المضارع المرفوع المسند إلى واوا الجماعة مثل (يؤمنون، يبصرون...) وما يقوم مقام ذلك وهو اسم الفاعل في صيغة جمع المذكر السالم (غافلون...) واسم المفعول (مقمحون...) ووجود فواصل أخرى في السورة نفسها ليست على هذه الصورة وهي كلمات في بنيتها المد والنون، أي ليس شيئا طارئا عليها كالمضارع المذكور وأسماء الفاعلين والمفعولين ومن ذلك ألفاظ مثل (مبين، حين) فهذه الكلمات ذات المد والنون في بنيتها تعطي الإيقاع نفسه الذي تعطيه أسماء الفاعلين المجموعة جمعا سالما، ووجود أيضا فواصل أخرى في السورة نفسها ليست على هذه الصورة، مثل صيغة (فَعِيل) على صيغة المبالغة (مستقيمٍ، كريمٍ، رحيمٍ...).

2ـ 5- سورة الصافات؛ مكيّة وآياتها (182) وهذه السورة المكية – كسابقتها – قصيرة الفواصل سريعة الإيقاع، كثيرة المشاهد والمواقف، متنوعة الصور والظلال، عميقة المؤثرات، وبعضها عنيف الوقع، عنيف التّأثير. وهي تستهدف – كسائر السور المكية – بناء العقيدة في النّفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كلّ صوره وأشكاله، ولكنّها – بصفة خاصة – تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى، والمشاهد التي تحويها هذه

السورة ذات طابع فريد حقاً في عرض القصص ومواقفه وإيحاءاته، وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل عليهما السلام، وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي تهز القلوب هزاً عميقاً عنيفاً، فالإيقاع الموسيقي في السورة هو ذو طابع مميّز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة [50]. ويعود كثرة النّغم في كلّ ما ذكرناه إلى تنويع الإيقاع؛ ففي اللّغة العربيّة يتم التعبير عن المعاني والأحداث بصيغ متنوّعة كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة... وهذه الألفاظ المشتقّة قد تدور في مواضع متقاربة من نص ما محدثة ألوانا من الجناس الذي هو ظاهرة إيقاعيّة، وعليه مثلا سنجد موسيقى في توارد اسم الفاعل من الثّلاثي على سبيل المثال على وزن واحد هو (فاعل) في قوله تعالى ﴿وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ(7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(8) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(10)﴾ [الصافات:8 –10] وعندما تتكرّر الأصوات المكرّرة في الآية يصدر نغم من جرّاء ترديد أصواتها وإيقاع من تساوي زمن النّطق بها، فتضفي على النّظم نغما متزايدا يضاف إلى التّوكيد الذي يراد من ذلك التّكرار، وسنتناول مثالا من هذا النّوع من التّكرار لأهمّيّته في قوله سبحانه ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ(28) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ(30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ(31) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ(32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ(35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ(36) بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ(37)﴾ [الصافات: 28 –37] إذ تكرّرت المقاطع الصّوتيّة أو إيقاع مقطعها الصّوتي الأخير في نهايات الفواصل المتمثّل في المقطع الطويل (حرف المدِّ) حيث نجد هذه السورة تنتهي في أغلب آياتها بمقاطع طويلة بحرف المدّ (ياء ونون) أو (واو ونون). وهناك أيضا صورة من تكرار توازن الإيقاع الفواصل؛ التّوازن: توازن الفواصل عند البلاغيين يعني

اتّفاق الفواصل في الوزن دون الرّوي، وإن كان تماثل الفواصل واتّفاقهما في الوزن والرّوي يكسبهما ثراء موسيقيا فإنّ في التّنويع والتّغيير وانتقال الفواصل من التّوازي إلى التّوازن تنشيط للنّفس وإيقاظ للذّهن وإدخال لعنصر المفاجأة المثيرة عندما يتوقّع السّامع التّماثل في الفواصل وإذا بها تحيد وتحقق تنوّعا نغميا له لذّته الخاصة. وقد فصّل **ابن الأثير** في مصنّفه **المثل السّائر** الكلام عن الموازنة فقال: "هي أن تكون ألفاظ التّواصل في الكلام المنقور متساوية في الوزن... وللكلام بذلك طراوة وسببه الاعتدال، لأنّه مطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النّفس موقع الاستحسان، وهذا لا مراء فيه لوضوحه"[51]. وممّا ورد من فواصل القرآن متوازية مثل قوله تعالى في ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ(117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(118)﴾ [الصافات: 117 – 118] وللتدليل أكثر على مواطن هذا الإيقاع في هذه السورة نضرب مثلا من قوله جلّ جلاله في هذه الآيات البيّنات، حيث المقاطع الصوتية المتنوعة والأثر التنغيمي الكبير الذي يحدثه حسن توزيع المقاطع في سياق الآيات الكريمة ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(41) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ(42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43)﴾ [الصافات: 40 – 43] وفي قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ(124) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِين (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ(130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(132)﴾ [الصفات:123 – 132] فالناحية الفنية التي تخصّ الإيقاع في الآية تأتّت من: مراعاة الفاصلة في(إلياسين) فقد رعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقي في إرجاع اسم إلياس بصيغة (إلياسين) على طريقة القرآن في ملاحظة تناسق الإيقاع في التعبير[52]. **و**توازن الإيقاع يتأتّى أيضا من خلال الإطار الصوتي الموحد الذي يحتضن المعاني المتنوعة، وما لذلك التوازن من جاذبية خاصة في قوله

تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ(130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(132) وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ (141)﴾[الصافات: 128 – 141].

2ـ 6– **سورة ص:** مكيّة وآياتها (88) تعالج موضوعاتها قضايا متعدّدة؛ التّوحيد، الوحي والحساب... ويمكن تقسيمها إلى أشواط أربعة تجري هذا المجرى؛ تجول بالقلب البشري في مصارع الغابرين، الذين طغوا وتجبّروا واستعلوا على الرسل والمؤمنين، ثم انتهوا إلى الهزيمة والدمار والخذلان ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ(11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ(12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ(13) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14)﴾ [ص:11–14] تعرض على القلب البشري هذه الصفحة، صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطغاة المكذبين، ثم تعرض بإزائها صفحة العز، والتمكين والرحمة والرعاية لعباد الله المختارين، في قصص داود وسليمان وأيوب هذا وذلك في واقع الأرض... ثم تطوف بهذا القلب في يوم القيامة وما وراءه من صور النعيم والرضوان، وصور الجحيم والغضب. حيث يرى لوناً آخر ممّا يلقاه الفريقان في دار البقاء. بعدما لقيّاه في دار الفناء... والجولة الأخيرة في قصة البشرية الأولى، وقصة الحسد والغواية من العدو الأول، الذي يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار، وهم غافلون. كذلك ترد في ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشري، وتوقظه إلى الحق الكامن في بناء السماء والأرض، وأنّه الحق الذي يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس في الأرض، فهذا من ذلك ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ...﴾ [ص:27] وهي لفتة لها في القرآن نظائر، وهي حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التي هي مادة القرآن المكي الأصيلة [53]. وفي هذه السورة القرآنيّة إيقاع مدوّي عميق نتحسّسه في ختام السورة خاصة؛ فهو

الختام الذي يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التي تعالجها: وهو الإيقاع المدوي العميق، الموحي بضخامة ما سيكون.[54] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:88] ومن أسباب المؤثّرات التّنغيميّة في هذه السورة: التّكرار الإيقاعي المعتمد على تكرار صيغ المبالغة مثل: أوّاب، الغفّار، القهّار وسنجد موسيقى كذلك في توارد ألفاظ مثل تكرار صيغة المصدر؛ الأحزاب الخطاب، والحجاب... وتكرار صيغة الجمع؛ الأخيار، وهذا ما أعطى نغما جميلا – وقد اعتمدت الفواصل القرآنيّة على هذا الموروث، وهذه الإمكانات المتنوّعة للعربيّة– بصورة جميلة مؤثّرة مثيرة للعقل والوجدان تربية للحس الجمالي للإنسان وما عليه إلاّ أن يفتح أذنه وقلبه ليستقبل ذلك الجمال وتلكم البلاغة العالية[55].

2ــ 7– **سورة الزّمر:** مكيّة وآياتها (75) يقول **سيّد قطب** في توافق مضمون وإيقاع هذه السورة: "هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد وهي تطوف بالقلب البشري في جولات متعاقبة؛ وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة؛ وتهزه هزاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه حقيقة التّوحيد وتمكنها، وتنفي عنه كلّ شبهة وكلّ ظل يشوب هذه الحقيقة، ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متّصل من بدئها إلى ختامها؛ يعرض في صور شتّى، ومنذ افتتاح السورة تبرز هذه القضية الواحدة التي تكاد السورة تقتصر على علاجها ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر:01] إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا لله الدين الخالص إلخ... وتتردّد في مقاطعها على فترات متقاربة فيها إمّا نصاً وإمّا مفهوماً، نصاً كقوله ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ(12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي(14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(15)﴾ [الزمر:11–15] أو قوله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ(64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِنْ الشَّاكِرِينَ(66)﴾ [الزمر:64–66] ومفهوماً كقوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ

وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:29] أو قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:32] وللوقوف على أهميّة الآداء الصّوتي في هذه الصورة نضرب مثلا بقوله تعالى في﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الآية: 68] إذ تجد قوّة الأداء مستمدّة من شدّة الحروف، وقوّة الكلمات وتتابع المقاطع القصيرة وكثرتها حتّى يشعر سرعة أدائها بسرعة النّفخ والصّعق (فصعق) ثمّ النّفخ والقيام الذّاهل في (ينظرون). ومن المؤثّرات الإيقاعيّة في السّورة والتي تحدث وقعا في نفس السامع صورة التّنغيم المتأتيّة من قلب ياء المتكلّم ألفاً، في قوله تعالى ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزّمر:56] فالألف في (حَسْرَتى) إنّما هي بدل من ياء (حسرتي) أبدلت (الياء) ألفا هربا إلى خفّة الألف من ثقل (الياء) **ومن** أثر التّنغيم في الاستفهام في قوله تبارك ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزّمر:22] ورد باستعمال الهمزة للاستفهام ولم يصرّح فيها بخبر المبتدأ اعتمادا على التّنغيم.

2ــ 8- **سورة غافر**؛ مكيّة وآياتها 85؛ تعالج هذه السورة قضايا عدّة، قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر... وجو السورة كلّه كأنّه جو معركة؛ معركة بين الحق والباطل, وبين الإيمان والطغيان وبين المتكبّرين المتجبّرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل، ويتمثّل خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين! وذلك الجو يتمثّل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثّل في عرض مشاهد القيامة التي تعرض في صوّرها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كلّه مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة، ولعلّه ممّا يتّفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص؛ غافر الذنب، وقابل التوب وشديد العقاب، وذي الطول، ولا إله إلاّ هو وإليه المصير، فكأنّما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع، مستقرة المقاطع ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقي! كذلك نجد كلمة؛ البأس، وبأس الله

وبأسنا مكرّرة تتردّد في مواضع متفرّقة من السورة، وهناك غيرها من ألفاظ الشّدة والعنف بلفظها أو بمعناها، وعلى العموم فإنّ السورة كلّها تبدو وكأنّها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثّر فيه بعنف، وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين، وقد ترق أحياناً فتتحوّل إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله، يدعون ربّهم ليتكرّم على عباده المؤمنين أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية.[56] كما نجد في سيّاق هذه السورة بعض صفات الله الذي نزّل هذا الكتاب وهي مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلّها وقضاياها ﴿العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير﴾ [غافر:02-03] العزة، والعلم، وغفران الذنب، وقبول التوبة وشدة العقاب، والفضل والإنعام، ووحدانية الألوهية، ووحدانية المرجع والمصير. وكلّ موضوعات السورة تتعلّق بهذه المعاني، التي جاءت في مطلع السورة، والتي سيقت في إيقاعات ثابتة الجرس، قويّة التّركيب، توحي بالاستقرار والثّبات والرّسوخ[57]. كما في قوله تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)﴾ [غافر:32-33] وكأنّه يطرق على قلوب الكفّار طرقة أخرى، وهو يذكرهم بيوم آخر من أيام الله. يوم القيامة (يوم التّناد) فالتّنادي واقع في صور شتّى، وتسميته (يوم التّناد) تلقي عليه ظلّ التّصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصور يوم زحام وخصام. وتتفّق كذلك مع قول الرّجل المؤمن ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنّم أو محاولتهم الفرار، وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبّرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان![58] وفي قوله تعالى في ختام هذه السورة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(82) فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ

مُشْرِكِينَ(84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)﴾ [غافر:82 – 85] إذ يجيء إيقاع قوي عند لفت أنظار الكفار للاعتبار من مصارع وعند الاستفهام ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ؟﴾ عندما يسأل وينشط الكفّار للسير في الأرض، بعين مفتوحة، وقلب بصير لينظروا ويتدّبروا ما كان في الأرض قبلهم وعندما يصف حال الذين من قبلهم؛ لتتمّ العبرة ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ﴾ وعند الاستهزاء ﴿الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وذكر العاقبة والجزاء ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ وعلى هذا المشهد العنيف، مشهد بأس الله يأخذ المكذبين. ومشهدهم يستغيثون، ويفزعون، ويعلنون كلمة الإذعان والتسليم تختم السورة. فيتناسق هذا الختام مع جوّها وظلّها وموضوعها الأصيل.[59]

ونضرب أمثلة من إيقاعات هذه السورة التي تشبه المطارق، والتي تظهر الفواصل بصورة جليّة بليغة، وإن كانت فواصل القرآن كلّها بلاغة وحكمة لأنّها طريق لإفهام المعاني التي يُحتاج إليها في أحسن صورة يدلّ بها عليها من قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر:15] و﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: 32] فالمعتاد في العربيّة أنّ الاسم المحلّى بالألف واللام لا ينون ولكن بعض الفواصل في سورة الأحزاب انتهت بالألف المنوّنة التي يوقف عليها بالفتح، ولأجل إحداث التّوازن الإيقاعي المعتاد تكسر هذه القاعدة، ونجد (الظنونا، والسبيلا) منتهين بهذه الألف نفسها... والكلمات (التناد والتلاق) كلّها حذفت منها الياء لمراعاة الفواصل السابقة واللاحقة في القرآن، والقافية في الشعر ويوقف عليها بالسكون لتحقيق ذلك أيضا، وكل ذلك للعناية بالإيقاع[60]. قال تعالى ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ(73) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74)﴾ [غافر: 71–74] فالفاصلة (يسحبون) من حيث المعنى مرتبطة بالسلاسل ومتصلة بقوله (فِيْ الْحَمِيْمِ) و(يُسْجَرُوْنَ) أفادت التوكيد بالعذاب في جهنم المحرقة؛ لأنّه لو وقفت الآية عند قوله تعالى (ثــُمَّ فِيْ النَّارِ...) لبقي المعنى محتاجًا إلى ثبات واستمرار وحبس وقرار... فجاءت الفاصلة لتوضّح هذا المعنى، كما أنّ الفاصلة

(تُشْرِكُوْنَ) متّصلة بقوله (مِنْ دُوْنِ اللهِ) لبيان الضّلال عن الحقّ والابتعاد عن التّوحيد. ومن ثم وجب الوقف على الفاصلة برغم الاتّصال... ونلاحظ أيضًا الإيقاع الممتد والمستمر الملحوظ في حرف المد في استمراره، وطوله، ثم استقراره، وتمكينه في حرف النّون.

2ـ9- **سورة فصلت**؛ مكيّة وعدد آياتها (54) تعالج هذه السورة قضية العقيدة بحقائقها الأساسية وهي؛ الألوهية الواحدة، والحياة الآخرة، والوحي بالرسالة. يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية. يقول **سيّد قطب** حول مؤثّرات هذه السورة: "هذه القضايا تعرض في حشد من المؤثرات الشعورية العميقة تعرض في المجال الكوني الحافل بالآيات العظام وتعرض في عالم النفس البشرية العجيبة التكوين وتعرض في مجال بشري من مصارع الغابرين، وأخيراً تعرض في جو من مشاهد القيامة وتأثيرها العميق، وبعض هذه المشاهد فريد في صوره ومواقفه يثير الدّهش الشّديد... وهكذا تعرض حقائق العقيدة – في السورة – في هذا الحشد من المؤثرات العميقة. ولعلّ هذا الحشد المنوع من تلك المؤثّرات يصف جو السورة، ويصور طابعها، ويرسم ظلالها، والواقع أنّ القلب يجد أنّه منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثّرات وإيقاعات تجول به في ملكوت السماوات والأرض، وفي أغوار النّفس، وفي مصارع البشر، وفي عالم القيامة، وتوقع على أوتاره إيقاعات شتى كلّها مؤثّر عميق".[61]

الخاتمة: وبعد الانتهاء من عرض بعض صور الإيقاع، وتوضيح بعض الجوانب المهمة من الإعجاز الصوتي والنّغمي في القرآن الكريم، يزداد إدراكنا لقوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرتِيْلاً﴾ لأنّ التّرتيل يبرز الأصوات والطاقات النّغمية ذات الأثر العجيب في النّفس، حيث لا يجد السامع بدا من الإنصات متجاوبا مع ما يسمع ليتدبّر حينا، وليتهيّب ويرتدع حينا آخر أو ليستمتع بالجمال الذي يأسر الروح، والقلب، والعقل حيث يقول سبحان وتعالى لعباده المؤمنين ﴿وإذَا قُرِئَ القُرآنَ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُم تُرْحَمُون﴾ وأنّ اختيار اللّفظ المناسب للصوت المناسب حقلاً يانعاً في القرآن لا للدلالة الصوتية فحسب، بل لجملة من الدلالات الإيحائية واللغوية وتلك ميزة القرآن الكريم في تخير الألفاظ، وتزيد قناعتنا بأنّ

للقرآن نظامه الصوتي الفريد باتساقه وائتلافه في حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته واتّصالاته وسكتاته اتساقًا عجيبًا وائتلافه ائتلافًا رائعًا يسترعي الأسماع ويستهوي النّفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أيّ كلام آخر من منظوم ومنثور... وأنّ من شأن هذا الجمال اللّغوي والنّظام الصوتي أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرّك داعية الإقبال في كلّ إنسان إلى هذا القرآن.

الهوامش:

1- ينظر: الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص27.

2- محمّد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، د ط. د ت، دار المنار، ص374.

3- المرجع نفسه، ص406.

4- عباس حسن، النّحو الوافي، ط8. مصر: 1987، دار المعارف، ج3، ص186.

5- محمد الصغير ميسة، جماليّات الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم، مذكرة ماجستير. الجزائر: 2011-2012، جامعة محمد خيضر بـِ بسكرة، ص13-14.

6- سيّد الأخضر، فواصل الآيات القرآنيّة: دراسة بلاغيّة دلاليّة، ط2. القاهرة: 1430هـ-2009م، مكتبة الآداب، ص16-17.

7- المرجع نفسه، ص21، بتصرف.

8- ينظر: خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، ط1. جدّة: 1984، عالم المعرفة.

9- ينظر: سعد مصلوح، دراسة السمع والكلام، عالم الكتب، القاهرة: 1980.

10- تمّام حسّان البيان في روائع القرآن: دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنّص القرآني، ط1. القاهرة: 1413هـ-1993م، عالم الكتب، ص196.

11- سيّد الأخضر، المرجع نفسه، ص49.

12- تمام حسان، المرجع نفسه، ص273.

13- المرجع نفسه، ص279.

14- ينظر: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت-1391هـ-1972م، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر.

15- سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط15. 1408هـ-1988، دار الشروق، مج5، ص2859.

16- المرجع السّابق، مج5، ص2862.

17- سيّد الأخضر، فواصل الآيات القرآنيّة: دراسة بلاغيّة دلاليّة، ط2. القاهرة: 1430هـ-2009م، مكتبة الآداب ص88، بتصرّف.
18- تمام حسان، المرجع نفسه، ص283، بتصرف.
19- سيّد الأخضر، المرجع نفسه، ص51.
20- تمّام حسّان، المرجع نفسه، ص270.
21- سيّد قطب، المرجع نفسه. مج5، ص2862-2863، بتصرّف.
22- المرجع نفسه، مج5، ص2872، بتصرّف.
23- المرجع نفسه، مج5، ص 2884- 2886، بتصرّف.
24- المرجع نفسه، مج5، ص2889، بتصرّف.
25- المرجع نفسه، مج5، ص2889- 2890.
26- المرجع نفسه، مج5، ص2891-2892، بتصرّف.
27- المرجع نفسه، مج5، ص 2895.
28- المرجع نفسه، مج5، ص2903- 2906، بتصرّف.
29- محمود بن عمر الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التّرتيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، ط3. دار الريان للتراث، ج3، ص285.
30- عبد الرّحيم عزّاب "بنية الإيقاع الافرادي في الخطاب القرآني: قواعد المشاكلة نموذجا" مجلّة الدّراسات اللّغويّة. الجزائر: 1432هـ - 2011م، مختبر الدّراسات اللّغويّة ، ع07، ص105 بتصرّف.
31- سيّد قطب، المرجع نفسه، مج5، ص2911.
32- المرجع نفسه، مج5، ص2912-2917.
33- المرجع نفسه، مج5، ص2918- 2919.
34- المرجع نفسه، مج5، ص2920.
35- المرجع نفسه، مج5، ص2920، بتصرّف.
36- المرجع نفسه، مج5، ص2923.
37- المرجع نفسه، مج5، ص2920-2925، بتصرّف.
38- المرجع نفسه، مج5، ص2941-2942، بتصرّف.
39- المرجع نفسه، مج5، ص2945.

40- محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ط1. 1409هـ - 1988م، دار الرسالة، ص30.

41- المرجع نفسه. ص31.

42- تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ط1. القاهرة:1314هـ- 1993م، عالم الكتب ص288.

43- سيّد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص2944-2945.

44- المرجع نفسه، مج5، ص 2946-2947.

45- المرجع نفسه، مج5، ص2956-2957.

46- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ط3. مصر- 1370 هـ/1951م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ج2، ص74-75.

47- محجوب حسن محمد، الإحكام المعجز في بلاغة القرآن. جدّة، دط. دت، جامعة الملك عبد العزيز: كلّيّة الآداب واللغات، ص111.

48- سيّد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص 2969-2970، بتصرّف.

49- المرجع نفسه. مج5، ص2978.

50- المرجع نفسه، مج5، ص2980-2982، بتصرّف.

51- ابن الأثير، المثل السائر، **تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت-1995م، المكتبة العصرية**، ص106.

52- سيّد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص2998.

53- المرجع نفسه، مج5، ص3006.

54- المرجع نفسه، مج5، ص3029، بتصرّف.

55- سيّد الأخضر، فواصل الآيات القرآنيّة: دراسة بلاغيّة دلاليّة، ط2. القاهرة: 1430هـ-2009م، مكتبة الآداب، ص22، بتصرف.

56- سيّد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص3065، بتصرّف.

57- المرجع نفسه. مج5، ص3068، بتصرّف.

58- المرجع نفسه، مج5، ص3080.

59- المرجع نفسه، مج5، ص3102، بتصرف.

60- سيّد الأخضر، المرجع نفسه، ص52، بتصرف.

61- سيّد قطب، في ظلال القرآن، مج5، ص3106.

الشخصيات وتقديمها في السرد القرآني

د. ملفوف صالح الدين
جامعة خميس مليانة

السرد في جوهره هو دراسة للعلاقات بين مكونات القصة وطريقة عرضها ومن هذا المنطلق جاء اختيارنا للقصة في القرآن الكريم، ذلك أن هذه الأخيرة تختلف أيما اختلاف عن القصة العادية من حيث التقديم، ولو أنها تحتوي العناصر نفسها التي تحتويها القصة الأدبية في ثناياها كالزمن، والمكان، والشخصيات... وغيرها. وسينصب تركيزنا في هذه الورقة البحثية على الشخصيات، وبالذات على أنواعها وكيفية تقديمها في النص القرآني.

قبل الحديث عن الشخصيات وكيفية تقديمها في القصص القرآني، نود أن نعرج أولا على بعض المفاهيم النظرية المتعلقة بمصطلح السرد، والسرد لغة هو: «خرز ما يخشن ويغلظ كنسج الدرع وخرز الجلد.»[1]، وهو «تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في أثر بعض متتابعا.»[2]، فاستعير هذا التناسق والتتابع لنظم الحديد مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾[3] بمعنى : «اجعله على القصد وقدر الحاجة.»[4]، ويقال : سرد الحديث، وسرد القرآن إذا تابع قراءته في حدر منه وسرد فلان الصوم إذا والاه وتابعه[5]، ومنه حديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها حول أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في الكلام : «لم يكن يسرد الحديث كسردكم.»[6]. وورد في لسان العرب: «سرد الحديث يسرده سردا إذا تابعه. وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له.»[7]، ما يعني أن السرد هو: «رواية الحديث متتابع الأجزاء، يشد كل منها الآخر شدا في ترابط وتناسق. رواية حسنة أي سوق الحديث سوقا حسنا، وهو شرط السرد الجيد الذي يؤمن فهم السامع له وإدراكه. وبهذا لا يشد الحديث بعضه بعضا فقط، بل يشد انتباه سامعه ومتلقيه

أيضا. الملاحظ أن التعريف يركز ضمنا على الخطاب السردي وكيفية عرض المسرود وبنائه أكثر مما يركز على مادته، أي أن المهم هنا هو الصناعة السردية بشروطها وأدواتها، المبنى أكثر مما هو المسرود في حد ذاته.»[8].

أما اصطلاحا فإن السرد Narrative هو الطريقة التي تحكى بها القصة، ذلك أن الحكي يقوم على أساسيين: أولهما أن يحتوي على قصة تضم أحداثا، وثانيهما أن يحدد الطريقة التي تحكى بها هذه الأخيرة. وهذه الطريقة هي السرد، فالقصة لا تتحدد بمضمونها فقط، ولكن أيضا بالطريقة التي يقدم بها[9]. فالسرد على وفق هذا المنظور هو الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق هذه القناة المكونة من (السارد ـــــ القصة ـــ المسرود له)، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها متعلق بالسارد والمسرود له، والبعض الآخر متعلق بالقصة ذاتها[10].

يؤكد **فورستر** على أهمية مبدأ السببية في قيام السرد، وهذا المبدأ هو الفاصل بين القصة والسرد، فالقصة هي سرد للحوادث المتسلسلة زمنيا، والسرد أيضا سرد للحوادث لكن التوكيد هنا يدخل ميدان السببية وغمارها، فعلى وفق مثاله الشهير (مات الملك ثم ماتت الملكة) هذه قصة، لكن (مات الملك ثم ماتت الملكة حزنا عليه) سرد / حبكة*، فالتسلسل الزمني باق ولكن حس السببية يكتنفه، أو يمكن القول : ماتت الملكة ولم يعرف أحد السبب حتى تبين أنه نتيجة الحزن على موت الملك، وهنا تخلخل التسلسل الزمني، وتضمن صيغة قابلة للتطور الأسمى، وبهذا تعلق التسلسل الزمني ونأى عن القصة بقدر ما سمحت لها حدودها.

إن الاهتمام بنظرية السرد قديم جدا يعود بنا إلى عهد **أرسطو**، هذا الأخير الذي تنبه لها وجسدها في كتابه (فن الشعر)، فعلى الرغم من أنه قد اقتصر على ثلاثة أجناس أدبية هي: الملحمة والتراجيديا والكوميديا، إلا أن تحليله كان من العمومية والشكلية بما يكفي لإيجاد متسع من التحولات. ويعود الفضل بشكل كبير في الاهتمام بنظرية السرد في العصر الحديث إلى الجهود النظرية الرائدة للشكلانيين

الروس والتشيك في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وإلى أعمال البنيويين والسيميولوجيين الفرنسيين في الستينيات والسبعينيات من القرن نفسه.

أثمرت هذه الجهود والأعمال المشار إليها آنفا ظهور علوم عديدة منذ أواسط القرن العشرين، تعنى بالسرد، ولها مناهجها وقضاياها، واصطلح في الأخير على تسمية هذه العلوم بمصطلح جامع هو السردية أو علم السرد Narratologie.

ويعد البلغاري **تزفيتان تودوروف** أول من اقترح هذا المصطلح في عام 1969 م. تبحث السردية أساسا في استنباط القواعد الداخلية للأجناس الأدبية، واستخراج النظم التي تحكمها وتوجه أبنيتها، وتحدد خصائصها وسماتها، فهي المبحث النقدي الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردي، أسلوبا وبناء ودلالة. وقد اقتصر اهتمام السردية أول الأمر على موضوع الحكاية الخرافية والأسطورية، واستنباط الخصائص المميزة للبطل الأسطوري، ثم تعددت اهتمامات السرديين لتشمل الأنواع السردية الحديثة كالرواية والقصة القصيرة، فظهر عدد من الباحثين في هذا الشأن أولوا تلك الأنواع جل اهتمامهم. ومع صدور كتاب (خطاب الحكاية) سنة 1972 م لصاحبه **جيرار جينيت** نجدنا أمام تقديم عملي لنظرية سردية متكاملة، فهو ينطلق من قراءة التصورات السابقة كلها، ومن خلال نقده إياها يقدم مشروعا منسجما مع ما سبق، فأصبحت السردية علما معترفا به بوصفها مبحثا متخصصا في دراسة المظاهر السردية للنصوص السردية ففيه تثبيت لمفهوم السرد، وتنظيم لحدوده.

بعد هذا المدخل التمهيدي الذي ضمناه مفهوم السرد لغة واصطلاحا وكيف اتخذ هذا الأخير أبعادا ونظريات نتج عنها علم قائم بذاته، قمين بنا أن نعرج على الإطار النظري لكلمة الشخصية قبل الحديث عنها وعن كيفيات تقديمها في السرد القرآني. وتأتي لفظة الشخص Personne في اللغة بمعنى سواد الإنسان وغيره الذي يظهر من بعيد، كما تأتي للدلالة على كل جسم له ارتفاع وظهور، المراد به إثبات الذات[11]. أما الشخصية Personnalité فهي جملة من الخصائص المتنوعة التي تحدد هوية الفرد وتميزه عن غيره. وتتمثل في التنظيم الدينامي للفرد في

أبعاده المعرفية والوجدانية والنزوعية والفزيولوجية، ولها جانبان: ذاتي وموضوعي [12]، «فالجانب الذاتي هو الذي يعبر عنه الفرد بقوله : (أنا)، مشيرا إلى حياته العقلية، والعاطفية، والإدراكية، والإدارية والجسمية من حيث هي موحدة ومستمرة، ... أما الجانب الموضوعي فيتألف من مجموع ردود الفعل النفسية والاجتماعية التي يواجه بها الفرد بيئته، أو من أنماط السلوك التي تعينه على تكييف نفسه وفقا لبيئته الطبيعية والاجتماعية.»[13].

تعد الشخصية في النسيج السردي «مدار الأفكار والآراء العامة.»[14]، ولا يمكن فصل تناولها داخل النص السردي عن تناول السردية ذاتها، وبناء عليه، فإن الشخصية ليست وليدة التجلي النصي، كما أن إدراكها ليس مرتبطا بالمستوى السطحي، إنها على العكس من ذلك، عنصر مدمج داخل المستوى المحايث على شكل قيم ومواصفات، ولا يقوم المستوى السطحي إلا بتخصيصها عبر صبها داخل السياق الخاص الذي يحدده النص الثقافي، لأن الشخصية تستند في تحققها إلى عنصرين رئيسيين: فالشخصية تحيل من جهة على النص الثقافي بأبعاده المتعددة وتحيل من جهة ثانية على المستوى الثقافي الخاص بالمتلقي[15].

والشخصية هي «المكون الذي يحاول به كاتب الرواية عن طريق أسلبة اللغة وفقا لشفرة خاصة ونسق مميز، مقاربة ذلك الإنسان الواقعي الذي نشير إليه عادة بكلمة (شخص) للدلالة على الفرد الذي تتضافر عوامل طبيعية واقتصادية واجتماعية في تكوين جسمه ونفسيته.»[16]. ويتعدد مفهوم الشخصية بتعدد مجمل التصورات واختلافها في النظر إلى الشخصيات في المنظورين ما قبل البنيوي والبنيوي، إذ يخلط المنظور الأول بين الشخص والشخصية، ولا يميز بين التجربة الواقعية والنصية، تأسيسا على تصور ثقافي وإيديولوجي، فيما يميز المنظور الثاني بين التجربتين، ويرى الشخصيات على أنها كائنات ورقية [17].

يرسم السرد القرآني أثناء عرضه للشخصيات نماذج إنسانية تتجاوز حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية، وهي شخصيات حية تتحرك من كل

الجوانب، فيكشف عن انفعالاتها، وجوانبها المختلفة من خلال أسلوب التقديم غير المباشر، إذ إن تمييز الشخصيات في السرد القرآني لا يتم من خلال عملية الوصف، لأن الوصف يشغل مساحة ضئيلة داخل القصة القرآنية، وإنما يتوقف الأمر بشكل أكبر على الأفعال، سواء أكانت هذه الأفعال حركات، أو حوارات (خارجية أو داخلية)، أو أحداث، فعلى سبيل المثال لن يقف المتلقي في شخصية النبي موسى عليه السلام على وصف مسبق وتفاصيل لرصد ملامحه الفيزيولوجية وقواه البدنية، بل يستشف ذلك في ثنايا السرد أثناء أفعال النبي وتحركاته واحتكاكه بالشخصيات الأخرى، فهو يتعرف على قوته الجسدية في حادثة الاقتتال بين الرجل القبطي والإسرائيلي، وبالمثل يقف على شهامته وعلو أخلاقه، في قيامه بمساعدة المرأتين، وعلى صلابته وأمانته، في حوار الفتاتين مع والدهما ... إلى آخره.

تقوم هذه الدراسة أولا على قراءة الشخصيات الإيجابية والشخصيات السلبية في السرد القرآني، دون التفات يذكر إلى التقسيم المعهود للشخصيات إلى رئيسية وثانوية، أو مدورة ومسطحة، لأن القصة القرآنية تمتاز بشمولية البناء، ومشاركة جميع شخصياتها في بناء الحدث وتفعيله وتطويره، فالمقياس هنا هو دور الشخصية النوعي وليس الكمي، أي أهمية ظهورها وحيوية أدائها، وفاعليتها التي تجعلها قادرة على القيام ببلورة الأفعال. وثانيا تقديم الشخصيات من خلال طرق أو صيغ سردية مختلفة بدءا بالصيغتين الكلاسيكيتين: العرض / الإظهار أو القول / الإخبار، إلى جانب: التبئير، والتنويع الأسلوبي، والاستهلال، والاختيار، والتباين وهذا ما سنقف عنده في حينه.

1 ـــ <u>الشخصيات الإيجابية وتأصيلها</u> : لا يهتم السرد القرآني بالشخصية في حد ذاتها، بقدر اهتمامه بوظائفها ومنطلقاتها الإيجابية أو السلبية. ويهدف النص القرآني من تقديم الشخصيات على وفق هذا المنظور إلى توسيع رؤية المتلقي وتعميق آفاق وعيه، لكي لا يتم النظر إلى الأحداث من منظور أحادي، فينسى أو يتناسى السنن الإلهية في تسيير الأمور وإدارة الحياة. فقد بث النص القصصي

القرآني هذه الإشارات في المستويات المختلفة من خطابه السردي، ليتمكن المتلقي من التقاط هذه الإشارات والتنبه إليها.

من القصص التي آثرنا تسليط الضوء عليها في هذا المقام " قصة الخلق "، أين يركز النص القرآني على إبراز مسألة إيجاد آدم عليه السلام من العدم، وإلى تلقينه المعارف التي تمده برصيد علمي يؤهله ليكون خليفة الله في الأرض، وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمات : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[18].

ليست هناك ـــــ مثلما هو ملاحظ ـــــ أية إشارة تربط إيجابية آدم عليه السلام بعبقريته الذاتية، وليس هناك أي مؤشر يؤكد تفضيله على الملائكة من أجل ذاته أو معدنه وما شابه ذلك، وإنما الإشارات منصبة على إرادة الله تعالى في عملية التعليم، وعلى التكريم الذي خص به في الملأ الأعلى، وأن تفضيله على الملائكة جاء بإرادة إلهية اقتضتها حكمته سبحانه وتعالى، مما تطلب الأمر من الملائكة التسليم والإذعان لهذا الأمر الإلهي.

وفي كثير من سياقات قصة موسى عليه السلام يلاحظ المتلقي تركيز السرد على مراحل طفولته ومرحلة شبابه، حيث المنة الكبرى بإنقاذه من بطش فرعون وإرجاعه إلى أمه، وتخليصه من مؤامرة الملأ مصداقا لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[19].

ولهذا التذكير أو ما يسمى في اللغة السردية باللواحق المكررة 20 وظيفة مهمة تتمثل في إبراز القيمة الدلالية الخاصة لعناصر القصة المتمثلة في توعية الشخصية وإعلامها بسيرتها، وفي تمكين المتلقي من العودة إلى الأيام الأولى المكونة للحدث ليقف على المشاهد والأحداث، من أساسها، ويحيط علما بمجريات الأمور وحقائقها.

وفي قصة يوسف عليه السلام لا يكاد المتلقي ينتهي من الإحاطة بالأحداث والمشكلات التي واجهها هذا النبي، والتذكير بجزاء المحسنين يبرز شاخصا أمامه في قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ*﴾ [21] إذ التركيز على مصدر التمكين للنبي يوسف واضح وجلي من خلال لفظة (مكنا) المنتسب إلى نون العظمة، ففي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الأرض مسندا إلى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفى.

تمتاز الشخصيات الإيجابية بالتوافق النفسي مع ذواتها، والتوافق الخارجي مع محيطها والتوافق هو العملية الدينامية التي يجري فيها تغيير أو تعديل في سلوك الفرد، وفي أهدافه وحاجاته أو فيهما جميعا، ونجد عمق هذه السمة الإيجابية، سمة التغيير من السلوك السلبي إلى الإيجابي، في شخصية آدم وحواء، اللذين وقعا في شرك إبليس فأكلا من الشجرة المحرمة، انطلاقا من طبيعتهما الإنسانية، إذ ظنا أن أحدا لا يقسم بالله كاذبا، إلا أنهما سرعان ما شعرا بقبح الزلة، فباشرا الاستغفار مصداقا لقوله عز وجل: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[22].

تتمتع الشخصيات بسمة إيجابية متجذرة في تحركاتها، وتنعكس هذه الإيجابية وتمتد إلى مواقفها كافة، وعلى كل مستوى من مستويات نشاطاتها، ففي قصة

إبراهيم عليه السلام مع أبيه نلحظ أن الأدب الجم والخلق الرفيع يطبع حوار النبي مع أبيه، على الرغم من لغة الأب الشديدة، وموقفه العدواني، وهذا ما يظهر مجسدا في قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا *قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [23].

ويحتفي النص القرآني برسم القيم التي تتمتع بها الشخصيات الإيجابية في مواقف متعددة من سيرهم، سواء أكانوا في الضراء، أم كانوا في السراء، ويتكئ الرسم على العرض الحيادي، إذ لا يجد المتلقي ظلا لتدخلات السارد، بمعنى أن زاوية النظر هنا زاوية موضوعية، تترك المجال لإشراك المتلقي في استنتاج الدلالة عندما يقوم بربط الخيوط بعضها ببعض، ففي سيرة موسى عليه السلام يلحظ المتلقي أن السمة الإيجابية لا تفارقه، فعندما يكون حرا طليقا متمكنا وهو أحد أفراد القصر الفرعوني، يضيق صدرا بالظلم ولا يتحمله، لذلك عندما يرى أحد الأقباط وهو يكاد يقتل إسرائيليا مستضعفا، يهب فورا لمساعدته، كما يرصده النص بكل دقة : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [24].

وبعد الفرار من مصر، تنتهي به مشاق السفر الطويل إلى ماء مدين، وقد تدافعت عليه أمة متكاثفة العدد ورأى امرأتين من ورائهم مع غنمهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب، يقول الله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[25].

ـ **الصيغة السردية لتقديم الشخصيات الإيجابية :**

1ـ العرض : يمثل الحوار الذي هو حيز تجسيد للعرض، مع القول أو الإخبار الصيغتين الرئيسيتين في كيفية تقديم الشخصية، وهو يمتاز بالدرامية وبقلة مستوى تدخل السارد. ويعد الحوار من الأدوات السردية لفنون القص، وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بمستويات الاتصال بين الشخصيات والعمل القصصي والمتلقي، ويسهم بشكل فعال في عملية التواصل السردي، حيث تتبادل الشخصيات وتتعاقب على الإرسال والتلقي، كما أنه يمتاز بديناميته العالية، وعرضه للشخصيات والأحداث بحيادية فيتيح مجالا لتقديم معرفة مباشرة عن الشخصية، لأن الحوار الفعال فضلا عن أنه يضاعف أو ينقص أو يكشف التعاطف أو النزاع الكامن أو الظاهر بين الشخصيات، فإنه يتيح لها طوعا أو كرها أن تعبر عما لا يتيح الكشف عنه أو استشفافه أية تقنية سردية أخرى.

تكمن أهمية الحوار في تسليط الضوء بشكل مباشر على الشخصيات، وفي اطلاع المتلقي على خفايا تكويناتها النفسية، كونه ينطوي على قدر كبير من المعلومات التي تؤهله لمعرفة الحدث وملابساته، والأفكار التي تحملها القصة في سياقاتها السردية، كما يجعله متصلا بالسرد ومندمجا به من أجل معرفة كنه الخلافات بين الشخصيات المتصارعة، أو تحديد سمات الترابط بين الشخصيات المتصالحة.

يأتي الحوار في هذا المقام على أربعة مستويات، المستوى الأول هو الحوار الجاري بين الله تعالى والشخصية الإيجابية، والمستوى الثاني هو الحوار الجاري بين الشخصيات الإيجابية فيما بينها، والمستوى الثالث هو الحوار الجاري بين الشخصيات الإيجابية والسلبية، والمستوى الرابع هو الحوار الداخلي والمناجاة.

أ ـ المستوى الأول : يوظف السرد القرآني الحوار وديناميته العالية لإبلاغ المتلقي بكثير من الإشارات الحيوية، والأسس التي لابد له من الاطلاع عليها، وتمثل مقاطع النبي موسى عليه السلام الحوارية مع ربه أبرز ملمح لهذا المستوى في الخطاب القصصي القرآني، حيث يقف المتلقي من خلاله على طبيعة التكليف الإلهي لرسوله

موسى، وعلى مكنون حالته النفسية الوجلة من الحدث المفاجئ الذي لم يكن في حسبانه عندما ذهب إلى النار بغية الإتيان بقبس منها، يقول عز وجل في هذا الشأن : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى*إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي*إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى* فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى*وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى* قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى* قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى* قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾[26].

لقد أبرز السرد في هذه الآية وظيفة الحوار عندما تم تبصير موسى عليه السلام بحقائق عظيمة تتعلق بخلق وعي آني له (نودي يا موسى، إني أنا ربك، إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك)، وبطبيعة التكليف الإلهي، وتقرير الربوبية والوحدانية، وعناصر الالتزام الديني، والشعائر الدينية المتمثلة في الصلاة. فالحوار جار من الأعلى إلى الأدنى، من الخالق إلى المخلوق، ثم يتناوب الدور فيجيب موسى ويسأل مستفسرا عما يجهله.

ب ـــ المستوى الثاني: يتمثل هذا المستوى في الحوار الجاري بين الشخصيات الإيجابية فيما بينها، وهو يمتاز بإبراز القيمة الإنسانية الأصيلة بين المتحاورين ويشخص القيم الرفيعة التي يتمتع بها هؤلاء، كما يجسد إيجابيتهم بشكل حقيقي في أرض الواقع، فالحوار الذي جمع يعقوب ويوسف عليهما السلام ـــ مثلا ـــ يقوم بوظيفة فرز القيمة الإيجابية لدى الشخصيتين في جميع مراحل السرد ومستوياته، كما يسهم في تقديم معرفة مباشرة عن الشخصيتين والشخصيات الأخرى المحيطة بها وعن جوهر القضية التي تدور الأحداث حولها، وهي الرؤيا، والحسد، والاستقامة والمستقبل المنير الذي ينتظر يوسف عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ *وَكَذَلِكَ

يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[27].

يبدأ الحوار بقص النبي يوسف رؤياه على أبيه، في صيغة مؤكدة (إني رأيت ... رأيتهم لي ساجدين)، مستوضحا عن رؤيته للشمس والقمر وهما يسجدان له، وهنا أدرك أبوه ببصيرته النافذة أن وراء هذه الرؤيا شأنا عظيما لهذا الغلام، من خلال الدلالات التي تحملها، فكما اختاره ربه وأراه هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة له (كذلك يجتبيه ربه) أي يختاره ويصطفيه لنبوته، وبهذا يقف يوسف عليه السلام ومعه المتلقي على مغزى رؤيته، دون أن يفصح الأب عن دلالة سجود الشمس والقمر له ودون أن يفصح الحوار عنها كذلك في هذه المرحلة.

جـ ـــ المستوى الثالث : إن المتتبع للقصة القرآنية يجد أن هناك شخصيات تمتاز بفاعلية وحضور قويين على الرغم من صغر المساحة التي تشغلها قصتها مقارنة بقصص شخصيات أخرى كموسى ونوح وآدم عليهم السلام، كما يلحظ أن الحوار الجاري بين هؤلاء الشخصيات الإيجابية والشخصيات السلبية من أهم الوسائل السردية التي أبرزت إيجابيتهم، وذلك للطبيعة الجدلية التي تتسم بها علاقة الإيجابية بالسلبية فقوة بروز الشيء تتوقف على مخالفته أو تضاده مع بروز الأشياء الأخرى في المحيط، فالوجود الحقيقي للشيء حسب هذه النظرة ليس شيئا ناجزا ولا جاهزا، بل إنه يتأتى من التفاعل بين المتضادات والمتناقضات، وهذا التفاعل يتولد من الاتصال والاتصال يتجسد في الحوار الذي هو بحد ذاته ذروة التواصل.

إن شخصية النبي لوط عليه السلام من الشخصيات التي تمتاز بصغر مساحة قصتها مقارنة بالمساحة الكلية للقصة في القرآن الكريم، إلا أن أسلوب عرضها المتمثل في رصد محاوراتها مع قومها جعلها من الشخصيات القصصية البارزة ففي سورة الشعراء يقوم الحوار بتكثيف الإيجابية التي يتمتع بها النبي لوط، في مقابل السلبية المتجذرة في الطرف المضاد، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾[28].

تتمثل الإيجابية المكثفة في التقوى، والأمانة، والسلم، واللغة المتينة في الحوار ومحاربة الفساد والموقف الصارم تجاهه، والهدوء، في مقابل السلبية المكثفة للجانب الآخر المتمثلة في: التكذيب، وعدم التقوى، والفساد المستشري، والانحراف الجنسي والأخلاقي، والعدوانية، واللغة العنيفة الجارحة. وفي مجيء أبعاد الجانبين المتضادين بهذا الشكل التقابلي دور كبير في إبراز القيمة الإيجابية التي يحملها الجانب الإيجابي، وتعرية الواقع المتهالك للقيمة السلبية التي يحملها الجانب السلبي.

د ــ <u>المستوى الرابع</u> : إن السرد القرآني يبدع في الاهتمام بعرض أفكار الشخصية الإيجابية ومواقفها عرضا حياديا عن طريق الحوار الداخلي، فالحوار الداخلي يقوم على العرض المستقل ـــــ الذي لا يتدخل فيه وسيط ـــــ لأفكار الشخصية وانطباعاتها وتصوراتها، فهو نوع من الفكر المباشر المرسل والطليق ومن أمثلة قيام الحوار الداخلي بتصوير الحالة النفسية للشخصية، ورصد خلجاتها قول مريم عندما جاءها المخاض إلى جذع النخلة: ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[29].

يشكل الحوار الداخلي في هذه الآية الكريمة مدار وعي مريم بحالتها النفسية كما أنه يصور ما تعانيه العذراء في أول مخاض وهي وحيدة لا علم لها بشيء ولا معين لها في شيء، ونكاد نلمح ملامحها ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها، وهي تتمنى لو كانت نسيا منسيا.

تجسد المناجاة أحد مظاهر الحوار في السرد القرآني، ولعل أبرز موقف يلحظه المتلقي في هذا المجال هو مناجاة النبي زكريا عليه السلام مع ربه، بعد أن بلغ به الكبر عتيا، واشتعل رأسه شيبا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا* قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ

شَقِيًّا* وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا*يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[30].

تؤدي المناجاة دورا وظيفيا ملحوظا في السرد القرآني، لأنها لا ترد من أجل رصد الأعماق الداخلية للشخصية فحسب، وإنما جاءت ــ أيضا ــ لتؤدي وظائف سردية إضافية، كقيامها بتسليط الضوء على ما لم يصرح به النص بغية الحفاظ على جماليات النص، وإشراك المتلقي في التوصل إليه. ففي حادثة المراودة، عندما راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام في بيتها، وبعد تدخل النسوة في الموضوع، لا يجد المتلقي إشارة صريحة تشير إلى انضمام النسوة إلى عملية إغواء يوسف، إلا أن مناجاة يوسف مع ربه تكشف هذه النقطة، مصداقا لقوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[31].

2 ــ <u>الإخبار أو القول</u> : إن الإخبار هو الوسيلة أو الصيغة السردية الثانية المعتمدة في سبيل تقديم الشخصيات، وتتسم بمستوى كبير من التدخل السردي للسارد، وقد استعمل السرد القرآني الإخبار / القول وسيلة سردية لتقديم الشخصيات الإيجابية بطريقة تجعل المتلقي يحيط علما بسير الأحداث، ومسيرة الشخصيات، أو يقتصر التقديم على تزويد المتلقي مرحليا وترابطيا بالمعلومات مع تطور الأحداث، إذ تتوقف عملية الاطلاع على مواكبة المتلقي للحدث، ويعتمد في هذا التوظيف على وسيلتين: إحداهما التبئير، والأخرى التنويع الأسلوبي.

أ ــ <u>التبئير</u> : التبئير هو المنظور الذي تعرض الوقائع والمواقف المسرودة من خلاله، ويتعلق التبئير بالموقع الذي يحتله السارد في علاقته بالشخصيات وبالقصة بوجه عام. وهو مصطلح جاء به **جيرار جينيت** مستفيدا من النظريات السابقة حول وجهة النظر التي تعنى بجميع المظاهر في علاقة السارد بالقصة. ومن أجل تحديد أكثر دقة لمفهوم التبئير، قام جينيت بتقسيمه على: التبئير الصفر (السارد يعرف أكثر من الشخصية)، التبئير الداخلي (السارد لا يقول إلا ما تعرفه إحدى الشخصيات)، التبئير الخارجي (السارد يقول أقل مما تعرفه الشخصية) [32].

ـ **التبئير الصفر** : تبرز الشخصيات الإيجابية في هذا النمط من خلال الإخبار عنها، مندمجة مع منظور السارد العليم، فالتبئير هنا موجه من خلال رؤية سردية عليمة ومحيطة بالأحداث قبلا وبعدا، حيث يمر كل شيء عبر السارد، فتقديم الشخصيات الإيجابية ـــــ مثلا ـــــ في سورة الكهف مندمج بوجهة نظر السارد، حيث يقرأ المتلقي الشخصيات ويتجاوب معها من خلال زاوية نظر السارد، عبر ضمير الجمع المتكلم (نا)، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[33].

قبل الدخول في وصف الشخصيات الإيجابي (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) يجد المتلقي إشارات نصية ترشده إلى هذا البعد، منها رصد السرد لتضرع الفتية إلى الله وإبراز الاستجابة مباشرة كعلاقة سببية (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ـــــ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا)، فضلا عن تحديد هوية الفتية من خلال انتسابهم إلى الذات العلية، وعدهم آية من آياته. ويتجلى دور هذا التقديم في مستويات القصة المختلفة، ففي مشهد وضعية الفتية النائمين مع كلبهم، يأتي تعليق السارد ليؤكد العناية الإلهية المستمرة بهم: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[34].

ـ **التبئير الداخلي** : إن مستوى المعلومات المقدمة في التبئير الداخلي يرتبط بمستوى معرفة الشخصية وبقدر معرفتها بالطرف الآخر داخل القصة، ففي قصة الملائكة المرسلين مع النبي إبراهيم، يقدم السرد الملائكة المرسلين من خلال وعي النبي بهم وبمجيئهم، إذ ظنهم ضيوفا قصدوه، لذلك هم بإكرامهم، وأتى بطعام وفير، انطلاقا من تصوره لهم ضيوفا نزلوا عنده، وهذا ما تؤكده الآيات التالية :

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ* فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ *فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[35]، وهذا ما جعل إبراهيم عليه السلام مرتابا وخائفا من هؤلاء الضيوف الذين دخلوا بيته ولا يأكلون من طعامه، وبمعرفة الشخصية هوية الضيوف ومهمتهم، يتعرف المتلقي على الأمر إذ لم تكن هناك معلومات خارجية تسبق الحادثة، وليس هناك منظور محدد يجعل المتلقي يقرأ أو يتلقى الشخصيات عبره.

ـــــ **التبئير الخارجي** : يتابع المتلقي في هذا التبئير سيرة الشخصية ونشاطاتها خارجيا مع السارد دون أن يتمكن من ولوج عالمها الداخلي، وهذا ما يتيح مجالا أن يشارك المتلقي في تقديم الشخصية أو التوصل إليها، لوجود فراغات معلوماتية متعلقة بالشخصية يتوجب عليه سدها، ففي قصة يونس عليه السلام يواجه المتلقي سلسلة من البنى الإخبارية منذ الاستهلال: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[36]. فعلى الرغم من هذه الأخبار المتعلقة بشخصية النبي يونس، فإن المتلقي يجد مساحات من الصمت تلف تحركها مما يضطره أن يبحث عن إجابات لها، فهو لا يعلم لماذا هرب النبي يونس، ولماذا كانت القرعة من نصيبه دون سواه من الركاب؟، وبقدر ما تثير هذه الأسئلة ذهن المتلقي، فإنها بالقدر نفسه تعطيه منظورا يرى من خلاله ارتباطات هذه الشخصية الإيجابية بالله سبحانه، سواء من حيث الابتلاء أو من حيث النجاة وتلقي الرعاية الخاصة.

ب ـــــ **<u>التنويع الأسلوبي</u>** : يستعمل السرد القرآني تنويعات أسلوبية بغية الترويح عن المتلقي، واكتمال البنية السردية بالشكل الذي يشبع حاجات هذا الأخير المعرفية. ويتجلى التنويع الأسلوبي في عدة أنماط يمكن إجمالها في نمطين رئيسيين هما: الفرز، والاختيار الأسلوبي.

ـــ **الفرز** : يقوم السرد في هذا النمط بتقديم شخصيتين أو أكثر في سياق واحد، ثم يسلط الضوء على إحداهما أو إحداها دون الأخرى بغية إبراز سماتها المميزة المتناسقة مع السياق العام للقصة المسرودة، كما هو متبع في سياق الحديث عن داود وسليمان عليهما السلام، إذ بدأ الحديث عنهما ثم ركز السرد على سليمان وعلى حدود ملكه ومملكته وسلطانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[37].

ـــ **الاختيار الأسلوبي** : إن لانتقاء الكلمة أهميتها في البناء الكلي للعملية السردية في النص القرآني، فقد يكون لكلمة واحدة دلائل أكبر من دلائل خطاب طويل وتتحكم في الإتيان بكلمة دون سواها مقصدية فنية عالية، تبرز أهميتها عندما يصل المتلقي إلى النقطة الجوهرية من القصة، حيث نجد أن السرد القرآني يختار لفظة (دبر) في مشهد انفلات يوسف عليه السلام من مطاردة امرأة العزيز: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[38]. فالمتلقي لا يعرف دور هذا الاختيار ودوافعه إلى أن يصل إلى نهاية المشهد، فهو لا يعلم في البداية لماذا حدد السرد أن قميص يوسف قد من دبر، إلا أنه عندما يتقاذف الطرفان التهمة لاحقا، هي تقذفه بحدة وهو يقرر الحق بهدوء، تبرز محورية هذه اللفظة التي تكون الفيصل في توضيح القضية.

2 ـــ الشخصيات السلبية وتأصيلها : يهتم السرد القرآني بأبعاد الشخصية السلبية ويتوقف على منطلقاتها وعلى آثار تحركاتها، مثلما توقف على منطلقات الشخصية الإيجابية وآثارها، فالسلبية هي الوجه المعاكس للإيجابية، وهي تشكل معها صورة من صور التقابل الأزلي بين الخير والشر. وترجع أصول الجانب السلبي منذ خلق الله تعالى الإنسان وأعلن عنه في الملأ الأعلى، حين استكبر إبليس وتحدى الحكمة الإلهية ومنذ ذلك الحين أخذت القضية بعدها الوجودي وجانبها الدلالي.

لا تتسم الشخصية السلبية في السرد القرآني بالتنوع الذي اتسمت به الشخصيات الإيجابية، لأن القصة القرآنية بصدد بناء شخصية مسلمة متماسكة، فتتيح لها المجال للاطلاع على تنوع كبير من الشخصيات الإيجابية، كنماذج حية تقتدي بها وتأخذ منها معالم طريقها، فلم تلتفت إلى الشخصيات السلبية ونماذجها إلا بالقدر الذي يخدم هذا الهدف.

ـــــ **الصيغة السردية لتقديم الشخصيات السلبية** : يستعمل السرد القرآني صيغتي العرض والقول / الإخبار لتقديم الشخصية السلبية ومعرفة منطلقاتها وقيمها في تعاملها مع ذاتها ومع الآخر، وهي منطلقات غير سليمة تعتمد على قيم منحرفة تؤدي بالشخصية إلى انعدام التوازن النفسي، وفقدان التوافق الاجتماعي وتتعاظم تبعات هذا الاختلال النفسي، والانفصام الاجتماعي، فتسفر عنها نتائج كارثية تنتهي باندحار الذات وهلاك الشخصية على الصعيدين الذاتي والاجتماعي.

1 ــ العرض : يتم العرض ـــــ كما سبقت الإشارة إليه آنفا في تقديمنا للشخصيات الإيجابية ــ من خلال الحوار لجعل النص مشهديا (دراماتيكيا) نابضا بالحيوية والحركية، إذ يسند الفعل إلى الشخصيات وتترك لها المساحات لتقوم بالفعل السردي بشكل متفاعل مع الشخصيات الأخرى، وبفعل فاعلية الحوار تكشف الشخصية السلبية عن ذاتها وتفصح عن مقاصدها السلبية، فبالحوار مثلا يتعرف المتلقي على حقيقة إبليس ودوره السلبي: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[39].

يكشف الحوار عن منطلقات إبليس في رفضه السجود لآدم، فهو ينطلق من منطق استكباري ويجعل ذاته المقياس لإضفاء القيم على المخلوقات، وليس خالقه وخالق الموجودات جل جلاله، وجاء عذره أو مبرره للرفض (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) متعارضا مع إكرام خالق آدم عليه السلام.

من الصفات السلبية التي يجسدها الحوار القصصي في القرآن الكريم نذكر عدم تقبل الآخر، تماما مثلما حصل مع قابيل وهابيل ابني آدم عليه السلام، فعلى الرغم

من الرابطة الدموية التي تجمعهما، وعلى الرغم من عدم وجود أي نوع من التنازل عن المبادئ كما كان يفعل فرعون ونمرود... وغيرهما بسبب الاستكبار والتهرب من الفشل، إلا أن رفض الآخر ورد بصيغة أخرى، يقول عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[40].

لقد قام الحوار بإبراز نظرتي الأخوين المتضاربتين، فالأولى تنظر إلى الآخر نظرة إيجابية، فلا تضمر له حقدا، ولا تنوي له شرا، والثانية تنظر إلى المقابل نظرة مغايرة تماما، مع أن الآخر أعلن له عن موقفه السلمي، وإمساكه عن إلحاق الأذى به، وعلى الرغم من ذلك نفذ الطرف السلبي تهديده بقتل أخيه.

أ ـــــ **<u>المستوى الموضوعي</u>** : يتمثل هذا المستوى في المحاورات الجارية بين الشخصيات الإيجابية والسلبية المستندة إلى مواقف فكرية أو عقائدية، وهو يأخذ أبعادا كبيرة سواء على مستوى القصص، أو على المستوى الدلالي، ففي بعض المواضع يعتمد السرد الحوارات الطويلة بين الشخصيات السلبية والإيجابية، وعن طريق الحوار يقف المتلقي عند المفترق الذي يميز بين منطلقات الشخصيات في نشاطاتهم، وعلى وجهات نظرهم. كما يكشف الحوار عن الخلق العالي للشخصيات الإيجابية، وأسلوبهم البناء والحضاري في الاستماع والإجابة، في مقابل أسلوب تصعيدي غير بناء للشخصيات السلبية في معظم المواقف، وللتدليل على ذلك نختار الحوار الجاري بين النبي شعيب عليه السلام وقومه مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[41].

يمكن للمتلقي من خلال هذه الآيات الأخيرة أن يلتقط القيم الإنسانية النبيلة والأسلوب الحضاري في خطاب النبي شعيب، وهو منهمك في علاج فساد مستشر طال المعاملات التجارية في المجتمع، وفي المقابل يجد المتلقي الرد السلبي أمام هذه الدعوة الإيجابية ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ* وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[42].

فدون الالتفات إلى هذه القيم النبيلة، ودون الأخذ بنظر الاعتبار هذا الاهتمام بشؤون القوم الدينية والدنيوية، واجهوا شعيبا بأقسى الأساليب، وأبشع الألفاظ (إنك لأنت الحليم الرشيد / في معرض السخرية منه، أصلاتك تأمرك أن نترك ... أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد / في معرض الاستهزاء لنراك فينا ضعيفا، ولولا رهطك لرجمناك / في معرض التهديد)، حتى وصل الأمر حد الطرد: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[43].

ب ـــ <u>المستوى الذاتي</u> : يتمثل المستوى الذاتي في حوار الشخصيات السلبية فيما بينها، وهو لا يستند أساسا على منطلقات سلوكية، دافعها الحسد والغيرة وما إلى ذلك من دوافع. ومن أبرز النماذج التي تعكس هذا المستوى في السرد القرآني نذكر نموذج الحالة التي حدثت بين النبي يوسف وإخوته، فمن خلال الحوارات الجارية بينهم يقف المتلقي على نوازع الإخوة، وحقيقة دوافعهم في قيامهم بإيذاء يوسف: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[44].

يكاد يكون الحوار الداخلي معدوما في هذا الجزء، فلم يرصد السرد القرآني إلا حوارا داخليا واحدا في قصة ابني آدم عليه السلام، وقد ورد كحديث النفس عندما شعر القاتل بالإحباط، وأصابته الحيرة، فلم يكن يدري ماذا يفعل بجثة أخيه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[45].

2 ــ <u>الإخبار أو القول</u> : تعتمد صيغة القول أو الإخبار في هذا القسم المتعلق بالشخصيات السلبية على الوسائل السردية التالية:

أ ــ <u>الاستهلال</u> : الاستهلال هو مطلع النص الذي يعطي الانطباع الأولي للنفس وهو عامل مهم في إثارة التخيلات المناسبة. وقد شكل الاستهلال إحدى الوسائل السردية الفرعية التي استعملها السرد القرآني من أجل خلق حالة من الانتظار والترقب لدى المتلقي، بجانب الكشف عن أبعاد الشخصية السلبية، وتسليط الضوء على البناء الإجمالي للقصة وللشخصية السلبية منذ البداية، تمهيدا لإدخال القارئ إلى عالم النص وإدماجه به، حيث يمكن ملاحظة اتباع هذا الأسلوب في معظم مواطن قصة النبي موسى مع فرعون، فقد بدأت سورة القصص بعد الآيتين بقصة موسى وفرعون مجتمعين، معتمدا على الاستهلال الذي ألقى الضوء على الجانب السلبي لفرعون: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[46].

تم عرض المقطع السردي من خلال الإخبار المعتمد على الاستهلال الذي بدأ بالأحرف المقطعة، وركز على إبراز البعد السلبي لفرعون، والمتمثل في الاستكبار في الأرض، وتتكرر صورة هذا العلو في مستويات القصة كلما يأتي النص على ذكر فرعون، وعلى وجه الخصوص في المحاورات الجارية بين موسى وفرعون، بعد أن يكلف الله تعالى موسى بالذهاب إليه، وفي الحوارات الجارية بين فرعون ووزيره هامان أو بين فرعون والملأ من حاشيته. ولا يكتفي السرد برصد صور الاستعلاء فقط، دون التصريح بها، لذا نجده يعقب على هذه السلوكيات والممارسات بقوله : ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[47]، وبهذا جاء الاستهلال متناسقا مع التعقيب النهائي للقصة، وجعل المتلقي في حالة انتظار وترقب وتتبع لمجريات الأحداث حتى النهاية ليشبع حالة الانتظار التي خلقها السرد منذ البداية، وهو يوازن بين فعل الإخبار في الاستهلال، وتحققه في الختام. وفضلا عن هذا، فقد ألم الاستهلال بالخيوط الأساسية للحدث، وأورد السبب وراء سرد القصة، والغاية منها هي جعل المتلقي مطلعا على سياسات فرعون التمييزية تجاه رعيته، وكيف أن كل ذلك لم ينفعه، ولم ينفع وزيره هامان للحفاظ على نظامهما التسلطي والمتعسف: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[48].

ب ــ <u>الاختيار</u>: يقترن اختيار الكلمة أو التعبير في السرد القرآني بالسياق القريب أو البعيد، وهو سياقان: سياق ملفوظ وسياق غير ملفوظ، ومن هنا يتوسع مفهوم السياق القرآني ليشمل السورة والقرآن كله، لأن القرآن مجموعا يعطي الكلمة، فلا يمكن فهم كلمة أساسية دون الرجوع إلى المجموع الكبير، فالجدل حول مدلول الكلمة واختيارها، هو جدل حول السياق، والسياق مجموعة ممكنات، وهو مفتوح وليس شيئا واحدا.

إن لاختيار الكلمة أهميته في تصوير الحدث الواحد المذكور في موضعين مختلفين أو أكثر، وله دلالته الإشعاعية الممتدة إلى نهاية النص، فعلى سبيل المثال ذكر السرد القرآني معصية إبليس في سورة البقرة بهذه الصيغة السردية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[49]، جامعا لإبليس الإباء والاستكبار والكفر، للإشارة إلى شناعة معصيته عندما رفض المثول

للأمر الإلهي. ولم يتكرر هذا الأسلوب في أي سياق من سياقات قصة آدم عليه السلام مع إبليس، فإما أن يقول (أبى)، وإما أن يقول (استكبر)، فلم يجمعهما إلا في هذا الموطن، لأن السياق هنا هو سياق تكريم آدم، وسياق ذكر استخلافه الذي لم يذكر في غير هذا السياق.

وقد يرتبط الاختيار بالتحديد الزمني للحدث الذي جرى، أو بالكشف عن البواطن النفسية للشخصيات، فبعد أن فعل الإخوة بيوسف عليه السلام ما فعلوا، وألقوه في الجب، ورجعوا إلى أبيهم، ليخبروه بالسيناريو الذي أعدوه، يحدد السرد لحظة العودة من خلال لفظة (عشاء) في قوله تعالى: ﴿وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ﴾[50]، و«هذه الجزئية من جزئيات الزمن، قد حرص القرآن على الإشارة إليها، لأن لها مكانا في سير أحداث القصة. ذلك أن ظلام الليل الذي أظل هذا الكذب وغطاه هو نفسه الذي نم على الكذب، وألقى في روع الأب أن أبناءه لو كانوا صادقين لأسرعوا إليه مخبرين بالحدث في وقته، لأن مثل هذا الحدث لا يسكت عليه لحظة.»[51].

وفضلا عن التحديد الزمني، والكشف عن بواطن النفس، يستعمل السرد القرآني الاختيار لإلقاء الضوء على أمور مسكوت عنها، وحث المتلقي على التتبع والتقصي وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[52]، فكما نجد جاء قوله (من بعد) لتحديد الزمن، والتعريض بتحذير المسلمين من الاختلاف على رسولهم إذ يشير هذا القول (من بعد موسى) إلى أن هذه القصة وقعت مع بني إسرائيل من بعد موسى، لأن زمان موسى لم يكن فيه تنصيب الملوك على بني إسرائيل وكأنه إشارة إلى من لم يستثمروا إيجابيا في الزمن الذي كان فيه رسولهم بينهم، فكانوا يقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا. ومن الأمور المسكوت عنها التي قصد السرد الإشارة إليها من خلال هذا الاختيار الأسلوبي، هو الإشارة إلى الطابع الملتوي المتردد، للشخصية اليهودية، فهي في زمن موسى أتعبته كثيرا من خلال مواقفها التي أوردها السرد القرآني في أكثر من موضع، وهي ظلت من بعد موسى

محتفظة بطابعها المريض، فها هي الآن تتعب نبيها، وتمارس السلوك الذي سلكته مع موسى قبله.

جـ ــ <u>التباين</u>: يعد التباين وسيلة من الوسائل السردية الأخرى التي اعتمدها السرد القرآني، ويقصد به أن السرد القرآني يعمد إلى إيجاد أرضية للمتلقي تمكنه من إدراك الشخصيات السلبية إدراكا تاما، ويتم هذا عن طريق عقد المقارنة من خلال التقابل غير المباشر، وذلك بإيراد قصة أو موقف للشخصيات السلبية في محيط من قصص أو مواقف للشخصيات الإيجابية.

أورد السرد القرآني قصة صاحب الجنتين داخل محيط من الشخصيات الإيجابية في سورة الكهف، حيث ركز النص على إبراز موقف الرجل المحاور لصاحب الجنتين، والعبد الصالح، وذي القرنين من الدنيا وزينتها، وهي مواقف إيجابية انطلاقا من المقياس المذكور في مستهل السورة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[53]، فيما يمثل موقف صاحب الجنتين موقفا سلبيا، انطلاقا من استجابته القاصرة تجاه ما خصه به الله سبحانه وتعالى من زينة الحياة الدنيا.

ويرصد السرد القرآني حركة الشخصيات السلبية داخل عمق من الشخصيات الإيجابية، لكشف الجانب السلبي، وإظهار حركة الشخصية المضادة، كحركة ناشزة تصطدم مع التآلف الموجود لدى الشخصيات الإيجابية مع ذواتها، ومع محيطها، وبهذا يسهل على المتلقي القيام بالتقاط الحالات السلبية، وتمييزها. ففي قصة قارون، أحاط السرد بهذه الشخصية، وبدورها السلبي، بعد أن شكل العمق المتمثل بالنبي موسى وأتباعه، حيث أن مجرد ذكر اسم موسى يربط فكر المتلقي بشخصية إيجابية استطاعت أن تغير واقعا صعبا، بفضل علاقتها المتينة بالله تعالى، وبالآخرين، بخلاف قارون الذي لم يحسن علاقته لا بذاته ولا بمحيطه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ*

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ*﴾[54].

تشكل أقوال قوم قارون من خلال الحوار الجاري معه العمق الذي أبرز القيم السلبية لدى قارون، والتي كثفها السرد في بؤرتين دلاليتين، الأولى هي (بغى عليهم)، وهي تجسيد لنظرته الاستعلائية تجاه الآخر، وعدم الاعتداد بوجوده. والثانية هي (إنما أوتيته على علم عندي)، وهي تصور الأنانية في سلوك هذه الشخصية، وعدم قراءته لذاته، ولواقعه القراءة الصحيحة، عندما أرجع أمر التمكن إلى ذاته، وعلمه.

وخلاصة القول، بعد هذه الجولة الخاطفة في دروب السرد القرآني وشعابه المختلفة، يلحظ الدارس أن المساحة السردية التي تشغلها قصص الشخصيات الإيجابية، ووسائل تقديمها المختلفة أكثر بكثير من المساحة السردية التي تشغلها قصص الشخصيات السلبية ووسائل تقديمها، ويمكن عد هذا التفاوت بين المساحتين السرديتين، بعدا آخر من أبعاد التباين على مستوى النمطين، حيث يجد المتلقي مساحة سردية صغيرة، تحيطها مساحة سردية أكبر، فمن خلال هذا التباين في الحجم والنوع يمكنه أن يستشف تفضيل الجانب الإيجابي وتقديمه بشكل أبرز مقارنة بالجانب السلبي الذي ورد أيضا بارزا ومشخصا لكن بدرجة أقل.

الإحالات:

1- راغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن. تحقيق وضبط : محمد سيد كيلاني. بين الحرمين. إيران. دون تاريخ. ص 230.

2- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب (مادة سرد). دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التأريخ العربي. بيروت. ط 3. ج 6. ص 233.

3- سورة سبأ. من الآية : 11.

4، 5 – ابن منظور. لسان العرب. ج 6. ص 233.

6- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري. صحيح البخاري. كتاب المناقب (باب صفة النبي)، حديث رقم : 3568. ص 420.

7- اللسان (مادة سرد). ج 6. ص 233.

8– إبراهيم صحراوي. السرد العربي القديم (الأنواع والوظائف والبنيات). منشورات الاختلاف. الجزائر. والدار العربية للعلوم. بيروت . ط 1 . 1992 م . ص 32 .

9– ينظر. حميد لحمداني. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. المركز الثقافي العربي. بيروت ــ الدار البيضاء. ط 3. 2000 م. ص 45 ــ 46.

10– ينظر. المرجع نفسه. ص 45.

* يفضل فورستر ومن بعده جيريمي هوثورون مصطلحي القصة والحبكة على مصطلحي المتن والمبنى لدى الشكلانيين الروس، وهذا ما ورد في كتاب هوثورون المعنون بـ : مدخل لدراسة الرواية.

11 – ينظر. اللسان (مادة شخص). ج 7. ص 51.

12 – عبد المجيد سالمي، نور الدين خالد. معجم مصطلحات علم النفس (عربي / فرنسي / إنجليزي). دار الكتاب المصري. ط 1. 1998 م. ص 141 .

13 – جميل صليبا. المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية. دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1978 م 1 / 689.

14– محمد غنيمي هلال. النقد الأدبي الحديث. ص 526.

15– ينظر. سعيد بنكراد. سيميولوجية الشخصيات السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينا نموذجا). عمان. الأردن. ط 1. 2003. من ص 101 إلى ص 105.

16– محمد سويرتي. النقد البنيوي والنص الروائي (نماذج تحليلية من النقد العربي). دار إفريقيا للنشر. ط 2. 1994. ص 70.

17– رولان بارت. مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة. ترجمة : منذر عياشي. مركز الإنماء الحضاري. حلب. ط 2. 2002 م. ص 72.

18– سورة البقرة. من الآية : 30 إلى الآية : 33.

19– سورة طه. من الآية : 36 إلى الآية : 39.

20– ينظر. سمير المرزوقي، جميل شاكر. مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا. دار الشؤون الثقافية العامة بغداد والدار التونسية للنشر. 1986. من ص 78 إلى ص 80.

21 – سورة يوسف. الآيتان : 55 و56.

22 – سورة الأعراف. من الآية : 21 إلى الآية : 23.

23 – سورة مريم. من الآية : 44 إلى الآية : 47 .

24 – سورة القصص. الآية : 15.

25 – سورة القصص. الآيتان : 23 و24.

26 – سورة طه. من الآية : 11 إلى الآية : 21 .

27 – سورة يوسف. من الآية : 04 إلى الآية : 06.

28 – سورة الشعراء. من الآية : 160 إلى الآية : 168.
29 – سورة مريم. الآية : 23.
30 – سورة مريم. من الآية : 02 إلى الآية : 06.
31 – سورة يوسف. الآية : 33.
32 – ينظر. جيرار جينيت. نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. ترجمة : ناجي مصطفى. منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي. الدار البيضاء. ط 1. 1989 م. ص60.
33 – سورة الكهف : من الآية : 09 إلى الآية : 13.
34 – سورة الكهف. الآية : 17.
35 – سورة الذاريات. من الآية : 24 إلى الآية : 28.
36 – سورة الصافات. من الآية : 139 إلى الآية : 144.
37 – سورة النمل. الآيتان : 15 و16.
38 – سورة يوسف. الآية : 25.
39 – سورة ص. الآيتان : 75 و76.
40 – سورة المائدة. الآيتان : 27 و28.
41 – سورة هود. من الآية : 84 إلى الآية : 86.
42 – سورة هود. من الآية : 87 إلى الآية : 91.
43 – سورة الأعراف. الآية : 88.
44 – سورة يوسف. من الآية : 08 إلى الآية : 10.
45 – سورة المائدة. الآيتان : 30 و31.
46 – سورة القصص. من الآية : 01 إلى الآية : 06.
47 – سورة القصص. الآية : 39.
48 – سورة القصص. الآية : 06.
49 – سورة البقرة. الآية : 34.
50 – سورة يوسف. الآية : 16.
51 – عبد الكريم الخطيب. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه (دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف). دار الفكر العربي. القاهرة. 1974 م. ص : 84.
52 – سورة البقرة. من الآية : 246.
53 – سورة الكهف. الآيتان : 07 و08.
54 – سورة القصص. من الآية : 76 إلى الآية : 78.

سلطـــة الغموض في التأسيس لشعرية الخطـــاب

أ. تركي امحمَّد

جامعة عبد الرحمن بن خلدون بتيارت

يقول أبو إسحـــاق الصابي:

"**أفخر الشِّعر ما غَمُض، فلم يعطك غرضه إلاَّ بعد مماطلة منه**"

ملخص: تحاول هذه الدراسة الكشف عن ظاهرة أسلوبية وجدت في شعرنا العربي، وهي ظاهرة الغموض الّذي تعلّق أستار كلّ قصيدة قديمة وحديثة. ولما كان الشّعر قائما على المجاز كان لا بدّ أن يكون لهذا الأسلوب حضور شاسع في النّص فالمجاز بطبيعته يخالف الحقيقة ويبنى على الخيال القائم على التّوسيع والتّكثيف والمراوغة وكسر السّائد اللّغوي المتعارف عليه بين النّاس. والشّاعر البارع هو من يأتي بهذا الأسلوب في نصه؛ بحيث يعكس براعته و قدرته على الكتابة.

هذا، في نظر النّقاد المؤيدين للغموض كأبي إسحاق الصّابي ت (384هـــ)، أمّا من جهة الرافضين من النّقاد فما هو إلاّ أحاجي وإبهام لاتمت للإبداع الشّعري بصلة. فقد يكون تغطية لضعف صادر عن ذات شاعرة مبتدئة في نظم الشّعر وبالتّالي يلوي عنق التواصل بينه وبين المتلقّي الّذي لا يفهم الرّسالة فيثور على الباث وينعته بالتقصير والرداءة، ولنا في شعر أبي تمام (ت:231 هـــ) أمثلة أكثر مما تعد وأوسع من أن تحدّ، وكذا أشعار معاصريه.

عالجت في مقالي هذا الموسوم بـــ"سلطة الغموض في تأسيس شعرية الخطاب "أمرين في غاية الأهمية: أولهما: يتّصل بجمالية الغموض في النّص، وثانيهما: فاعلية المتلقي في إنتاج وتحوير النّصوص الغامضة؛ إذ تراءى لي وللشّعراء قبلي

أنّ الغموض ليس في النّص وإنّما في القارئ الذي لا يملك ثقافة كافية تهيئه لاستقبال هذا النّص وتأويله.

مقدمة: راجت السّاحة النَّقدية في مقاربتها للنَّص الشّعري العربي بقضايا كثيرة أثرت الخطاب النّقدي في جوانبه المتعدّدة، ومن أمهات هذه القضايا التي لها صلة وثيقة بالنّص الإبداعي قضية الغموض؛ فلئن كان الوضوح والإفصاح وقرب المأخذ من أهم مقومات جودة الشّعر، في فترة قُيِّد الشّاعر بالنظم وفقا لمعايير عمود الشّعر العربي، فإنَّ الجودة فيما بعده أضحت كامنة في النَّص الشّعري الغامضة معانيه، المتوارية دلالته، والبعيدة مجازاته.

هذا ما لُوحظ لأوّل مرة في السؤال النّقدي الذي طرحه قراء أبي تمام في قولهم: "لماذا لا تقول ما لايُفهم؟ ليجيب ولـــما لا تَفهمون ما أقول؟"[1] وبهذا يكون أبو تمام قد سبق عددا وفير من النّقاد الغربيين، والنقاد العرب المعاصرين على ضرورة مشاركة القارئ في إنتاج المعنى فيحدّد بمستواه الذوقي الجمالي عندئذ ما يرميه الشّاعر.

01- جمالية الغموض: عُدّ الغموضُ -بهذا الوصف -المحرك الأساسي الَّذي يُولّد الطّاقة الشّعرية والكثافة الفنيَّة للنّص الإبداعي[2]، من خلال ما يطرحه للمعاني من حياة تتجدّد بفعل" التَّأويل المستمر والتأطير المتحوّل أبدا، وينجم عن هذه النصوص لا نهائية النَّصّ ولا محدودية المعنى، وتعدّد الحقائق والعوالم بتعدّد القراءات"[3]، ولذلك كان السّمة الطبيعية الناجمة عن فنيات اللّغة الشّعرية من انزياح ومفارقات...، وعن جوهر الشِّعر الَّذي هو "انبـــثاق متداخل من تضافر قـــوات عدَّة من الشـــعور والرُوح والعقل، متسترة وراء اللّحظة الشّعرية".[4] فالشّاعر يستعين بمجموعة من الحيل لإخفاء الحقيقة عن القارئ؛ لأنّه يعبّر من أغواره عن قضاياه وشواغله، فيعرضها في حلل رمزيّة، إيحائيّة، محفوفة بقدر من الغموض. وهذه طبيعة الشّعر والشّاعر وبذلك عبّر البحتري قديما:

والشِّعْرُ لَمْحٌ تَكْفِيْ إِشَارَتُهُ وَلَيْسَ بِالهَذْرِ طُوِّلَت خُطَبُهْ[5]

اعتبر الدّارسون العرب الغموض فنا من فنون التّعبير، ونمطا من الأنماط الشّعرية الّتي يلجأ إليها الشّاعر في نظمه، لشدّ بال وانتباه القارئ الّذي بدوره يحلّل ويبحث ويكتشف ويفسّر، حتّى إذا وصل إلى المعنى شعر بلذة لا تدانيها لـــذة ومن هنا كان النصّ الغامض نصّ اللّذة** والمتعـــة مادام أنّـــه يُمتّع ويُشوّقه في عملية البحث والكشف، فقد كان "لتحديد الشيء وتسميته والتصريح به في الشّعر يعني الاستغناء عن ثلاثة أرباع المتعة الّتي تتيحها القصيدة والّتي تنشأ عن الارتواء بالتخمين التدريجي، أمّا الإيحاء بالشيء وإثارته فهذا ما يسحر الخيال"[6]، ويجعل القول مفتوحاً على دلالات جديدة.

يُمنح الشّاعر الصلاحيّة التّامة في صقل لغته و ترويضها –إن صح القول– فهي وعاء الشّعر[7]، والمادة الأساسية المشكلة لجماليته، وعليها يقوم أيّ إبـــداع أدبي. فالشّاعر "ملء الحرية في إيجاد نحوه الخاص وإيقاعه الخاص"[8]، فلا يحتاج إلى قانون يحكمه ولا إلى معيار يحدّ من كلامه، متجاوزا بذلك كلّ الأعراف والأطر، باعتباره "يـــرى مالا يرى غيره"[9]، وما الغموض إلاّ بـــذرة هذا التّجاوز للّغـــة الكلاسيكية، القائمة على "مغايرة العرف النثري المعتاد، وكسر قواعد الأداء المألوفة لابتداع وسائلها الخاصّة في التّعبير عمّا لا يستطيع النثر تحقيقه من قيم جماليّة"[10]، وإن كانت لغتهما واحدة.

وبهذا يكون الغموض علامة فارقة بين لغة الشّعر ولغة النثر المكونة من الوضوح والمباشرة. فقد أباح نفر من النّقاد العرب في الشّعر "بعض الغموض والاكتفاء بالإيماء والرضا بالرّمـــز، ولا يباح للناثر إلاّ أن يكون واضح الدلالة سهل العبارة، بَيِّنَ الإشارة"[11]، يفهم كلامه العامّ والخاصّ، بدلا من الشّعر الّذي لا يفهمه إلاّ من كانت له كفاءة عالية في القراءة والتّأويل تمكّنه من فهمه.

يُشكّل الغموض نقطة مشتركة بين جميع العلوم[12] والفنون الأدبيّة. لكنّه توطّن الشّعر؛ باعتباره جامعا مانعا لكلِّ هذه العلوم، وهذا ما جعل صاحبه يسمو بلغته لخلق قصيدة تُمتع ناظرها، فينجذب إليها قراءة وتأويلا؛ بحيث إنّ لكلّ قراءة معنى

جديدا غير المعنى الأوّل، فيُوقِن أنّه أمام نص ذي نفس عميق*، نص كُتب ليبقى ومن أجل ذلك كـــان من حيل الشّاعر إقحام القـــارئ في الجوّ السّطحي للنّص فيعطيه مفتاح حلّ الشّفرة في اللّحظة الّتي يراوغه فيها بالتّشفير والرّمز[13]، اللّذين يكتشفهما القارئ ليُقِرّ أنّ الشّاعر لولم يتكلّم بهذا الأسلوب المراوغ، لكان كلامه مسهفا مبتذلا.

أضحى لزاما على الشّاعر في نظمه، وما يصحبه من حالات في نقل تجربته وعواطفه، أن لا ينطلق من معجمه الجاهز في بعث خطابه الشِّعري؛ وإنّما يبحث عن معجم فنّي آخر يزخر بالمعاني المشِّعة بالتَّأويل والتَّفسير[14]، ليعيد بذلك النّظرة الكليّة للنّص الإبداعي، من بعد ما كانت صياغة للمعنى إلى محاولة لاكتشاف المعنى[(15)] فنجد "أنّ هذه الكلمات تستحقّ أن نتأمّل مـــعانيها وأن نضمّ هذه المعاني معنى بجانب معنى، لنعرف المعنى الّذي وراء المعنى"[16]، المفتوح على وابل من الدّلالات والتَأويلات المستمدّة من المغايرة والقدرة على إثارة الدّهشة وإحداث المتعة. وهي الأطر المؤسّسة لجمالية النّص الإبداعي الجديد[17].

02- فاعلية المتلقّي في إنتاج وتحوير النّصوص الغامضة: يبقى الشّعر من الفنون الأدبيّة القريبة من القراء بلا منازع، ولهذا كان للمتلقّي دور كبير في نجاح العمليّة الإبداعيّة؛ فهو واحد من مشكّلات النّص الشّعري زيادة علـــى المبدِع، كما أنّه المـــقوّم الوحيد الّذي يعيد بناء النّص[18] فيكون المبدِع الثّاني لهذا النّص وفقا لذوقه وطريقته الخاصة؛ فهو-المتلقِّي- كما يشير النّقاد "بؤرة الاستقصاء؛ أو المركز الّذي تتمحور حوله كلّ عناصر النّص"[19]، الَّذي لم يعد يُنظم على المثال الأوَّل (الشّعر القديم)، وإنمّا أعيد تشكيله لصناعة نصّ إيحائيّ، غامض، ولّدته غزارة الطّاقة الشّعرية والفنيّة للشّاعر الفحل الّذي أضحى يلعب ويلاعب اللّغة،كما يلعب السّاحر بعصاه.

يتلقّى القارئ النّص الشّعري الغامض، ويشرع في تحوير صوره وتفسيرها؛ إذ تتداخل الدوال مع بعضها البعض للتعبير عن معنى آخر[20]، لم يعهده التركيب في

طبعه العادي، نتيجة تبادل الكلمات والمعاني لأدوارها في السّياق الّذي أصبح" يقدّم للقارئ معنى متعددا؛ أي إمكانية متنوعة لأكثر من معنى، ومن هنا منشأ الغموض. فالغموض نتيجة لاهتزاز الصّورة الثّابتة في نفس القارئ لعلاقة الدال بالمدلول"[21]؛ وبمعنى آخر يتعامل الشّاعر الجديد مع ظلال الكلمة الواحدة، فيصفها بغير اسمها المعتاد حتّى "يجعلنا نتعرّف عليها من جديد، يخلع عنها ما ألفناه من أوصاف؛ كي يكســوها مرّة أخرى فتتجلى أمامنا؛ فهو خالق دوال تعيد تكوين مدلولات" [22]، لم تكن بذهن القارئ، فيندهش بها ويستمتع بقراءتها.

إنّ الشّاعر في لحظة بوحه* يستدعى كل ما في جعبته للتّعبير عمّا يجيش في خاطره، فيكون كلامه مزيجا من غموض وتعقيد، تماه وتحليق في سماء اللّغة الشّعرية "المشحونة بدلالات مراوغة إلى حدٍّ كبير، ممّا يُصعّب الرّسالة ويجعلها مفتوحة"[23]. ما جعل المتلقّي يتفاعل معها، باعتبارها نصا، ويجنح إلى أن" يفك شيفراته ويملأ الفجوات الموجودة فيه، وعليه أن لا يفهم المعنى فقط؛ بل عليه أن يفهم وجهة نظر الكاتب، و يشارك في وجهة النّظر هذه"[24]، ويصنع معه المعنى المراد.

فالقارئ دائما تتوق نفسه إلى معرفة ما يمسّ تجربة الشّاعر الذاتيّة، وبالتّالي تحتّم عليه أن يتحمّل تعب وعناء الشّاعر في عمليّة الإبداع والخلق[25]، وتفسير معانيه المخترَعة[26]، الغائرة في البِنية الجوانية الدّاخلية للنّص الشّعري، ومن ثمّ كان النّص نتيجة خلق بين الباث و المتلقّي على السّواء.

تتعالى إشكالية المتلقّي في النّقد العربي المعاصر على فهمه للنّص الشّعري الحديث والمعاصر، المغدق بالغموض والإبهام، وكأنّ قراءة القارئ المعاصر أضحت بلا فائدة، يقرأ لكنّه لا يفهم ما يقرأ، الأمر الّذي أحدث قطيعة بين الشّاعر والمتلقّي شلّت أعضاء العمليّة الإبداعيّة، وهذا ما حرّك الوعي النّقدي المعاصر إلى رصد أسبابها، فكان من جملتها غياب المرجعيَّة الثّقافية للمتلقّي[27] .فالنّص الشّعري الجديد لا يُلقى للقارئ جاهزا يعرفه كل النّاس، وإنّما يقتصر على فئة من القراء أصحاب القدرة على التّأويل والتّفسير.

تلعب المرجعية الثّقافية دورا بالغا في كشف معاني النّصوص الشّعرية[28] الغارقة في نهر الغموض (الفني)*، وتأويلها عن طريق ملء الفراغات ورتق الفجوات، عبر توالد الدّلالات وتناسل الأفكار، وفق مسلكية استدلالية[29]. فالشّاعر الحالي في تعبيره عن قضايا ومشكلات عصره وانطلاقا من أزماته النّفسيّة الّتي يعيشها، وأمله في إبداع عالم جديد "عالم سحري طالما حلم به دون أن يلقاه، أو يتعرّف عليه، عالم غير محدّد؛ لأنّه عامر بالأمل والشّوق إلى حلاوة الحبّ"[30] يجنح إلى توظيف الغموض بطريقة أو بأخرى – غموض فنّي، أو إبهام –وذلك نتيجة لاتساع هذه القضايا المعبّر عنها.

إنّ قارئ هذا النّوع من النّصوص الشّعرية الغامضة يجدها مسهبة بالرموز والإيحاءات، لكنَّها "غموض من النّوع الّذي لا يَحول بينه وبين الاستمتاع بما يقرأ فهو غموض يشفّ حتّى يغدو جذّابا مؤثّرا يطيل أمد التأثير الّذي يشجّع القارئ على إعادة النّظر في القصيدة ليكتشف في كل مرّة يقرؤها فيها شيئا جديدا"[31]. فيبقى مع القصيدة الواحدة يتنسّم عبق الشّعرية منها، النّابع من الفيض الدّلالي للمعنى الواحد[(32)]، فيزداد تأثرا وإعجابا لثراء تأويلها، ويحسّ بالقلم الَّذي كتب هذا النّوع من الشّعر ويتأثّر به.

إنّ جمال النَّص الشّعري متعلّق بهذه القراءات المتتالية، فالشّاعر دائما يفسح المجال للمتلقّي غاية ملء بقع البياض، واستنطاق الغياب ومحاورة المسكوت عنه[33]، حتّى إذا تمكّن من كشف رموزه أعجب به واستجدّ حلاوة هذا الأسلوب المغاير. هذا ما أقرّه النّاقد العربي عبد الرحمن القعود بقوله: "إنّ القصيدة الحديثة لا تمنح دلالتها له–للمتلقي/القارئ– وإنّما هو الّذي يمنحها الدلالة بإنتاجه لها"[34]. فتوليد الدلالة هنا يقوم على الغموض الفنّي المحمود.

كخلاصة نقول: إنّ الغموض خصيصة مهمة في القول الشّعري، ومستوى من مستويات الشّعرية في النّص الإبداعي وكفاءة من كفاءات اللّغة. يبعثه الشّاعر للمتلقّي الّذي يكتشفه بالفهم والتأمّل، حتَّى إذا بان المستور شعر بمتعة النّص

الغامض ولذته. فهو إحياء للنّصوص وحمايتها من الزّوال. كيف لا ومازالت قصائد كبار الشّعراء كالمتنبي (ت 354هـ) تؤثّر في النَّفس، وقد مضى عليها مئات السنين؟!. منها قوله:

أَنَامُ مِلْءَ جُفُوْنِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَاهَا وَيَخْتَصِمُ[35]

الهوامش:

1- أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري. تح: السَّيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط4؛ (د.تا)، ج1. ص: 20، 21.

2- ينظر: صلاح فضل. نحو تصور كلِّي لأساليب الشِّعر العربي المعاصر. مجلة عالم الفكر الكويت، (ع 3و4)؛ 1994م، مج 22. ص: 87.

3- ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل النَّاقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصِراً). ص: 228.

4- يحيى دريد الخواجة. الغموض الشِّعري في القصيدة العربية الحديثة. دار الذاكرة، حمص ط1؛ 1991م. ص :70، 71.

5- أبو عبادة الوليد بن عُبَيْد الله البحتري. الديوان. ضبط: عبد الرحمن أفندي البرقوقي. مطبعة هندية، مصر، ط1 ؛ 1229هـ، 1921م، ج1. ص: 38.

**- وهو مصطلح ابتدعه النَّاقد رولان بارت وعنون به كتابه (لذة النَّص)، كما استعمله كذلك نقادنا العرب. ينظر: خليل الموسى. آليات القراءة في الشِّعر العربي المعاصر. الهيئة العامة السُّورية للكتاب، دمشق، ط1؛ 2010م. ص: 158.

6- علي شلش. في عالم الشِّعر. دار المعارف، القاهرة؛ 1980م. ص: 68، 69.

7- إبراهيم خليل. تجمع شعر والنَّقد الأدبي الحديث. ص: 277.

8- نفس المرجع. ص: 258.

9- علي أحمد سعيد أدونيس. زمن الشِّعر. دار العودة، بيروت، ط2؛ 1978م . ص: 284.

10- صلاح فضل. إنتاج الدّلالة الأدبيّة. مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1؛ 1987 م. ص: 82.

11- أحمد أمين. النقد الأدبي. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3؛ 1963م، ج1 . ص:67.

12- هذا ما وجد في قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه "كان الشِّعر علمَ قومٍ لم يكن لهم علم أصحّ منه" ينظر: ابن سلام الجمحي. طبقات فحول الشعراء. شرح: محمود محمَّد شاكر، دار المدني بجدة، (د.ط) و(د.تا)، مج1. ص: 292.

*- تعلَّقت مسألة النَّفس الشِّعري بمسألة الطول والقصر في نظم القصائد، و الشَّاعر الفحل هو "من يطيل ويبقى محافظا مع ذلك على مستوى عالٍ من الجودة و البراعة فلا يضعف ولا يتكلَّف" ينظر: أحمد يونس السَّامرائي. النَّفس الشِّعري في القصيدة العربية. مجلة أم القرى لعلوم الشَّريعة واللُّغة العربية وآدابها، السّعودية، (ع 31)؛ 1425هـ، ج18. ص: 363.

13- ينظر: صلاح فضل. شفرات النَّص(دراسة سيميولوجية في شعرية القصِّ والقصيد). ص:41.

14- ينظر: عبد الله بن محمَّد العضيبي. النَّص وإشكاليات المعنى بين الشَّاعر والقارئ (قراءة في تجربة شاعر معاصر). مجلة أم القرى لعلوم الشَّريعة واللُّغة العربية وآدابها، السّعودية، (ع 30)؛ 1425هـ، ج 18، ص: 550.

15- هذا ما رآه الدَّارسون، كون أنَّ الشَّاعر بقدرته "يتجاوز التَّعبير البسيط في إرسال المعنى إلى التعبير الذي يحتاج إلى بذل أقصى ما لديه من وعي وثقافة، ليرتقي بالمتلقِّي إلى المستوى الَّذي الذي يجعل النَّص أمامه حلقة فكر". وعليه أن يكتشف المعنى في حلته الجديدة. ينظر: خليل عودة. مستويات الخطاب البلاغي في النَّص الشِّعري. مجلة جامعة النجاح (العلوم الإنسانيّة) نابلس، فلسطين (ع02)؛ 1999م، مج 13. ص:446.

16- محمَّد شكري عياد. مدخل إلى علم الأسلوب. مكتبة الجيزة العامَّة، القاهرة، ط2؛ 1413هـ 1992م. ص: 68.

17- للمزيد من الاستفادة والإثراء ينظر: محمَّد زيوش. شعرية الغموض في الدَّرس النَّقدي العربي التراثي. مجلة جذور، حدّة، السّعودية؛ أكتوبر2009م، مج12، ج29. ص: 289، 290.

18- ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي. دليل النَّاقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً). ص: .273

19- محمَّد المبارك. استقبال النَّصّ عند العرب. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ؛ 1999م. ص: 51.

20- ينظر: خليل عودة. مستويات الخطاب البلاغي في النَّص الشِّعري. ص: 434.

21- علي أحمد سعيد أدونيس. الثَّابت والمتحول بحث في الإتباع والإبداع عند العرب (تأصيل الأصول). دار العــودة، بيــروت، ط1؛ 1977، ج2. ص: 117، 118 .

22- صلاح فضل. شفرات النَّصّ (دراسة سيميولوجية في شعرية القصِّ والقصيد). ص: 69.

*- أو المخاض أو الهجمة الشِّعرية وهي مصطلحات تعبِّر عن ولادة الشِّعر وبدايته ينظر: عبد الله العشي. أسئلة الشِّعرية (بحث في آلية الإبداع الشِّعري). منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1؛ 1430هـ، 2009م. ص: 23.

23- عبد النَّاصر حسن محمَّد. نظرية التوصيل وقراءة النَّص الأدبي. ص: 66.

24- محمَّد المبارك. استقبال النَّص عند العرب. ص: 44.

25- ينظر: محمود عباس عبد الواحد. قراءة النَّصّ وجماليَّات التّلقي (بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النَّقدي). دار الفكر العربي، القاهرة، ط1؛1417هـ، 1996م. ص: 66.

26- عرَّف النُّقاد على مصطلح الاختراع بأنَّه: "المعنى الَّذي يأتي به الشَّاعر دون الاقتداء بغيره عكس التَّوليد الذي يستحسن لفظا من كلام غيره في معنى فيضعه في معنى آخر". ينظر: نهلة الفيصل الأحمد. التَّفاعل النَّصي (التّناصيّة، النّظرية والمنهج). الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، ط1؛ 2000م. ص: 239.

27- ينظر: خليل الموسى. آليات القراءة في الشِّعر العربي المعاصر. ص: 138.

28- ينظر: عبد الله بن محمَّد العضيبي. النَّص وإشكاليات المعنى بين الشَّاعر والقارئ (قراءة في تجربة شاعر معاصر). ص: 551.

*- راجت هذه التَّسمية في بحوث ومقالات النُّقاد والباحثين كمقال: موقف النَّقد العربي القديم من الغموض الفنِّي في الشِّعر. لصاحبته ثريا عبد الوهاب عباسي.

29- ينظر : الحسين أيت مبارك. صور المتلقِّي في التّراث النّقدي. مجلة جذور، السّعودية ؛ (ديسمبر 2003م)، مج8، ج1. ص: 373، 374.

30- الحداثة في الشعر. يوسف الخال. نقلا عن: إبراهيم خليل. تجمع شعر والنقد الأدبي الحديث. ص: 260.

31- المرجع نفسه. ص: 270.

32- وهو "التَّعدُّد الدلالي والانبثاق والتَّدفق الَّذي يحدثه المجاز في اللُّغة ويجدِّد به حيوتها" ينظر: أحمد محمَّد المعتوق. الشِّعر والغموض ولغة المجاز (دراسة نقديَّة في لغة الشِّعر). ص: 977.

33- بهذا الصَّدد ينظر: خليل الموسى. آليات القراءة في الشِّعر العربي المعاصر. ص: 04.

34- عبد الرحمن محمَّد القعود. الإبهام في شعر الحداثة (العوامل والمظاهر وآليات التَّأويل). سلسلة عالم المعرفة، الكويت؛ 1422هـ، 2002م. ص: 330.

35- عبد الرحمن البرقوقي. شرح ديوان المتنبي. دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1؛ 1422هـ 2002م، ج2. ص :1010.

سيميائيّة الاستعارة

أ. نادية ويدير

جامعة تيزي- وزو

يشير أمبرتو إيكو (Umberto Eco) إلى أنّ الاستعارة و"بالخصوص عندما يقع درسها في مجال اللّغة، تعطي شعوراً بالفضيحة في جميع الدّراسات اللّسانيّة، لأنّها بالفعل آليّة سيميائيّة تتجلّى في جميع أنظمة العلامات، ولكن على نحو يحيل التّفسير اللّغوي إلى آليّات سيميائيّة، ليست من طبيعة اللّغة المستعملة في الكلام ويكفي أن نفكر في طبيعة صور الحلم، التي غالباً ما تكون استعاريّة"[1].

يؤكّد إيكو من خلال عبارته السّالف ذكرها أنّ الاستعارة – باعتبارها علامة لغويّة – آليّة سيميائيّة تحتل دراستها مجالاً واسعاً في الاشتغال السّيميائي*؛ حيث تنظر السّيميائيّات إلى اللّغة على أنّها مجموعة من العلامات والإشارات، ولعلّ التّعامل مع اللّغة كعلامة كبرى تنطوي تحتها أنظمة أخرى من العلامات، يجعل منها نظام علامي قادر على استعاب مختلف الأنظمة العلاميّة الأخرى والتّعبير عنها تعبيراً تداوليّاً أو (تواصليّاً)، فلا غرابة إذن في أن ينظر إلى اللّغة كاستعارة كبرى في التّفكير السّيميائي الحديث، ذلك لأنّ اللّغة هي النّظام السّيميائي الوحيد القادر على الاستعارة لأنظمة لا تعبّر عن نفسها بطريقة مباشرة، فهي علامات مجردة تومئ بدلالتها، فتتصهر في اللّغة التي تعبّر عنها وتستعير لها[2]، وهذا ما يؤكّده إيكو الذي يرى أنّ اللّغة بطبيعتها وفي الأصل استعاريّة[3]، كما سبق وأن ذكرنا.

تشكّل الاستعارة ميداناً للعلامة لأنّ اللّغة فيها من درجة ثانية، أي درجة مجازيّة، وفي هذا الصّدد يقول إيكو: "اللّغة لا تشتمل إلا على المجازات فهي تبدي

عكس ما تخفي، فبقدر ما تكون غامضة ومتعددة، بقدر ما تكون غنية بالرّموز والاستعارات"[4]، حيث تحتاج اللّغة المجازيّة أن يُنظر إليها من منظور سيميائي يبحث فيما تخفي هذه اللّغة من دلالات عميقة، حيث لا نكتفي في دراسة الاستعارة بالمعنى، بل نتعداه إلى معنى المعنى أي الدّلالة وذلك تحديداً ما تقوم به السّيميائيّات، وهاهنا يبدو أنّه لا مناص من توضيح الفرق بين المعنى والدّلالة فالمعنى هو معطى مباشر سابق، ملازم للعلامة اللّغويّة، وهو مدلولها الثّابت نسبياً في حين أنّ الدّلالة هي المعاني غير المعطاة بشكل مباشر، أي هي معاني ثانية، أو دلالات مصدرها الثّقافة والتّاريخ، وهي دلالات يتم الحصول عليها من خلال تنشيط ذاكرة الواقعة، والدّفع بها إلى تسليم كل دلالاتها[5]، أي جميع التّأويلات التي يوفّرها المؤوّل لهذه العلامة من مصادر مختلفة. والحديث عن المؤوّل هو لا شك حديث عن الأطراف الثّلاثة المشكّلة للاستعارة باعتبارها علامة سيميائيّة، ويعدّ المؤوّل أحد هذه الأطراف إلى جانب الممثّل والموضوع، ولقد ورد هذا في تعريف العلامة عند شارل سندرس بورس (charles sanders peirce).

خصّص بورس تعريفاً للعلامة يرى فيه أنّ العلامة أو الممثّل هي شيء ينوب بالنّسبة لشخص ما عن شيء معيّن، بموجب علاقة ما أو بوجه من الوجوه، إنّه يتوجه إلى شخص ما، أي يخلق في ذهن هذا الشّخص علامة معادلة أو ربما علامة أكثر تطوراً، وهذه العلامة التي يخلقها يسميها بورس مؤوّلا للعلامة الأولى هذه العلامة تنوب عن موضوعها، إنّها لا تنوب عن هذا الموضوع تحت أية علاقة كانت، ولكن بالرّجوع إلى فكرة أسماها بورس مرتكز الممثّل[6]، وقد ولّد هذا التّعريف، المفهوم العلائقي الثّلاثي للعلامة، وهو الأساس الذي ينظر من خلاله للاستعارة كعلامة ثلاثية الحدود (ممثّل، موضوع، مؤوّل)، إذ لا يعتبر بورس "العلامة وحدة تقصد لذاتها، بل كعلاقة بين علامات جزئية «sous – signe»"[7].

تنشأ الدّلالة في العلامة نتيجة للعلاقة الثّلاثية (la relation triadique) التي تنشأ بين "ثلاثة علامات فرعيّة تنتمي على التّوالي إلى الأبعاد الثّلاثة للممثّل

والموضوع، والمؤوّل الذي يعدّ العنصر الفعّال في هذه العلاقة، إنّه يحيل الممثّل الأوّل على الموضوع الثّاني، ويمكن أن نوضّح هذه العلاقة الثّلاثية في الرّسم التّخطيطي الذي أورده جيرار دولودال كالآتي[8]:

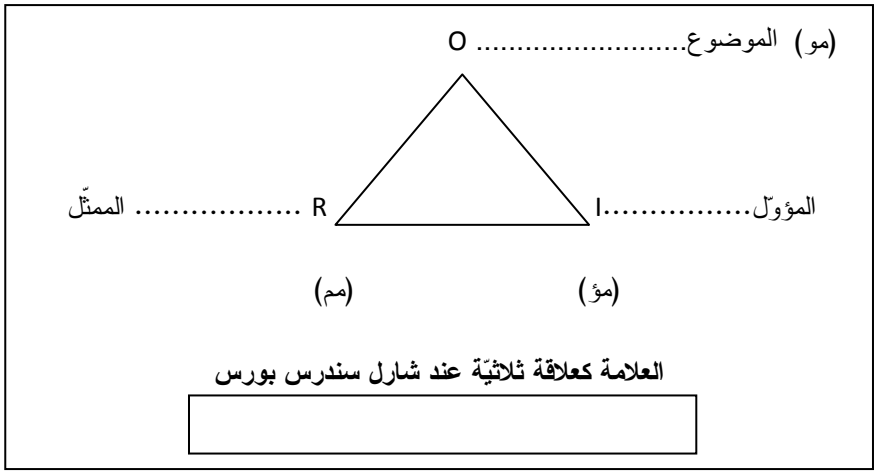

العلامة كعلاقة ثلاثيّة عند شارل سندرس بورس

إذ لا يمكن أن تتحقّق العلامة السّيميائيّة، إلاّ إذا توفّرت على هذه الحدود الثّلاثة بدءاً بالحدّ الأوّل أي الممثّل.

1- الاستعارة والممثّل: يعدّ الممثّل الحد الأوّل للاستعارة باعتبارها علامة سيميائيّة، حيث تبدأ عملية التّحليل السّيميوطيقي للاستعارة، بدءاً بالممثّل الذي يحيل على موضوع الاستعارة المباشر عبر مؤوّلها، و«الممثّل» هو الأداة التي نستعملها في التّمثيل لشيء آخر، يطلق عليه بورس «الموضوع»، وفق ظروف خاصة في الإحالة يوفّرها «المؤوّل»، باعتباره الشّرط الضّروري للحديث عن بناء علامي"[9] وتعقد الصّلة بين ممثّل الاستعارة وموضوعها المباشر عن طريق ما أسماه بورس «التعبير»، وهو كما عرّفه إيكو: "كل الوقائع المعروفة حول هذا الموضوع"[10]، أي الفكرة التي تتكوّن في ذهن المتلقّي، وقد خصّص إيكو في موضع آخر من كتابه القارئ في الحكاية، تعريفاً أكثر تطوّراً للتعبير يقول فيه "التّعبير هو الفكرة التي تولّدها العلامة في ذهن الشّارح، حتى لو لم نعاين وجوداً فعليّاً للشّارح"[11].

2- الاستعارة والموضوع: يشكّل الموضوع الحد الثّاني للاستعارة، وهو عنصر مهم في التركيب العلامي لأنّه يقدّم معرفة حول العلامة، إذ يقوم الممثّل بالإحالة على هذا الموضوع عن طريق التّعبير، ممّا يعقد ربطاً وظيفياً بين العلامة والموضوع الذي تحيل عليه فعليّاً، وبدون هذا الرّبط لن يكون للعلامة أيّة قيمة تقريريّة ولن تكون أبداً محل إثبات له معنى[12].

يمثّل الموضوع معرفة مفترضة تقدّم مجموعة من المعلومات يفترضها المتلقّي حول العلامة، غير أنّ الموضوع ليس بالضّرورة شيئاً أو حدثاً أو وضعيةً، بل يعني به بورس كل ما يتبادر إلى الذّهن[13]. لكن ما يتبادر إلى الذّهن ليس في وسعه أن يوفّر كل المعلومات المحاطة بالعلامة وذلك "نتيجة لما يسميه بورس بقصور العلامة «du signe L'imperfection»"[14]، لذلك يحتاج الموضوع دائماً إلى مؤوّل، "فبما أنّنا مجبرون دائماً، من أجل تحديد علامة، على استحضار علامة أخرى، فإنّ الموضوع لا يشكّل حداً نهائياً لمتوالية إبلاغية ما"[15]، لذلك فهو يحتاج دائماً إلى مؤوّل.

يقدّم الموضوع نوعين من المعرفة: المعرفة المباشرة والمعرفة غير المباشرة والتّمييز بين نوعين من المعرفة يعني التّمييز بين نوعين من الموضوعات، حيث يرى إيكو أنّه" ثمة اختلافاً بين الموضوع الذي علامته هي علامة وبين موضوع العلامة، فالأوّل هو الموضوع الحيوي، ويقصد به حالة من العالم الخارجي، أمّا الثّاني فبنيان سيميائي هو موضوع من العالم الجوّاني المحض"[16]، والفرق بين هذين الموضوعين هو كالآتي :

أ- **الموضوع المباشر :** الموضوع المباشر (l'objet immédiate) هو المعرفة المباشرة التي تمثّلها الاستعارة، "فكل علامة أو (تمثيل) تعبّر بصفة مباشرة عن موضوع مباشر (يمكن تعريفه على أنّه مضمونها)"[17]، وتتمثل هذه المعرفة المباشرة عند بورس في "معنى الدليل وهو موجود رأساً داخل الدليل ذاته"[18]، لكن هذه المعرفة لا توجد في كل الموضوع، إنّها في جزء منه فقط وهو شقه المباشر

كما أنّ الموضوع المباشر ليس هو كل الموضوع، بل مجرد عنصر منه لا يمكنه أن يحيل بحصر المعنى إلاّ إذا كان الموضوع الكلّي معروفاً مسبقا[19].

ب- الموضوع الدّينامي: تقدّم الاستعارة معرفة غير مباشرة عن طريق موضوعها الدّينامي (objet dynamique) ، والمعرفة غير المباشرة، هي ما يمكن أن يُدرك في الاستعارة بشكل غير مباشر، وذلك لارتباط موضوعها الدّينامي بالسّياق الخارجي، حيث "يرتبط الموضوع الدّينامي بسياق نصل إليه بواسطة تجربة مناسبة، ولذلك فإنّه دائماً يوجد خارج الدّليل"[20]، حيث لا تمثّله العلامة بل تشير إليه فقط، لهذا السبب لا يمكن الوصول إليه دون المرور بالموضوع المباشر فالموضوع الدّينامي هو الموضوع الواقعي الذي بسبب طبيعة الأشياء لا يمكن للعلامة أن تعبّر عنه، وإنّما تشير إليه تاركة للمؤوّل عملية اكتشافه عن طريق التّجربة المجانيّة[21]، التي يعرّفها بورس بأنّها تجربة تعدّ حصيلة سيرورة سيميائيّة سابقة عن الفعل الذي يحقّق الموضوع المباشر[22]. لذلك يمكن أن يكون الموضوع الدّينامي عنصراً داخل ما يؤثّث الكون المحسوس، ويمكن أن يكون أيضاً فكراً وانفعالاً وإيماءةً، كما يمكن أن يكون شعوراً ومعتقداً[23]، حيث يحتاج للوصول إليه إلى النّبش في ذاكرة العلامة[24].

3- الاستعارة والمؤوّل: يصرّح إيكو بأنّ "الخصوصيّة الأساسيّة للعلامة هي قدرتها على استثارة التّأويل"[25]، وهذا ما يحدث في الاستعارة باعتبارها علامة سيميائيّة يقوم حدها الثّالث بحركة نشطة تفتح باب التّأويل على مصراعيه. يعرف هذا الحد الثّالث بالمؤوّل وهو الحد الأكثر ديناميّة داخل البناء الثّلاثي للعلامة في تصوّر بورس، و"المؤوّل ليس هو من يؤوّل العلامة، إنّه علامة تحيل ممثّلاً على موضوعه"[26]، أي يقوم بدور الوساطة بين ممثّل العلامة وموضوعها، إذ يعبّر عن علامة أولى تتولد عنها علامة ثانيّة، وعن الثّانيّة علامة ثالثة، وعن الثّالثة علامة رابعة، إذ تشكّل هذه الحركة التّوليديّة للعلامات ما يُعرف عند بورس «السّيميوزيس»، لكن هذا لا يعني أنّ المؤوّل هو التّأويل، إنّما هو نقطة البدايّة التي

يتشكّل فيها المعنى، حيث إنّه يرتبط بالتّأويل ويعدّ منطلقاً له؛ فالمؤوّل يقتضي وضعاً لا يتطلّب سياقاً خاصاً، ولا يتطلّب شخصاً يقوم بالتّأويل، في حين يمكن اعتبار التّأويل محاولة لإمساك خيوط الدّلالة والدفع بها إلى نقطة نهائيّة تعدّ خاتمة لمسار تأويلي[27]، وينقسم المؤوّل إلى ثلاثة أقسام وهي كالآتي:

أ-المؤوّل المباشر: يرتبط المؤوّل المباشر (interprétant immédiate) للاستعارة بموضوعها المباشر "ويكتفي بتقديم المعلومات الأوّليّة الخاصة بموضوع ما (معنى، الواقعة أو العلامة)"[28] كما يدركها المتلقّي، دون الاعتماد على شيء آخر، وهذا المفهوم لا يقدّم معرفة بل يكتفي بإدخال الممثّل في حركة ديناميّة، تمثل بداية اشتغال السّيميوزيس، ورغم أنّ هذا المؤوّل يختلف عن غيره من المؤوّلات "التي هي في الواقع أشكال فكريّة وتفكيريّة لتفاعل قدرات الإدراك المختلفة مع هذا المؤوّل المباشر"[29]، إلاّ أنّه الأكثر مسؤوليّة عن توجيه وتوجّه السّيرورة الإدراكيّة التي تبدأ مع المؤوّل المباشر للاستعارة ويتّضح مسارها أكثر مع مؤوّلها الدّينامي.

ب-المؤوّل الدّينامي: يقع المؤوّل الدّينامي للاستعارة (interprétant dynamique) في المرتبة الثّانيّة بعد مؤوّلها المباشر ويختلف عنه، إذ يتميّز الموضوع الدّينامي في عمومه بحركة تجديديّة مستمرّة، تخرج العلامة من دائرة التّحيين البسيط إلى التّأويل. فهذا المؤوّل لا يكتفي بما تقدّمه العلامة في مظهرها المباشر بل يمتاح عناصر تأويله من المحيط المباشر وغير المباشر للعلامة[30] وينقسم المؤوّل الدّينامي من حيث العلاقة التي يربط من خلالها بين الممثّل والموضوع حسب نوعيّة هذا الموضوع، فإذا كان موضوع الاستعارة مباشراً تكون المعطيات الذي يقدمها مؤوّلها الدّينامي من الدّرجة الأولى أي (مؤول دينامي1) وإذا كان موضوع الاستعارة ديناميّا، فإنّ المعلومات التي يوفّرها هذا المؤوّل تكون من الدّرجة الثّانيّة (مؤول دينامي2).

ب-1-المؤوّل الدّينامي1 : يُعتبر المؤوّل الدّينامي1 قراءة في المعطيات التي تودّ العلامة أن تقدمها حول موضوعها المباشر"دون البحث في السّياق الخارجي

الذي يحيط بهذا الموضوع، وعليه لا يمنح المؤوّل الدّينامي سوى الوقائع التي لها علاقة بالعلامة نفسها، أي أنّه لا يوفّر إلاّ المعارف، التي يمكن أن تكشف ما تريد العلامة قوله عن موضوعها المباشر"[31] داخل سياق العلامة نفسه.

ب-2- المؤوّل الدّينامي2 : يتحقق المؤوّل الدّينامي2 عندما يرتبط المؤوّل الدّينامي بالموضوع الدّينامي، و"في هذه الحالة يستقي المؤوّل الدّينامي معلوماته من سياق الموضوع، أيا كان بعده أي من مجموع المعارف والمعلومات المتّصلة بالموضوع"[32]، وإذا كان المؤوّل الدّينامي1 يرتبط بالموضوع المباشر، ولا يتعدى الكم المعلوماتي الذي توفره العلامة بخصوص هذا الموضوع، فإنّ المؤوّل الدّينامي2 يشكّل قراءة في سياق خارجي مباشر (خارجي أو سابق) عن معرفة الشّخص الذي يؤوّل، المؤوّل الدّينامي2 هو إذن قراءة في السّياق الاجتماعي (الخارجي) أو التّاريخي (السّابق) أو فيهما معاً، لوجود العلاقة بين العلامة وموضوعها الخارجي[33]، وتكمن أهمية هذا المؤوّل في كونه مسؤولاً عن تطوير المؤوّل الدّينامي الأوّل والمؤوّل النّهائي الأوّل.

ت- المؤوّل النّهائي: يتضمن المؤوّل النّهائي (interprétant final) : المؤوّل المباشر والمؤوّل الدّينامي، وهو كما يعرّفه بورس "الوقع الذي تولّده العلامة في الذّهن بعد تطوّر كاف للفكر"[34]، يعمل هذا المؤوّل على توقيف الفائض الدّلالي الذي يولّده المؤوّل الدّينامي، إذ يرى بورس أنّ هذه القوة الهائلة التي يطلق عنانها المؤوّل الدّينامي، يجب أن تتوقف في لحظة ما لكي تستقرّ الذات المؤوّلة على دلالة ما، إنّ هذه الوظيفة التّحجيميّة يتكفّل بها مؤوّل ثالث يطلق عليه بورس: المؤوّل المنطقي[35]، وتقوم هذه الوظيفة التّحجيميّة بتثبيط الحركة التّدليليّة «السّيميوزيس» بواسطة قوانين محدّدة تعرف عنده بالعادة «habitude»، التي "تجمّد مؤقتاً الإحالة اللامتناهيّة من علامة إلى علامة أخرى لكي يتسنّى للمتكلمين الاتفاق سريعاً على واقع سياقي إبلاغي معيّن، إنّ العادة تشل السّيرورة السّيميائيّة"[36] وتبدأ في التّشكّل على مستوى المؤوّل النّهائي1.

ت-1- المؤوّل النّهائي1 : يرتبط المؤوّل النّهائي1 بالمؤوّل الدّينامي1 ويتصف بأنّه عادة عامة لتأويل الأدلة، حيث تتولّد هذه العادة نتيجة تكرار شخص ما لفعل صادر عنه في زمان ومكان معيّن، حيث يصبح هذا التّكرار مع الوقت قاعدة عامة تخضع لها الأفعال المشابهة للفعل الأوّل، وهي «العادة» جماعية أكثر ممّا هي فردية لأنّها تكتسب عن طريق التّجربة الجماعية[37]، إذ يرى بورس أنّ العادة هي التّعريف الحسي، إنّها المؤوّل المنطقي النّهائي الأصيل، والحاصل أنّ أكثر الحسابات الخاصة بمفهوم ما، القابل للبث من خلال كلمات، يمكن في وصف العادة الخاصة التي يقوم هذا المفهوم بإنتاجها[38]، وإنتاج هذه العادة من طرف المؤوّل النّهائي يجعل منه مؤوّلا لا يتأسّس على معرفة بل على الاعتقاد فقط.

ت-2- المؤوّل النّهائي2 : يرتبط المؤوّل النّهائي2 بالمؤوّل الدّينامي2، ويمثل عادة متخصّصة في إدخال التّأويل في مجال متخصص يهتم بقطاع معرفي يخضع للمراقبة العلميّة، حيث "يرى بورس أنّ المؤوّل النّهائي في هذه الحالة يعيّن طريقة في الكشف عن حكم عام من خلال حالة خاصة. وتلك عادة الخبير الفني الذي يقوم برد حالة مجهولة إلى فنان بعينه، أو إلى مرحلة تاريخيّة بعينها، أو إلى مدرسة فنية بعينها أيضاً؛ وهي أيضاً عادة عالِم الحفريات الذي يقوم بتحديد تاريخ حجر ما استناداً إلى المعرفة التي يملكها عن تعدّد العصور الجيولوجيّة مثلاً"[39]، أي الوصول إلى قاعدة عامة من خلال حالة خاصة.

ت-3- المؤوّل النّهائي 3 : يختلف المؤوّل النّهائي3 عن سابقيه (المؤوّل النّهائي1 والمؤوّل النّهائي2) في كونه لا يرتبط بمؤوّل دينامي لأنّه "خارج السّياق فهو لا يقتضي تجربة معينة من أجل أن يوجد"[40]، وبذلك يمثّل الحدود القصوى التي يمكن أن يصل إليها الفكر الإنساني في تأوّيل ظاهرة معينة، حيث يضم هذا المؤوّل القوانين الخاصة بكل الأدلة أو الظواهر، التي استطاع الفكر أن يصل - وإن مرحلياً - إلى تحديدها بشكل كاف وغير متناقض. ولذلك، فهو يشكّل خلفيّة

معرفيّة مجرّدة، للبث في القضايا أو الأدلّة الوجوديّة المناسبة له، بفضل تحيين نسخته التي هي المؤوّل النّهائي2 [41]، وبفضل المؤوّل النّهائي3 ينتهي نشاط الحركة التّدليليّة تطبيقياً، وإن كانت من النّاحية النّظريّة تبدو غير متناهيّة.

2-4- الاستعارة والسّيميوزيس: يعرّف بورس السّيميوزيس بأنّها حركة أو سيرورة تفترض تشارك ثلاثة عناصر هي: الممثّل، الموضوع، المؤوّل، إذ لا يمكن للحركة المتداخلة بين هده العناصر الثّلاثة بأي شكل من الأشكال، أن تختصر في علاقات زوجية[42]؛ يعود أصل هذا التّعريف إلى مفهوم العلامة وبنائها الثّلاثي عند بورس، وقد تطرّقنا فيما سبق إلى العلاقة الثّلاثيّة التي تجمع بين الممثّل والموضوع والمؤوّل في العلامة السّيميائيّة، إذ يعتبر بورس السّيميوزيس "الفعل أو الأثر الذي هو تشارك"[43] هذه الأطراف الثّلاثة، حيث يحيل الممثّل على موضوع عبر مؤوّل، وهذا معناه النّظر إلى الدّلالة باعتبارها سيرورة في الوجود وفي الاشتغال، وليس معطى جاهزاً يوجد خارج الفعل الإنساني.

تبدأ السّيميوزيس في الاشتغال مع المؤوّل الدّينامي الذي "يحيلنا على حركية التّأويل، التي تعدّ أصل السّيميوزيس وطبيعتها الفعلية"[44]، وتستمر هذه الحركية مع المؤوّل النّهائي بأشكاله المختلفة، حيث يعيد كل مؤوّل قراءة الموضوع المباشر أو محتوى الدّليل ويوسّع في هذه القراءة انطلاقا من المعلومات الجديدة التي يكتسبها وهذا "الانتقال من مؤوّل إلى آخر يكسب العلامة تحديدات أكثر اتساعا، سواء أكان ذلك على مستوى التّقرير أو على مستوى الإيحاء"[45]، ويجعلها تدور في حركة تأويليّة غير متناهية، لكن الانتقال من مؤوّل إلى آخر يجعل التّأويل يقترب شيئا فشيئا من المؤوّل المنطقي النّهائي الذي تحكمه العادة، التي تحدّد السّياق الخاص لاشتغال المؤوّلات وإدراجها ضمن منطق خاص للتّدليل، فإذا كانت حركة التّأويلات غير نهائية من النّاحية النّظريّة كما ورد عند بورس، فإنّها من ناحية الممارسة تخضع للعادة التي تشلّ هذه السّيرورة السّيميائيّة على مستوى المؤوّل

النّهائي3، أي أنّها محكومة بحد ضروري منطقي يقيّد عمل الموسوعة وهو عالم الخطاب الذي يفرض بشكل ما إرغاما ته على مسار التّأويل[46].

وبما أنّ الاستعارة تتميّز بنفس الخاصية التي تتميّز بها العلامة السّيميائيّة بصفة عامة، أي خاصية التّحوّل على مستوى المدلول، فإنّها ستدخل في سيرورة سيميائيّة لا متناهيّة، كون "الاستعارة تعدّ ميداناً للعلامة بقدرتها على التّحوّل على مستوى المدلول، لكي يصبح بدوره علامة من نوع آخر تشير إلى مدلول آخر فيما يعرف بالتّحوّل الدّلالي"[47] أو السّيميوزيس.

5- الاستعارة والأيقونة: يدرج بورس الاستعارة ضمن العلامات الأيقونية والأيقونة (L'icône) عنده تنشأ نتيجة ارتباط العلامة بالموضوع في المرتبة الأولانية من مراتب الوجود**، حيث تعدّ الأيقونة "علامة فرعية أولى لبعد الموضوع، وهي تشبه الموضوع الذي تمثّله"[49] وتحيل عليه انطلاقاً من تشابه خصائصها مع خصائص هذا الموضوع.

تملك الأيقونة طابعاً تمثيلياً أو تصويرياً "يجعلها دالة حتى وإن لم يوجد موضوعها"[50]، لذلك "يعتبر الأيقون ممثّل «représentament» وخاصية التّمثيليّة هي أولانية الممثّل باعتباره أولا، أي خاصية كشيء تجعله مؤهلا لأن يكون ممثلا وتبعا لذلك، فأي شيء يمكن أن يصلح بديلا لأي شيء آخر يشبهه"[51]، أي بإمكانه أن يقوم مقامه، والأيقونة ليست علامة شبيهة بالموضوع الذي تعنيه لأنّها تعيد إنتاجه، إنّها كذلك، لأنّها قائمة على صيغ خاصة لإسقاط انطباعات إدراكية: «بروز، استعمال لجزء من الموضوع، نقل» من خلال التذكّر بتجربة «لمسية وسمعية»، أو من خلال لعبة سيرورة حسية مركّبة تفرض النّظر إليها باعتبارها شبيهة بتلك التي أحس بها في حضور الموضوع. وفي هذه الحالة، فإنّ مقولات التّشابه والتّماثل والتّناسب ليست تفسيرا لخصوصية العلامات الأيقونية، بل تشكّل مرادفات للأيقونة، وهذه الأيقونات لا يمكن تمييزها إلاّ من خلال تحليل مختلف الصّيغ المنتجة للعلامات[52].

وبما أنّ الأيقونة ترتبط بالتمثيل فإنّها تتجلى في العديد من الأشكال التصويرية إذ "يميّز بورس في قسم الأيقونات بين الصوّر التي تشبه الموضوع من بعض الجوانب، وبين الرّسوم البيانية التي تعيد إنتاج بعض العلاقات بين أجزاء الموضوع، وبين الاستعارات التي لا ندرك داخلها سوى تواز عام"[53]، فالصوّر الفوتوغرافية هي علامة أيقونية تمثّل شخص ما (صاحب الصّورة) وتنوب عنه في غيابة***، وإطلاق اسم أيقونة على صورة فوتوغرافية لا يراه إيكو سوى استعارة لذلك يقول: "إنّ الأيقونة هي بكل دقة صورة ذهنية متولّدة عن هذه الصّورة الفوتوغرافية"[54]، وعليه فهي مثل الاستعارة موجودة على مستوى الوعي، ونفس الشيء بالنّسبة للرّسم البياني فهو أيقونة لأنّه يمثّل الشّيء المرسوم وينوب عنه في غيابه**** "فالرسوم البيانية، شأنها شأن الاستعارات تؤسس لقضية أ /ب=س/"[55]. ويمكن أن نعتبر الاستعارة أيقونة في حدود أنّها تفرض تشابهاً بين طرفيها بمعنى أنّها علامة تحيل على شيء (موضوع) تشبهه.

إنّ الاستعارات التي تقبل الانطواء تحت قسم الأيقونات، هي الاستعارات التي لا تجد مؤوّلاً موسوعياً يحول دون انفتاحها على عدة موضوعات دينامية، أي تلك التي تماثل اللّوحة الفنية التي وإن كنا نرى نوعياتها «خطوط، ألوان أشكال»، ولا نجد في أذهاننا مؤوّلاً نهائيّاً لها نستطيع – مع ذلك – أن نحدس بموضوعها عن طريق اختلاقنا لمؤوّل خارجي يقوم بربط الممثّل بهذا الموضوع، الذي قد يكون صادقا أو كاذبا. إلاّ أنّ هناك بعض الاستعارات التي يصعب علينا أن نضعها في حافة الأيقونة لأنّ المتلقّي يستطيع أن يربطها بموضوعها الدّينامي، وتنتمي هذه الاستعارات إلى نوع الاستعارات المستهلكة أو الميتة، التي تحت مفعول التّكرار والزّمن، أصبحت رغم انزياحها عن مؤوّلات أدلتها الجزئيّة، ممتلكة في كلياتها لمؤوّل موسوعي مباشر[56].

6- الاستعارة والرّمز: يعقد بول ريكور صلة بين الاستعارة والرّمز نظرا لأهمّية نظريّة الاستعارة في تجاوز الصّعوبة التي تتميز بها الرّموز؛ والرّموز هي عبارة عن علامات تقترن بموضوعها في المرتبة الثّالثانية من مراتب الوجود حيث يعرّف بورس الرمز بأنّه علامة تحيل على الموضوع الذي تعيّنه بموجب تلازمات أفكار عامة تحدد مؤوّل الرّمز بالإحالة على هذا الموضوع، إنّه هو ذاته نمط عام أو قانون أي علامة قانون (Legisine)[57]، واشتغال العلامة كرمز أو كقانون يتم عبر عرف، "فالرّمز علامة اعتباطية، تستند في ارتباطها مع موضوعها إلى عرف، وأبرز مثال على ذلك هو العلامة اللّسانية"[58]، هذا ما يجعل الرمز يتصف بالعمومية التي تجعل من كل كلمة وكل علامة اتفاقية رمزاً.

يتميّز الرّمز ببنية مزدوجة تتشكّل في جانب دلالي وآخر لا دلالي، ويصطدم بمعضلتين تجعلان من الدّنو المباشر من بنية هذا المعنى المزدوج أمرا صعبا تتمثل المعضلة الأولى – حسب ريكور– في أنّ الرّموز تنتمي إلى حقول بحث متعدّدة جداً ومتشعبّة، أما الثّانية فهي في كون الرّموز تجمع بين بعدين، بل يمكن القول بين عالمين للخطاب، أحدهما لغوي والآخر من مرتبة غير لغوية[59]، هذه الصعوبة الخارجية يوضحها ريكور في ضوء نظرية الاستعارة عبر ثلاثة خطوات هي كالآتي[60] :

– تحديد النّواة الدّلالية التي يتسم بها كل رمز، مهما بلغت الفروق بينهما، على أساس بنية المعنى القائم في الأقوال الاستعارية.

– يتيح لنا العمل الاستعاري للّغة أن نعزل الطبقة اللا–لغوية من الرّموز، وأن نفرز مبدأ انتشارها من خلال منهج المقارنة.

– يمثّل الفهم الجديد للرّموز مبحث تطورات لاحقة في نظرية الاستعارة، قد تبقى من دونه خفية غير منظورة، حيث يعمل هذا الفهم الجديد للرّموز على اكمال نظرية الاستعارة وخلق خطوات وسطى تسمح بردم الهوة بين الاستعارة والرّموز.

من هنا يرى ريكو أنّ الاستعارة ترتبط بالرّمز في جانبه الدّلالي، لذلك تعدّ العنصر الكاشف المناسب لإضاءة هذا الجانب الذي له مساس باللّغة، حيث تقدم لنا العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي في منطوق استعاري دليلا مناسبا يتيح لنا أن نحدّد على نحو صحيح السّمات الدّلالية للرّمز، وهذه السّمات هي التي تربط كل رمز باللّغة، وعليه تضمن وحدة الرّموز، ولكي تؤدّي الاستعارة وظيفتها في الكشف عن الشّق الدّلالي للرّمز، يؤكّد ريكو على ضرورة دراستها وفق النّظرية التّفاعلية لا الاستبدالية، حيث يعمل التوتر القائم في الاستعارة على إيجاد كل الدّلالات الممكنة عن طريق التّفاعل، ممّا يُؤدي إلى اتساع المعنى في الاستعارة، وهذا ما يحدث في الرّمز، إذ يعمل بمعناه العام بصفته فائض دلالة ودراسة الاستعارة وفق النّظرية التّفاعلية، يبّين كذلك عمل الاستعارات كسلسلة أو كشبكة متلاحمة تستدعي فيها كل استعارات أخرى وتؤثّر فيها عن طريق التّفاعل، ممّا يضمن لها الحيوية والاستمرارية، حيث تبقى الاستعارة حية بالحفاظ على قدرتها في استحداث الشّبكة الدّلالية وتوليد معاني جديدة تمنعها من الاضمحلال[61].

أمّا الاستعارة حين تتناولها الجماعة اللّغوية وتقرّبها، تختلط بامتداد لا حصر له من الكلمات المتعددة المعاني. في البداية، تبتذل الكلمة، ثم تتحوّل إلى استعارة ميتة. وفي المقابل، لأنّ الرّموز تمدّ جذورها في أصقاع الحياة والشعور والعالم ولأنّ لها ثباتاً استثنائياً، فإنّها تفضي بنا إلى التّفكير بأنّ الرّمز لا يموت، بل يتحوّل فقط. من هنا، إذا تشبثنا بمعيار الاستعارة، فلا بدّ أن تكون الرّموز استعارات ميتة[62].

يؤكّد ريكو في هذا المقام علاقة الاستعارة بالرّمز وهي علاقة تداخل تبيّن الجانب الرّمزي في الاستعارة والجانب الاستعاري في الرّمز، لذلك يخلص إلى وجوب تقبّل قضيتين متعاكسين حول العلاقة بين الاستعارات والرّموز، فمن جانب نجد الاستعارة أكثر اتساعا من الرمز لأنّها تزوّد اللّغة بعلم دلالة ضمني للرموز

وما يبقى مختلطا في الرمز وهو دمج شيء بآخر، ودمجنا بالأشياء، والتّجاوب اللانهائي بين العناصر يتم توضيحية في توتر المنطوق الاستعاري، ومن جانب آخر نجد الرمز أكثر اتساعا من الاستعارة فهي ليست سوى إجراء لغوي؛ أي شكل غريب من أشكال الإسناد، يختزن في داخله قوة رمزية. ويظلّ الرّمز ظاهرة ذات بعدين، حيث يشير وجهه الدّلالي إلى وجهه اللا- دلالي، وهو مقيّد بطريقة لا تتقيّد بها الاستعارة، فللرّموز جذور تدخلنا إلى تجارب غامضة. أمّا الاستعارات، فليست سوى سطوح لغوية للرموز[63]، وارتباط الاستعارة بالرّمز بهذه الطّريقة يعني ارتباط الاستعارة بالبيئة الثّقافية التي أنتجت هذا الرّمز، وهذا ما يسمح برؤية الاستعارة كعلامة ثقافيّة، يرتبط تأويلها بالموسوعة الثّقافية للقرّاء.

الهوامش:

1- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المنظمة العربيّة للترجمة، ط1 بيروت 2005، ص.236.

*- يُعنى الاشتغال السيميائي بدراسة كل أنواع العلامات السّيميائيّة بشقيّها اللّغوي وغير اللّغوي والتي تتوفّر على معنى وتحقّق شرط التّواصل.

2- يُنظر: حسين خالفي، نسقية اللّغة ولا محدودية الدّلالة، مقالة في مجلة الخطاب (دورية أكادمية محكمة تعنى بالدرسات والبحوث العلمية في اللّغة والأدب)، ع2، منشورات مخبر تحليل الخطاب جامعة مولود معمري، تيزي-وزو 2007، ص.333.

3- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثّقافي العربي، ط1 الرّباط 2000، ص.235.

4- م. ن، ص.ص.14-15.

5- يُنظر: فرنسوا را ستي، المعنى بين الذّاتية والموضوعيّة، ترجمة: سعيد بن كراد.
saidbengrad.free.fr/tra/ar/page7-10.htm

6- يُنظر: محمد الماكري، الشكّل والخطاب، (مدخل لتحليل ظاهراتي)، المركز الثّقافي العربي ط1، الرّباط1991، ص.45.

7- م. ن، ص.44.

8- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ترجمة وتقديم: عبد الرحمان بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، ط1 الدّار البيضاء2000، ص21. حيث يشير الحرف (o) إلى (objet أي موضوع)، والحرف(I) إلى (interprétant أي مؤوّل)، والحرف(R) إلى (representament أي ممثّل).

9- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل، مقالة في مجلة علامات، عدد9، 1998.
http://www.saidbengrad.com/al/n9/12.htm.

10- يُنظر: أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التّعاضد التّأويلي في النّصوص الحكائيّة)، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البضاء 1996، ص.34.

11- م. ن، ص.35.

12- يُنظر: أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثّقافي العربي، ط1، الدّار البيضاء2007، ص.215.

13- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات(مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.68.

14- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل:
http://www.saidbengrad.com/al/n9/12.htm

15- م. ن.

16- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التّأويلي في النّصوص الحكائيّة)، ص. 51.

17- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ص.185.

18- محفوظ عبد اللطيف، آليات إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر2008، ص.85.

19- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.96.

20- م. ن، ص.85.

21- يُنظر: م. ن، ص.19.

22- يُنظر: سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتأويل.

23- يُنظر: أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص.132.

24- يُنظر: م. ن، ص.ص.140-141.

25- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ص.108.

26- جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.18.

27- يُنظر: سعيد بنكراد، المؤول والعلامة والتأويل.

28- أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص.139.

29- محمود عبد اللطيف، آليات إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، ص.102.

30- يُنظر: م. ن، ص.ص.139-140.

31- محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.55.

32- م. ن، ص. ن.

33- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.98.

34- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

35- أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص. 140.

36- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

37- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.98.

38- يُنظر: أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، ص.272.

39- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

40- محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.56.

41- يُنظر: محفوظ عبد اللّطيف، آلية إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، ص.106.

42- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.20.

43- م. ن، ص.41.

44- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

45- أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص.120.

46- يُنظر: سعيد الحنصالي، الاستعارات والشّعر العربي الحديث، دار توبقال للنشر، ط1 المغرب 2005، ص.104.

47- محمد سالم سعد الله، مملكة النّص (التّحليل السّيميائي للنقد البلاغي، الجرجاني نموذجا) عالم الكتب الحديث للنشر والتّوزيع، ط1، عمّان 2007، ص.58.

48- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط23، بيروت 2008 ص.22.

**- يناسب الوجود الأوّل عند بورس مرتبة الأوّلانية (Primeité)، والوجود الثّاني يوافق مرتبة الثّانيانية (Secondeité)، والوجود الثّالث يناسب مرتبة الثّالثانية. يُنظر: محمد الماكري الشّكل والخطاب (مَدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.43.

49- جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.17.

50- م. ن، ص.78.

51- محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.48.

52- يُنظر: أمبرتو إيكو، العلامة (تحلبل المفهوم وتاريخه)، ص.ص.99-100.

53- م. ن، ص.96.

***- نلاحظ ذلك في بطاقة التّعريف وجواز السّفر، وغيرهما من الأوراق الثبوتيّة التي تحمل صورة فوتوغرافيّة تنوب عن الشّخص وتغني عن حضوره.

54- أمبرتو إيكو، العلامة (تحلبل المفهوم وتاريخه)، ص.245.

****- مثل الخريطة، والرّسم البياني الخاص بالتّخطيط الهندسي.

55- أمبرتو إيكو، العلامة (تحلبل المفهوم وتاريخه)، ص.ص.99-100.

56- يُنظر: محفوظ عبد اللطيف، آليات إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، ص.87

57- يُنظر: محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.51.

58- أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، ص.91.

59- يُنظر: بول ريكو، نظرية التّأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1 المركز الثّقافي العربي الرّباط2003، ص.ص.94-95.

60- يُنظر: م. ن، ص..96

61- يُنظر: م. ن، ص.ص.96-109.

62- م. ن، ص.108.

63- م. ن، ص.ص.102-103.

مالك بن نبي: فكر يحتاج إلى تجسيد

أ. يوسف يحياوي
جامعة بجاية

مقدمة: كنت وأنا تلميذ في الثانوية أو طالب في الجامعة أسمع (اسم مالك بن نبي) يُذكر فلا أعيرُ له اهتماما، حتّى كان اليوم الّذي أهمّتني حصّة في قناة تلفزيونيّة استضافت مثقّفا من الغربيّين الّذين أسلموا فأخبر أنّ من أهمّ أسباب دخوله في الإسلام كتابًا بعنوان الظّاهرة القرآنيّة للمفكّر الجزائريّ (مالك بن نبي). فقلتُ في نفسي لا بدّ لي أنْ أقرأ هذا الكتاب وأعرف شيئا عن مؤلّفه. ورغبْتُ حينئذ في مطالعة النسخة الأصليّة بالفرنسيّة فلم تقع بين يديَّ فاكتفيْتُ بالتّرجمة إلى العربيّة لعبد الصّبور شاهين.

وقد أفادني ذلك من جوانب عدّة، منها أنّي فهمتُ أشياءَ عن كتاب الله تعالى لم أجدْها في كتب التفاسير المشهورة، وأعانتني على دفع الشّكوك الّتي يبثّها شياطين الجنّ والإنس في قلوب العباد بشأن المصدر الإلهي للكتاب، وأدركتُ ما فاتني من أمر الرّجل الّذي عدّه المفكّرون فيلسوف الأمّة ومنظّرُها من شأن فكرِه أنْ يُصحِّح بعض مفاهيمها ويُعينها على النهوض.

ذلك ما دفعني إلى النّظرِ في سيرته، ثمّ في كتُبِه النّسخ الأصليّة والمترجمة والاستنارة بتأمّلاته لتبلغ أبصارُنا آفاقَ الحضارة والثّقافة. فوجدتُه أحسنَ من عمِل بقولِ المصطفى **(صلى الله عليه وسلم)** "الحكمةُ ضالّة المؤمن، أينما وجدها فهو أحقّ بها. "حيث إنّه تشبّع بالفكر الإسلاميّ تشبّعا لم يمنعْه من الاطّلاع على ما أنتجتْه عقول الفلاسفة الغربيّين من فكرٍ وإنْ غالت في المادّيّة، فقد تطوّرت بها بُلدانٌ طبّقتْها في بناء أنظمة سياسيّة واقتصاديّة ولاسيما البلدان الغربيّة الّتي اعتدت علينا حين ضعُفنا ولا نزال ضعفاءَ أمامَها لم ننهضْ بأمّتِنا، وما ينقصُنا سوى الإرادة والعزم. فالمادّة الّتي

قامت عليها الحضارة الغربيّة لمْ نُعدَمْها فالله سبحانه وتعالى قد أنعم علينا بثروات نحن عليها محسودون، وأمّا الفكر فقد قيّض له سبحانه رجالا مفكّرُنا واحدٌ منهم استهدَى بهدْي المصطفى **(صلى الله عليه وسلم)** وسيرة خلفائه الرّاشدين، وأخذ من حكمة علماء الأمّة ونظر في كتُب الغربيّين فشرع يؤسّس لنظريّة سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة تنهض به الأمّة وتستعيد مجدَها المفقود.

1- من هو مالك بن نبيّ؟[1] اتّفق الكثير من الدارسين لفكر (مالك بن نبي) على أنّه أحد عباقرة الفكر العربي الحديث بلا منازع. ولد سنة: 1905م بقسنطينة من أسرة إسلامية محافظة؛ تلك المدينة الممزوجة بالثقافتين: العربية الإسلاميّة والثقافة الغربية، حيث استطاع أن يستفيد من هاتين الحضارتين كما استفاد من علمائها أمثال الشيخ عبد المجيد، والشيخ مولود والشيخ بن باديس، وهذه الشخصيات البارزة أصحاب العمائم وأصحاب الانتماء؛ وجد فيهم روافد الحضارة الإسلامية حيث قضى حياته مجاهدا في سبيلها. ومن جانب آخر كان متأثّرا بالمدرسة الفرنسية لعلاقته الوطيدة بأساتذته.

بدأ حياته في التأليف في بداية الأربعينيات حيث أعاد كتابة مخطوطه الأول "المعجزة القرآنيّة" الذي أحرق بفعل الحرب العالمية الثانية والغارات الجويّة، ونشر كمذكّرة في الجزائر سنة: 1946. ليتوالى عمل التأليف والجهد الفكري بنشر الكتاب الّذي ضمن شهرته وهو: شروط النهضة.

عرف الترحال بين دول المشرق فزار القاهرة ولبنان حيث ألقى فيهما عدّة محاضرات وندوات[2]. وفي أواخر 1956م ساهم بتعريف كفاح الشعب الجزائري وقام بنشر دراسة بعنوان "نجدة الجزائر" سنة: 1957، ثمّ وجّه ملتقيات إيديولوجية للطلبة المسلمين (من: 1957 إلى 1962). توفي يوم 31 أكتوبر 1973م، وترك وراءه مجموعة من المؤلفات التي تناولت قضايا العالم المتخلِّف، وألف سلسلة كتب تحت عنوان "مشكلات الحضارة".

2- مالك بن نبي وعالم الأفكار: لقد كان للبيئة الاجتماعيّة الأثر البالغ في حياته الفكرية. وأمام مزاحمة العلوم ومختلف الأفكار لمالك بن نبي، وجد نفسه بين عالمين اثنين متناقضين هما: عالم الحضارة الإسلامية الذي كان يمثّله الشيوخ، وبين عالم الأفكار الذي يمثّله الغرب وبالأحرى فرنسا؛ حيث كان يستعيرها من أساتذته.

لو أسلم الغرب لحق فيهم قوله تعالى**<<وإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم>> محمد {38/37}**؛ إذ تحققت بهم عمارة الأرض التي لغايتها أهبِط آدم إلى عالمنا هذا، وإن أخفقوا فيما خُلق الجنّ والإنس من أجله وهو عبادة الله تعالى. فالخطاب في الآية الكريمة يعني: إما أن تؤدوا الأمانة التي كُلفتم بها أو يأت الله بقوم آخرين يؤدونها. فكان معروفا بعلاقته مع رجال السياسة أمثال بن بلى وجمال عبد الناصر، غير أنّ علاقته معهم كانت علاقة أشخاص ولم يمارس معهم السياسة، "لقد جعلناك لتكون نور الأمم، لتحمل الخلاص حتى أطراف الأرض:

Esaïe13.47 [3]Car ainsi nous l'a ordonné le Seigneur : Je t'ai établi pour être la lumière des nations, Pour porter le salut jusqu'aux extrémités de la terre.:

كان بنو إسرائيل الأمة المفضلة على العالمين تفضيلا مشروطا بسلوك منهج الله الذي ارتضاه لعباده، وإذ لم يكونوا كذلك صاروا أمّة مغضوبا عليها يدعو المسلم ربّه أن يجنّبه صراطها ليظلّ ممن قال فيهم سبحانه: **<<"كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس>>** ولا يتأتى ذلك إلاّ بأداء الأمانة التي كُلِّف بها وإلاّ كان من جملة من خاطبهم الله سبحانه بقوله: **<<وإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم>>**. "فالحضارة الغربية، باعتبارها شغالة ومهنيّة[4]؛ قد صنعت النموذج الاجتماعي المطبوع بما نسميه مثاليتها، أي المطبوع بالعبقريّة التي تتمثّل فيما يطلق عليه الإنجليزي "الشغل" "Business" وبالحكمة التي يعبّر عنها هذا الرجل فيقول: - إنّ الوقت درهم ...

3- كيف نبني الحضارة؟ بناء مجتمع مبني على العصرنة يقتضي أن تحكمه نخبة لأنّهم يمثّلون النواة في الفكر -في حدّ قوله- هذا، ويعتبر مالك بن نبي قلما

يفكّر في مسائل الحضارة، ولم تكن فيه الجرأة في مناقشة الأفكار السياسيّة. كلّ مفكّر لديه طموحات على أن يصبح إنسانيا، أمّا مالك بن نبي فيطرح مشروعا فكريا، ويرى بأنّ أفكاره لا يمكن أن تتجسّد في أرض الواقع ما لم تتبنّها نخبة سياسيّة أو سلطة؛ فكارل ماركس مثلا ما كانت لأفكاره أن تتحقّق لولا تبني لنين لجزء من الفكر الماركسي. كان ينظر إلى السياسة كأحداث وليست ممارسات، فهو ينتقد الممارسات السياسية ويطمح في نفس الوقت أن يتحصّل على جائزة نوبل وهو الذي كان يقول: "أنا أوّلى من غيري"[5] فهو إنسان طموح ا وهذا الطموح يبحث على من يحققه، فكان من الأوائل الذين دعوا إلى تجديد علم التفسير وذلك بالاستعانة بالعلوم الإنسانيّة ومزجها بالعلوم القديمة كاللغة والبلاغة والفقه.

2- تأثّره: تأثر مالك بن نبي بـــ المهدي بن تومرت الذي أسّس دولة الموحّدين بوجود قيادة عسكرية تبنّت هذا الفكر، وكان متأثرا بمحمد بن عبد الوهّاب في البداية. كان يتمنى أن يكون أحد مفكري الثورة الجزائرية، وقال بأنه بأفكاره يكون أقرب في تنظير الثورة من فرانس فانون، حيث انتقد هذا الأخير قائلا: "أنا كمفكر أفضل وأقرب للواقع الثوري السياسي من فرانس فانون"؛ فبهذا فأنّ (مالك بن نبي) يحمل هاجس التغيير وتطبيق الأفكار، وليس فقط مفكّر ينظّر دون أن تتحول الأفكار إلى واقع ملموس.

3- فكرة المفهوميّة[6]: (الأدلوجة) وهي المبادئ التي تقوم عليها سياسة البلد، إذ جمع فيها (مالك بن نبي) ثلاثة عناصر هي: العروبة، الإسلام والاشتراكيّة؛ فجاءت معظم كتاباته قريبة من الواقع المعيش حيث الاتّجاه الاشتراكي الحاضر في البلاد العربية، فمن الطبيعيّ أن يتبنى أفكارهم.

وتُكوّن المفهوميّة بصورة عامة جزءا من ظاهرة القرن العشرين، والمصطلح مستخلص لأوّلّ مرّة منذ ما يقارب ثلاثين سنة في مؤلفه (وجهة العالم الإسلامي) قد ألهم فلسفة سياسيّة.

4- مالك بن نبي ومشروعه الحضاريّ: قرأ (مالك بن نبي) ما كتبته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهم رجال الإصلاح والنهضة، ثمّ وجد بأنّ هذا الفكر لم يشف غليله ولابد من فكر آخر، "ضعفنا الداخلي هو سبب ضعفنا[7]؛ وهذا ما دفعه إلى قراءة كتابات المشارقة أمثال: جمال الدين ومحمد عبده ليتأثّر بهما في طريقة التفكير وحسم الأمور؛ فوجد فيهما نظرة سياسيّة عكس النظرة الإصلاحيّة. وعليه، أراد أن يبنيّ مشروعا جديدا يخالفهم، فانطلق من الفكر العقلاني الأوربي ثمّ مزجه بالفكر التأصيليّ الإسلاميّ ثمّ بالخيار السياسيّ؛ فـــ"النّشاط الفردي الّذي يمثل أحد مركبات ذلك النشاط الجماعي خاضع في حدّ ذاته لشروط تجعله لا يستطيع التحقّق بدونها، فقد تعودنا بالنسبة إلى الآلة على الواقع القائم في أنّ عملها لا يمكنه أن يتحقق إذا نقصتها حزقة أو صامولة écrou"[8] ؛ وفي النهاية استطاع أن يبني نظريته ومعادلته الحضاريّة المتمثّلة في:

- الإنسان،
- التراب،
- والزمان

والمركّب بينها هو الفكر الدّينيّ.

المعادلة الحضاريّة في نظر (مالك بن نبي):

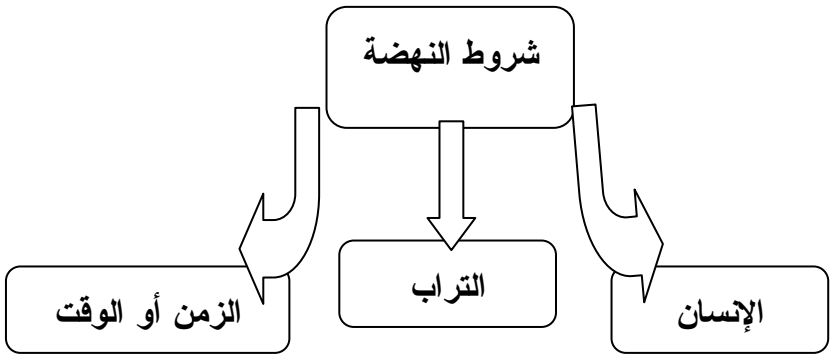

5- لماذا يعزف الشباب عن اقتناء كتب المفكّر؟ من الواضح أنّ النّاس المهتمين بالقراءة هم فئة تراوحت أعمارهم ما بين 40 و60 سنة، فالقليل من الذين يعرفون الكثير عن مالك بن نبي، ولعلّ كتاب (نور الدين بوكروح)[9] هو الّذي أحياه وأحيا كتبه في العالم العربي، ولا نجد في الجزائر وحتى في الجامعات من سمع برواية: لبيك: Le pèlerinage d'un pauvre، التي صُدِرت ثمّ فُقِدت. والكثير منا يتساءل عن المكان الّذي يُصنَّف فيه (مالك بن نبي)، أهو عالم اجتماع؟ أهو فقيه؟ أم مؤرّخ؟ أم مصلح؟ أم مثقّف (بمفهوم مولود معمري الّذي يعني: المثير Le provocateur [10])؟ إنّ القضايا التي يطرحها مالك بن نبي كلّها تنطلق من المجتمع الجزائريّ على أنّه جزء من هذا العالم، فهو مفكّر من الطّراز العالميّ. فعندما يتناول الإنسان يضعه بمعناه الصحيح Homme الّذي يوحي بنوع من القوّة، "وكان الشعب الجزائري يعيش في بلاد سدّ فيها المستقبل أمامه، حيث كان الفرد يولد والتشاؤم يملأ أعماقه وروحه، لأنّه كان يفقد الدوافع الوجودية الباعثة التي تتيح للإنسان أن يكرّس نفسه للحياة أو الموت من أجل شيء معيّن[11]". أمّا كلامه عن التراب فيقصد به المعنى العام، وكذلك الزمن بمعناه الّذي لا حدود له، فتجاوز فكره حدود الجزائر، ونال اهتماما كبيرا في كثير من دول العالم.

6- فكر مالك بن نبي وفكر السيد قطب[12]: من الطبيعيّ أن يستخف بنا المشارقة من الجانب الفكري، كونَهم السبّاقين إلى التأليف والكتابة، فانبهروا بما أنتجه الأزهر في مختلف المجالات الفكرية والعلمية، وكانوا يعتبرون المغاربة في خانة التلميذ أو الفكر البسيط. فالسيّد قطب انتقد مفكرنا (مالك بن نبي) وحاول أن يستهتر بفكره، رغم تكوين كلّ منهما المختلف عن الآخر؛ فقد كتب السيد قطب بأنّه سيصدر عنه كتاب اسمه: (نحو مجتمع إسلاميّ متحضّر)، وعندما أُصدِر الكتاب حذف السيد قطب فيه كلمة متحضر من عنوانه ليبقى على الشكل الآتي: نحو مجتمع إسلامي، وهذا ما لفت انتباه مالك بن نبي على أنّ المجتمع الإسلاميّ وكأنّه بالضرورة مجتمع متحضر! وفي نظره؛ المجتمع الإسلامي يمكن أن يكون متحضرا كما يمكن له ألا يكون، وهذه فكرة

عميقة لدى مالك بن نبي فهو يفرّق بين المجتمع الإسلامي وبين العقيدة؛ فأوّل ما يحتاجه الإنسان المسلم – في حد قوله– هو الفعاليّة[13]، وليس الخلل في العقيدة، وهذا ما ذهب إليه في تياره الفكري الجديد.

7– فكر مالك بن نبي والترجمة: يقال بأن الترجمة خيانة[14]، والمفكر مالك بن نبي يكتب بلغة فرنسيّة راقية فيها اصطلاحات دخيلة من اللغة العربية، وهي ناتجة عن تطوّر علم الاجتماع والفكر الفلسفي والعلمي السّائدة في ذلك الوقت، حيث لم تراع ترجمة كتبه المفهوميّة وهذا ظلم في حقه، كما ظلمناه عند قراءة كتبه قراءات ذاتية فجعلناه عالما مصلحا وعالما اجتماعيا،ــ والبعض الآخر يصنفه ضمن كتاب الحضارة. وظلمناه أيضا عند قراءاتنا التفسيرية للمشكلات الحضارية التي كانت مطروحة في ذلك الوقت وهو كاتب الحضارة.

تكلّم مالك بن نبي عن تأخّر المسلمين ولم يتكلّم عن القرآن الكريم وسنّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم، فهي كتب مقدّسة فيها مفاتيح الحضارة. وقال بـــ: "أنّ العالم الإسلامي يعاني من أزمة الحضارة، وحلّ ذلك يكون بتأسيس حضارة جديدة"؛ وتأسيس هذه الحضارة الجديدة في نظره تكون نتاج الثقافة والمعرفة. وفي السبعينيات كان يقيم ندواته باللغتين العربية والفرنسية الموجّهة إلى المعربين والمفرنسين، حيث بيّن أنّ قوّة الفكرة وصحتها تظهر في تعميرها طويلا[15]. فقال بأنّ الأفكار تتطور بهدوء وتكتمل شيئا فشيئا. وأشاد مالك بقابلية الاستعمار في مشروعه الحضاري، وأوضح سبب تخلّف العالم العربي الإسلامي. وقال بأنّ عامل الاستعمار[16] ليس سببا وحيدا في هذا التأخّر، فأضاف عاملا آخر وهو "قابليّة الاستعمار"[17]. إنّ أفراد المجتمع يشتركون في سلوك المعرفة التي تؤسس الثقافة، ثمّ إنّ الحضارة نتاج لهذه المعرفة. وإذا تأمّلنا جيدا مجال التعليميّة نجد أنّ فرنسا قد أسست مدارسها ومشروعها الثقافيّ في بيئة متطورة حضاريا مع فئة من النخبة غير نخبة مالك بن نبي، الّذي عاش في أسرة محافظة، حيث وجد نفسه في العالم الثالث الذي يتخبط في أزمة نفسية اجتماعية واقتصادية، وهي الأزمات التي ركنت

الإنسان العربي فلم يبحث الإنسان آنذاك عن شروط النهضة، مما دفع مالك بن نبي أن يكتب كتابا حول شروط النهضة – كما سلف الذكر– لأنّ الاستعمار يستولي على الإنسان إذا كان غير يقظ[18]، ثمّ إنّ مجتمعات العالم الثالث تستهلك أكثر مما تنتج، وقضيّة الاستهلاك دلالة على قابليّة الاستعمار، فساعد ذلك المستعمر في جعل الجزائري يتبني فكرة الازدواجية (التجنس بالجنسية الفرنسية)، فـ"داخل الضباب يكون من العسير على الإنسان أن يشقّ به طريقا معيّنا"[19]، وتصدى لها مالك بن نبي بطرحه هذه الفكرة على أنّ هذا الشعب ليس محكوما عليه بهذه الظروف، إذ لابد من النهوض والتفتح نحو عالم الأفكار، ممّا أثار قضيّة الطموح في تجاوز ما وصله الغرب من رقيّ علميّ وازدهار ثقافيّ.

8- الغرب في مفهوم مالك بن نبي: ينصحنا مالك بن نبي بألاّ ننظر إلى المجتمع الغربي كغزاة أو استعمار فقط! وإنّما الغرب حضارة، مثلما كان للمسلمين – في وقت مضى– حضارة راقية امتدّ صداها عبر التاريخ؛ تلك الحضارة التي أقلع بها العربيّ عن طريق العلم والإبداع، فأضافوا جديدا على الحضارات الغابرة من اليونان والرومان، ومن تبنى هذه الفكرة (أي النهضة) فهو إنسان بناه علم الأفكار. "وحيث إنّ إرادة الاستعمار تقتضي وضع الإنسان في عالم الأشياء، فإنّ حكمة إبليس تقتضي أنّ الإنسان الّذي وضع هذا الموضع، لا يجوز له أن يتكلّم لغة الإنسان، لأنّه **<<** شيء **>>** والشيء لا يقول: فكري، وأجرتي، ولقمة عيشي"[20] لذلك نجده يتحدّث عن الثالوث: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأفكار وهي من شروط النهضة. وعندما نظر إلى الغرب وجده فيه هذا الثالوث المتمثّل في وجود علماء ومنتجات وإبداعات ومهارات.

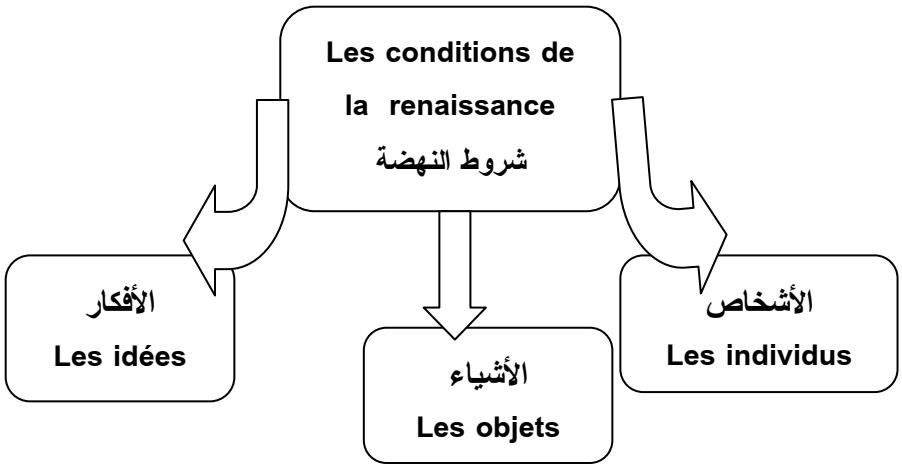

9- مكانة مالك بن نبي في العالم العربي: لم يُقرأ هذا المفكّر قراءات موضوعيّة، فهناك من تناول كتبه من منظور إسلاميّ، كما أنّ هناك من قرأه من زاوية اجتماعيّة، لكنّ الجميع يتّفق في فكرة واحدة هي أنّ مالك بن نبي قد حاول أن يُهندس المجتمعات العربيّة لخروجها من التخلّف. هذه الاختلافات حول فكر مالك بن نبي دليل على قوته، ففكره ثريّ ينظر إلى الحضارة من زوايا مختلفة. وقمين بي أن أشير إلى من عاصره من العلماء العرب الذين كانوا ينظرون إلى الحضارة كمشكلة إسلاميّة أو اقتصاديّة محضة، دون أن تكون لهم نظرة شاملة وملمة بجوانب الحضارة كما كان ينظر إليها. فالإنسان في رأيه هو الّذي يصنع الحضارة [21]، رغمّ كونه معقّد التركيب، حيث يصعبٌ فهمه.

10- أثاره ومؤلّفاته: لم نعط مفكرنا حقّه من العناية، وحان الوقت لنستدرك ما فاتنا من فكره العالمي الّذي يجب أن نعود إليه اليوم ونستقي من معينه الفكري لننهض بالجزائر من الركون إلى الحضارة. إنتاجه متوفّر في الجزائر، وكلّ مؤلفاته تطرح تقريبا نفس الفكرة وهي المشروع الحضاريّ والنهضة، ذلك المشروع الّذي تبنّاه نور الدين بوكروح في كتابه، وطرحه المشارقة الّذين عرّفونا به، ولم يكن للمغاربة دور في نشر فكره إلاّ مؤخّرا بعد الثمانينات في (سلسلة بن مالك).

ومن ـــأهمّ مؤلّفاته: – شروط النهضة 1948. Les conditions de la renaissance

– الظاهرة القرآنية: 1946.

– Le problème des idées dans le monde musulman.

– Les grands thèmes

– وجهة العالم الإسلامي 1954.

– الفكرة الإفريقية الآسيوية 1956 .

– مشكلة الثقافة 1958.

– الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة 1959.

– تأملات 1961.

– فكرة كومنولث إسلامي 1958 .في مهبِّ المعركة 1962

– مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1970.

– الرشاد والتيه 1972.

– دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين محاضرة ألقيت في 1972.

– المسلم في عالم الاقتصاد: 1972.

خاتمة: لقد عرف مالك بن نبي اضطرابات كثيرة بعد صراعه الفكري بين مختلف الثقافات التي كان يتبناها؛ بين المجتمع الأوروبي المادي وبين المجتمع الإسلاميّ الذي مثله بلدنا الجزائر كجزء من العالم الإسلامي. ولم يكن مالك بن نبي من المجتمع الأوربي الذي عاش فيه بجسمه في شيء، حيث استطاع أن يتحرّر من نفوذه فضلا على تعمّقه في الثقافة الغربيّة مَصْدَرا وموردا. وهذا ما جعله يجمع بين الثقافة الفلسفية والثقافة الاجتماعيّة إلى جانب ثقافته العلميّة الّتي صقلت موهبته، وفسحت له آفاق التفتح على المجتمع العالمي. ومن دخل هذا العالم غير مقلّد حقّق لنفسه مكانا كريما فيه، وسدّ حاجاته في هذا القرن.

الإحالات والهوامش:

1- يوم: 2013/12/20 على الساعة: 09.35 "www.fikr.com".

2- نور الدين بوكروح، الإسلام، دون الإسلاموية (L'islam sans l'islamisme) حياة وفكر مالك بن نبي. الجزائر: 2006. منشورات سمر، ص: 26 .

3- Esaïe13.47 Car ainsi nous l'a ordonné le Seigneur : Je t'ai établi pour être la lumière des nations, Pour porter le salut jusqu'aux extrémités de la terre.

4- مالك بن نبي، في مهب المعركة (باعة الحضارة)، ص: 116.

5- نور الدين بوكروح، الإسلام، دون الإسلاموية حياة وفكر مالك بن نبي. منشورات سمر، عام 2006، ص: 59 .

6- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ترجمة: عمر كامل مسقاوي، الطبعة الأولى، بيروت: 1991. دار الفكر ص: 92.

7- يُنظر: مالك بن نبي، تأملات. ترجمة: عمر كامل مسقاوي، الطبعة الأولى. ديمشق: 1986 دار الفكر، ص:17

8- مالك بن نبي، القضايا الكبرى .ترجمة :عمر كامل مسقاوي، الطبعة الأولى، بيروت.1991 : دار الفكر، ص: 33 و94.

9- كتاب نور الدين بوكروح دراسة تجمع بين البيداغوجي والسوسيولوجي، حاول أن يقارب كتابات مالك بن نبي انطلاقا من تشكله ومرجعياته، حيث اعتمدت قراءته على شهادات الذين عرفوه من قريب ومن بعيد. قارب بين أفكاره السياسية والحضارية، فجاء كتابه (الإسلام، دون الإسلاموية، ...) ليقرأ علينا فكر مالك بن نبي والصراع الحضاري وقابلية الاستعمار، والمنهج العلمي واللغة. والخاتمة التي أراد الكاتب الخلوص إليها هي: أنّ مالك بن نبي انتقد المسلمين في أسباب تأخرهم ولم ينقدهم كمسلمين كما يتوهم أهل المشرق.

10- Mouloud Mammeri, Le sommeil du juste, Librairie Plon: 1955. ISBN2-264-00908-11.

11- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ترجمة: عمر كامل مسقاوي، الطبعة الأولى، بيروت: 1991. دار الفكر ص:34.

12- يوم: 2013/12/23 على الساعة: 16.05 .www.fikr .com

13- مالك بن نبي، شروط النهضة: محاضرة ألقيت في بيروت يوم: 1959/7/8م، ص: 122.

14- الترجمة خيانة: إنّه من الصعب أن نحكم على الكتب المترجمة بأنّها محكمة ودقيقة، لأنّ أصول اللغة المترجم منها غير أصول اللغة المترجم إليها، فعملية الترجمة تقوم على نقل المعنى ولا تولي الأهمية اللفظ أو الحرف.

15- إذا غابت الفكرة بزغ الصنم؛ فبالفكرة يتحرر الإنسان ويستيقظ.

16- مالك بن نبي، شروط النهضة. ترجمة : عمر كامل مسقاوي، الطبعة الثانية. ديمشق1986 : دار الفكر، ص.152

17- قابلية الاستعمار في رأي مالك بن نبي هي الشروط النفسية والثقافيّة والاجتماعية والاقتصادية التي تسمح بقوة خارجة أن تحتلّ هذا البلد الذي يعيش هذا الظرف الاستثنائي.

18- اليقظة في رأي مالك بن نبي تكون بإصلاح الفكر، والتفتح على العالم الخارجي بتغذية العقل ثقافة ومعرفة.

19- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ترجمة: عمر كامل مسقاوي، الطبعة الأولى، بيروت: 1991. دار الفكر، ص 31.

20- مالك بن نبي، في مهب المعركة (ثمن حضارتنا)، ترجمة : عبد الصابور شاهين. دار الفكر المعاصر، ص 123.

21- يُنظَر: ابن خلدون عبد الرحمان محمد الحضرمي المغربي، المقدمة، ط1. بيروت: خال من تاريخ النشر دار العودة، ص273.

تجليات القضية الفلسطينية في الشعر الشعبي الجزائري
ديوان المدني رحمون البسكري نموذجا

د. عبد اللطيف حني
جامعة الطارف

الملخص: يسعى هذا المقال إلى كشف تفاعل الشاعر الشعبي الجزائري في عهد الثورة التحريرية، مع الشعب الشقيق الفلسطيني، وكيف تناول قضيته في قصائده وطريقة عرضها، باعتبارها قضية تمس جميع المسلمين، متخذا من ديوان الشاعر المدني رحمون نموذجا، لأنه جند قلمه وشعوره وحسه للإشادة بالأرض المحتلة إلى جانب القضية الجزائرية، واعتبارها قضية قومية واصفا معاناة الشعب الفلسطيني، ومنبها ومنددا بجرائم لليهود على العرب والمسلمين، في صيغ فنية جذابة وقوالب تعبيرية مثيرة تتسم بجمالية الآداء.

التمهيد : تعد القضية الفلسطينية من القضايا التي أسالت حبر المبدعين باعتبارها قضية قومية ودينية، فراح الشعراء على جميع مشاربهم يعبرون عن مشاعرهم تجاه احتلالها وتدنيس تربتها الزكية الطاهرة مهبط الأنبياء ومسرى سيدنا محمدﷺ، وعلى غرار المبدعين ساهم الشاعر الشعبي الجزائري في الإشادة بالقضية الفلسطينية ونصرتها، ولعل أبرز هؤلاء الشعراء الشاعر الشعبي المدني رحمون البسكري (1908-1989)[1]، الذي أظهر عاطفته الإسلامية تجاهها، ولم تنسيه أحداث الثورة التحريرية المضفرة التضامن مع الشعب الفلسطيني الشقيق، بل راح يندد بالاحتلال الصهيوني وجرائمه، ويرفع صوت الحرية في المحافل الدولية، متضامنا مع شعب يعيش المحنة نفسها، ومعتبرا في قصائده جميعها أن فلسطين هي مسؤولية كل المسلمين والعرب فعليهم التجند لتحريرها من الاحتلال الصهيوني.

أولا – فلسطين قضية قومية في الشعر الشعبي الجزائـــري : مـــن القضـــايا القومية التي شغلت الشعب الجزائري، وما زالت إلى حد الساعة محنة فلســطين الحبيبة، وإحساسه بالانتماء الطبيعي، والحتمي لهذه الأرض المقدسة لأنهـــا ثالـــث الحرمين، وأولى القبلتين، ولطالما تغنت بها الأمهات، وناحـــت لأجلهـــا العيـــون وانفطرت لاستعمارها القلوب، ورثاها الشعراء بقصائد طوال بل بدواوين كثيـــرة تعكس مكانتها في النفوس منذ القدم لكونها بلد عربي وإسلامي، يضم بين حنايـــاه بيت المقدس الشريف، ومدفن الخليل فهي أرض النبوات، ومسرى نبينـــا وحبيبنـــا محمد –صلى الله عليه وسلم–.

وقد بدأت القضية عندما فقدها العرب كقبله لهم منذ وعد بلفور المشؤوم عـــام 1947م، وأضحت فلسطين تعاني احتلال وجبروت اليهود وتحطيمهم وتهديمهم لحد الساعة لأبرز معالمها ومظاهر شخصيتهم الوطنية العريقة، فكان الشعراء الشعبيون يرصدون أحداثها وينقلون أخبارها ويصورون معاناتها، فخلـــدوا «شـــهداء ثـــورة 1936م، وأبطال معركة القسطل، كما أهاجوا العواطـــف أثنـــاء حـــرب 1948م وهاجموا التقسيم، ونادوا بالثأر، وتوعدوا اليهود كل ذلك في شعر ينبض بالحـــب لفلسطين، والنقمة على أعدائها، والحزن على جزء غال من الوطن العربي يهـــدده الضياع، وتقاسمته الأهواء»[2].

ولا عجب أن نجد الشاعر الشعبي المدني رحمون على غرار الشـــعراء العـــرب يناصر القضية الفلسطينية من منطلق قومي وديني، وخاصة أنه يعيش المحنة نفســـها ويتقاسمان الهم نفسه ألا وهو الاستدمار، الذي يسعى لتدمير الشعوب وقطعهـــا مـــن تاريخها ونفيها من أرضها في سبيل البقاء فيها الاســـتفادة مـــن خيراتهـــا وثرواتهـــا والتوسع فيها كأرض استثمار ذاتي، لقد تفاعل الشاعر الشعبي الجزائري مع القضـــية الفلسطينية رغم شغله بقضيته الثورية، إذ نجده يندد بالاحتلال الصهيوني وبجرائمـــه ضد الشعب الشقيق الفلسطيني في المحافل الدولية والمؤتمرات القومية، متخذا الشـــعر وسيلة للتعبير والتنديد، والقصائد تاريخا شاهدا على عمله الإنساني والبطولي.

تقدم الشيخ المدني رحمون صفوف الشعراء الشعبين الجزائريين الذين عاصروه في مناصرة قضية فلسطين ليس بالكلمة فقط بل بنفسه، فقد تطوع بروحه وشارك في النضال ضد العدو الإسرائيلي، وانتقل إلى فلسطين وكان تدر جبهات القتال دون خوف أو هلع أو تردد إيمانا منه بالقضية العادلة، وهذا في حوادث 1948م إبان الاشتباكات الأولى للجيش العربي مع الاحتلال الصهيوني الغاشم، فخلد هذه الحادثة بقصيدة تتكون من خمس وستين (65) بيتا، إذ يقول في مطلعها :[3]

بَكِيْ يَاْ صَخْرَاْءْ عَلْىْ صَلاَحْ الْدِيْنْ وَبُومَدْيَنْ شَعَيْبْ الْكَائِنْ بِاتِلِمْسَانْ

وَاَحْزَنْ يَاْ الأَقْصَىْ عَنْ الْمُسْلِمِيْنْ رَاحُواْ عَنَكْ مَاْ بَقَىْ مِنْ الشُجْعَانْ

لعل الملاحظ للبيتين يرى أن شاعرنا قد افتتح قصيدته بمقدمة طللية مقتديا بمنهج الشعر الجاهلي وهندسة قصائده، إذ يطلب من الصخرة أن تبكي على ما فقد من تاريخ ومجد زاخر، على صلاح الدين الأيوبي الذي حرر بيت المقدس من الصليبين، إذ يمثل مضرب المثل والقدوة التي يدعو إليها المدني الشعوب العربية للإقتداء به، ويطلب منهم تقديم صلاح الدين من جديد في قوته الحربية وذكائه القيادي، وهو رمز للسيادة على القدس لأنه حررها بعد احتلالها، وإعادة العز والشرف للمسلمين بعد ضعف انتابهم وكاد يقضي على مقدسات القدس.

كما يطالب الشيخ المدني المسلمين أن يقدمون رجالا مثل العالم المتصوف الديني بومدين شعيب[4]، الذي قضى حياته في نشر الوعي الديني، وهو رمز ديني مشترك بين دول العالم الإسلامي لانتشار طريقته الصوفية بين أهله، فقد جاب الدنيا واستقر وتوفي بتلمسان ودفن بها وأقيم له ضريح هناك والمعروف بسيدي بومدين، ثم يطالب بالخزن على فلسطين الضائعة منا، وفي هذا دلالة على تفجع الشيخ المدني على فقدان فلسطين، ويؤكد حزنه العميق لعدم وجود المسلمين الغيورين عليها، الذين مضوا مع الأسلاف، وتظهر القومية صارخة في معاني الشاعر فيطلب من العرب الاتحاد، برفع راياتهم عالية فوق كل الأوطان، وبتحرير الأرض المقدسة، أرض الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم في سورة الإسراء، يقول تعالى: **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**

الْبَصِيرُ)[5] ، فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين، كما يعكس لنا ثقافته التاريخية والدينية للشاعر وروحه القومية :[6]

إِذَا انظَرْنَـــا لْمَجْـــدْ الأَوَلِيْـــــينْ نَلْقَى فَــرْقْ بْعِيْــدْ فِــيْ هَــذَا الْزَمَــانْ

لَمَـــا كَانَـــتْ الْعُرُوبَـــة مُتَحْـــدِيْنْ رَفْعُــوا رَايْـــتْهمْ حَـــرَرُوا الأَوْطَـــانْ

جَابُوهَا مِــنْ الشَــامْ أَرْضْ فَلَسْــطِيْنْ كَانُوا عَلىْ حَــقْ بِالْصْــدْقْ وَالإِيْمَــانْ

يتحسر الشيخ المدني على الماضي التليد للتاريخ الإسلامي، والذي نحن بحاجة إليه اليوم في عالمنا العربي، حيث تكالبت الأمم على امة الإسلام تنهب خيراتها وتستعبد أبناءها، فالشاعر يريد إحياء تاريخ البطولات والانتصارات، حيث كان للمسلمين دولتهم وقوتهم فتهابهم كل الأمم والشعوب، ولا تتجرأ على الطمع في أموالهم أو خيراتهم أو أرضهم، وهذا نتيجة الاتحاد والتكافل والتعاضد بينهم، مما جعلهم يفتحون الكثير من البلدان في كل قارات العالم، يحدوهم الصدق والإيمان وتجمعهم المحبة والقوة.

إن الألم والتحسر ينتابان ذات شاعرنا ويظهر من خلال تحسره على الماضي المجيد بجميع مكوناته ومشاهد وشخصياته وأبطاله، وشوقه للأرض المقدسة فينبري لوصفها وذكر مميزات الدينية القدسية فيقول:[7]

أَرْضْ الأَنْبِيـــاءْ أَوَلْ الَقِبْلَتَـــيْنْ وَاذْكَرَهَـــا لَنَـــاْ الْمَـــولَىْ فِـــالْقُرْآنْ

بَارَكْ فِيْــه الله الِثَالِــثْ الْحَــرَمَيْنْ فِيْ سُورَة الإِسْــرَى أَعْطَانَــا الْبَيَــانْ

فَرْضُة فِيْ سْمَاهْ صَــلَوَاتْ الْــدِيْنْ الْخَمْسَ أُوْقَاتْ فِيْ كُلْ يَــومْ لِلإِنْسَــانْ

يصف الشيخ المدني فلسطين بأرض الأنبياء لقيمتها الدينية في تاريخ الأديان السماوية، وبالتالي في قلوب الإنسانية جمعاء، فكل الأعراق تتدد باحتلالها والأعمال التخريبية التي يقوم بها الاحتلال لمحو معالمها وتهويدها، فلقد ذكرها الله في القرآن الكريم في سورة الإسراء، وأسرى إليها النبي ﷺ، مما زادها قدرا تعظيما في قلوب المسلمين، وقد باركها الله تعالى فهي أولى القبلتين وثالث

الحرمين، وقد نالت الشرف العظيم أن فرضت الصلاة على أرضها، وقد ضرب التاريخ لها موعدا مع التشريف والتكريم من الله تعالى، وبهذه القيم السامية التي أشاد بها شاعرنا يشير إلى ضرورة تحريرها ومساندة قضيتها، ولفت الانتباه إلى ما تعانيه وما يجب على كل مسلم وعربي القيام به.

ثانيا-القيمة الدينية والتاريخية لفلسطين عند الشاعر رحمون : يستعرض الشاعر المدني رحمون تاريخ احتلال فلسطين ويقف عند أهم المحطات السياسية في قضيتها مبينا قيمتها التاريخية عند شعوب العالم وفي جميع المعتقدات والأديان وفي ذلك تتجلى الروح الإسلامية، وعمقها في نفسية الشاعر، مظهرا كرهه المطلق لأعداء عقيدته، وموضحا خطط الصليبيين واليهود لاحتلال فلسطين وكيف هزمهم المسلمون البواسل، فكان منهم الأسرى والجرحى، والتاريخ شاهد على حروب أجدادنا العرب المسلمين في الدفاع عن فلسطين، كما يتابع الشاعر عرضه التاريخي الذي عهدناه في قصائده السابقة قائلا :[8]

اَتْهَزْمَة سَبْعْ مْلُوكْ مِنْ الْصَلِيبْيِنْ خَرْجُوا مِنْ مْقَامْ دَاوُدْ وَ اسُلَيْمَانْ

فِيْهَمْ الأَسْرَىْ وَفِيْهَمْ مُجْرُوحِيْنْ وَحَتْلُوا مَصْرَاء فَاتُو لِلْسدَانْ

لعل ما يواسي به شاعرنا حاله وحال أمته الإسلامية هو تذكر تاريخ فلسطين الحبيبة، حيث كانت أرضها ومازالت شاهدة على مصارع الصليبيين فيها على يد عمر الخطاب ﷺ وصلاح الدين الأيوبي، لكنها اليوم تعاني هزيمة العرب والمسلمين العاجزين عن نجدتها، إن المدني يسعى لاستنهاض الهمم وإيقاظ الضمائر والتذكير بالقضية التي نسعى بعض القوى إلى طيها ونسيانها وبذلك إطالة معاناة الشعب الفلسطيني.

ولتحقيق اليقظة والحرص للمجتمعات العربية والإسلامية على شاعرنا أن يدعو إلى قراءة التاريخ المجيد وما حواه من أمجاد وانتصارات حققها المسلمون الأوائل الذين لم يخشوا في الله لومة لائم، إنهم خاضوا المعارك وحققوا العزة والكرامة بشعوبهم :[9]

أَقْرَؤاْ الْتَارِيْخْ يَا لِـــيْ سَـــاْمْعِيْنْ هَذَا حَـــرْبْ أَجْـــدَادكُمْ ضِـــدْ الَطُغْيَـــانْ

فِيْ مْعَـــارُكْهُمْ دَائِـــمْ مُنْتَصْـــرِيْنْ لاْ نْخَافُوا الْمَـــوتْ وَلاْ فِـــيْهَمْ جَبِـــانْ

يبدو أن الشيخ المدني رحمون متمسك بتاريخه ومشدود إلى حضارته العربيـــة الإسلامية، وحزين على حال أمته التي امتلكت هذا التاريخ بشرف وقوة وعزة، إذ نجده يتذكره بحسرة تغمرها الآلام تجاه فلسطين التي ضـــاعت نتيجـــة التخـــاذل والتكالب على المسلمين، ونتيجة تفرقهم وعدم توحدهم على كلمة سواء، إن المدني يرثي وضعه المأزوم، ويندب واقعه، ويسلي نفسه بتلك الذكريات الماضيات علهـــا تعود يوما.

ويعود شاعرنا إلى تاريخ تحالف إسرائيل مع أمريكا ضد فلسطين ســـنة 1948 ويذكر حضوره كمتطوع وسط المعركة مع بعض إخوانه المغاربة خاصة في دير ياسين فيقول :[10]

نَرْجَعْ لِسَـــنَاْت ثَمَانِيَـــة وَأَرْبْعِـــيْنْ مَـــــعَ اِسْـــــرَائِيْلْ حَلْـــــفْ الْمَرِيْكَـــــانْ

كُنْتْ حَاضَرْ فِيْهْ مِنْ الْمُتَطَـــوعِيْنْ وَسَطْ الْمَعْرَكَة أَنَـــا وَبَعْـــضْ إِخْـــوَانْ

إن تاريخ 1948 محفور في ذاكرة الشيخ المدني بوصفه كان جنديا في القوات العربية التي توحدت من أجل تكوين جبهة حرب ودفاع على الأراضي الفلسطينية لكن جهودها باءت بالفشل والخوار نتيجة مســـاعدة الـــدول الأوروبيـــة وأمريكـــا لإسرائيل، بل شنت هجمات على البلدان العربية المشاركة في الحملة وجازتها على عملها الثوري بالتدمير والحرق والقنابل وقتل الأهالي والمواطنين العزل دون وجه حق لا لشيء لأن دولهم دافعوا عن فلسطين الحبيبة.

ويذكر شاعرنا المدني معاناته من الحروب والمعارك التي أضنته، كما يروي لنا ما حدث على أرض فلسكين من انتهاكات لحقوق الإنسان قامته به الدول التـــي تدعي الحضارة والتقدم فيقول :[11]

كِيْ نَتْفَكَرْ مَاْ جْرَاء فِيْ دِيْرْ يَاْسِيْنْ نَبْقَى طُولْ اللَيْلْ مَـاْ نُرْقَـدْ حَيْـرَانْ

أَهْلَ الْقَرْيَة عَنْ اَخيْرهَمْ مَـذْبُوحِيْنْ نْسَـاء وَ شُـيُوخْ عَـزَّجْ وَصَـبْيَانْ

يَومْ الَقْصْطَلْ عَبْد الَقَادَرْ الْحُسَـيْنْ اَسْتَشْهَدْ الَزَعِيْمْ فِـيْ شَـاوِ الْمَيْـدَانْ

لعل ما يدمي قلب الشاعر وما يأسف له هو ما شاهده من تنكيل وقتـل وذبـح لأهل القرية كلها نساء وشيوخ وأطفال، كما يذكر بعض الشهداء الذين سقطوا فـي ساحات الفداء، وهذه الشهادة التي يفصح عنها الشاعر إنما صادرة عن آهات نفسية عانى منها وذاق مرارتها، فتثير عروبته ووطنية المتأججة الصادرة عـن تجربـة شعورية واقعية.

وينقلنا المدني رحمون إلى أجواء المعركة التي كان جنديا فيها واحد منظميهـا حيث أسندت له قيادة كتيبة من المجاهدين للقيام بمهام عسـكرية، فيقـول مفسـرا ومبينا :[12]

كَوَنَـتْ فَـرْقَ مِـنْ الفَـدائَيِيْنْ وَنَظَمْنَا أَفَوْجْ مِـنْ أَحْسَـنْ الْشَـبَابْ

رَغْمْ الاحتِيَاجْ لاْ صَـبْنَا مُعِـيْنْ لَكِـنْ كَافَحْنَـا ظَـاهَرْ لاْ خُفْيْـانْ

يُبين شاعرنا شجاعته وإقدامه وحسن بلائه في هذه المعركـة، وكيـف انـتهج النظام، وكون فرقة من الشباب المغاربي مع الإخوة الفلسطينيين، متقدمين سـاحة الحرب، ومحاولين جهدهم إلحاق الخسائر بالعدو رغم نقص العدة والعتاد، لكـن هذا لم يثن عزيمتهم ويحد من إقدامهم في سبيل تحقيق النصر، وهذا نتيجة الـروح القتالية العالية التي يتحلون بها، وحبهم للقضية العادلة التي يدافعون عنها.

ويستمر شاعرنا في وصف أجواء المعركة مبديا قوة المجاهـدين وإصـرارهم على النصر رغم أن العدو الإسرائيلي كبدهم خسائر في الأرواح لكـنهم واصـلوا تقدمهم وإلحاق به الهزيمة فيقول:[13]

مَعْبُودَتهُمْ هَدمْنَاهَا بَلُغْـمْ اَمْتَـيْنْ قَـوىْ بِـالْمَفْعُولْ رَيَـبْ الَحِيْطَـانْ

دَفَعْنَا بِكُلْ قُوَة مُخْلِصِيْـنْ نْسَاء وَ شُيُوخْ عَزَّجْ وَص وَاسْتَشْهَدْ مِنْـا

رَحَمْهُـمْ رَبِّ رَاهُـمْ مُتْعْمِيْـينْ وُاعَـدْهُمْ اللهُ بِجَنَـةْ رَضْـوَانْ

يوظف المدني قاموسا حربيا يدل على مشاركته الفعلية في الحرب وعلى ثقافته العالية في الميدان العسكري، وهذا نتيجة التجربة والممارسة، ونذكر مما ورد في الأبيات السابقة (هدمنا، بلغم، قوي، قوة، استشهد) فهذه الألفاظ ومثيلاتها يعج بها ديوان المدني رحمون نظرا لأنه أغلبه قيل زمن الثورة التحريرية المباركة، والتي تبين أوقات تنقل الثوار وأعمالهم البطولية، وقد استشهد منهم الكثير بعدما قاموا بالمهمة على أحسن وجه، ومن المحقق فيه أن الشعر صاحب مسيرة حياة شاعرنا التي كان أغلبها على ساحات الوغى وفي جبهات القتال.

ولعل الشيخ رحمون ورفاقه يظهرون شجاعة عالية رغم استشهاد بعضهم لكنهم بكل حزم واصلوا قدما حتى إشهار الهدنة ووقف القتال التي يراها الشاعر خيانة من المسؤولين، الذين لم يقتنعوا بأن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة ومنهم (اقلوب باشا)[14] من أذناب الاستعمار، ويصب الشاعر سخطه وغضبه عليهم وعلى الخائنين للوطن الذين باعوا أنفسهم للشيطان وصاروا عملاء منافقين للعدو الإسرائيلي:[15]

لَمَا شَفْنَا خِيَانَات المَسْؤُولِيْنْ وَاتْعَرقَلْ فِيْنَا قِيَادَة الأَرْكَانْ

شَهَرْ الْهُدْنَا وَقَفْ الْمُقُاومِيْنْ فَرْضُو عَنْا نَنْسَحْبُو بَلاْ عَصْيَانْ

يبدو ما يفشل الثورات ويحبط العزائم ويضرب وحدة الشعوب هو الخيانات وتحالف الخائنين والعملاء من أبناء الوطن مع العدو ضد أهلهم وأرضهم، وهذا ما عبر عنه شاعرنا وأستاء منه كثيرا، بحيث أثر عن سير الحرب و معنويات المجاهدين الذين أقبلوا بالنفس والنفيس لتحرير فلسطين وقدموا العديد من الشهداء والجرحى والمعطوبين فداء لفلسطين، لكنهم كغيرهم يباغتون بالخيانة من بعض المسؤولين وعرقلة الحرب وإشهار الهدنة بعدما شارفت الجيوش العربية على القضاء على العدو الصهيوني، وهذا في رأي شاعرنا مدبر ومخطط له.

ويذكرنا المدني بالذين خذلوا القضية الفلسطينية ونضال المخلصين والمجاهدين حتى يحفظ التاريخ أسماءهم وأعمالهم الشنيعة الخائنة، وللشاعر أمانته في نقل المعلومة والعهدة عليه كشاهد على ذلك :[16]

(اقْلُــوبْ بَاشَــا)أَكْبَــرْ الْمُنَــافِقِيْن مُثْــلُ ابْلِــيْسْ يَنْعْلُــو الشَــيْطَانْ

هُــوَا وَ انْصَــارُوا وَلِــيْ تَــابِعْيْنْ أَذْنَابْ الاِسْــتِعْمَارْ فِــيْ كُــلْ مَكَــانْ

إن هذه الأعمال الإجرامية التي قام بها الخونة يرى شاعرنا أنها تدبير من العدو الصهيوني، وقد جند هؤلاء الأذناب لتكسير تحرير فلسطين وصد الجيوش العربية التي أحرزت تقدما كبيرا في جبهات القتال، لذلك شاعرنا يتوعدهم بالويل اليوم وغدا ويعلمهم أن مصير الخائن معروف منذ القديم في مآله ومعاملته وعقابه وأنه مرفوض في المجتمع لأن قومه قد تبرؤوا منه ولم يعد منهم :[17]

الْوَيْلْ ثُمْ الْوَيْل لِلْنَاسْ الْمُشْــرِيِيْنْ بَــاعُو شَــرَفْهُمْ بِــأَبْخَسْ الأَثْمَــانْ

عُمَــلاْ الْصَــهَايَنَة الْمُجْــرِمِيْن لَيَخْفَا عَنْكُمْ رُبَمَا لِلآنْ فُلاَنْ وَ فُلاَنْ بَيَانْ

تَحْكِيْ عَنْ مَصَارْ شَاهَدْتُو بِــالْعَيْنْ كَانَتْ الْخِيَانَاتْ فِــيْ جُيُــوشْ الْعُرْبَــانْ

لعل شاعرنا رحمون استطاع أن يعبر للمتلقي عن قيمة فلسطين الدينية لديه ولدى الشعوب العربية والإسلامية من خلال التضحية من اجل تحريرها، والتقدم إلى ساحات الجهاد اقتحام منازل المعارك، وقد سنحت له هذه الفرصة التاريخية لأن يكون شاهدا على التنكيل بالشعب الفلسطيني وسعي الدول المتحالفة مع إسرائيل لحرمان من أرضه وحقه في الحرية، وقد استطاع شاعرنا من خلال شعره أن يدون هذه الحقائق التاريخية للأجيال القادمة.

ثالثا–وصف معاناة الشعب الفلسطيني الأعزل : يعرج المدني في قصيدته على الحديث عن الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق وطردوا إلى العراء، وذاقوا الجوع في حالة مزرية، وسكنوا المخيمات وأصبحوا لاجئين بعدما كانوا آمنين في ديارهم

وبلدهم فلسطين، لكنهم اليوم أضحوا غرباء مشتتين بين الدول والأراضي، لا راع ولا أرض ولا دار ووطن يأويهم وهذا ما آلام شاعرنا:[18]

مَـــرَتْ سَـــنَواتْ أَحَـــدْ وَعَشْـــرِيْنْ وَأَحْنَـــا ننتظْـــرُوا رُجُـــوعْ الْسُـــكَانْ

خَرْجُو مِنْ دْيَـــارهُمْ بِـــدُونْ أَعْـــوِيْنْ فِالْعَرَاءْ وَالْجُـــوعْ حَـــالَتُهمْ تَشْـــيَانْ

فِـــيْ الْمُخَيَمَـــاتْ صَـــبْحُو لاْجِئـــيْنْ مَصَبُوشْ الْقُوة رَاهُمْ فِـــيْ الأَحْـــزَانْ

تَرْكُوا كُلْ أَرْزَاقُهمْ مَشَـــرْدِيْنْ صَـــبْحُو عِصَابَة صَـــهَيُونْ اَحْتَلُـــو المَكَـــانْ

إن هذه الأبيات تعبر عن واقع حقيقي عاشه المدني رحمون وشهد أحداثه، مما يولد لديه الكراهية والحقد الدفين ضد العدو الصهيوني وكل مستعمر يســـعى إلـــى تشريد الناس وترويعهم وقتلهم من أجل مصالحه، والاستدمار الفرنسي منهم الـــذي عاث فسدا وتنكيلا وقتلا في الجزائر، لذلك لا نعجب من كثرة الزفـــرات الحـــرى المحرقة التي تعتلي صدر الشاعر، والتي تتدثر بها نصوصه الشعرية الثورية لأن مبعثها أعمال وجرائم الاستعمار في فلسطين وفي وطنه الأم الجزائر، فيصفه بأشر النعوت وبأقبح الصفات مثل الصهاينة الأنجاس .

كما يلوم شاعرنا تخاذل العالم على نصرة القضية الفلسطينية، حيث تنكرت لها كل القوى العالمية في الأمم المتحدة، ولم تمنحها حقها في الحماية الدوليـــة، فقـــد تكالبت عليها القوى الأوروبية والأمريكية ولم تمنحها المســـاندة العســـكرية، لأن إسرائيل هي المسير الخفي لهم:[19]

بَاقِيْ فِيْ الاِنْتِضَارْ حَـــلْ الطَـــرَفِيْنْ جَمْعَيَّـــةْ الأُمَـــمْ إِنَهَـــا بُهْتَـــانْ

أَمْرِيْكَـــا وَبْرِيْطَانْيَـــا مُتَفقِـــيْنْ أَكْبَـــرْ مُجْـــرَمْ فِالْعَـــالَمْ الْمَرِيْكَـــانْ

مَنْبَعْ الاسْـــتعْمَارْ هَـــذَا الـــدَوْلَتِيْنْ نَذْكُرْ فِـــيْ مَقَـــالْ مَشْـــرُوعْ تُرُومَـــانْ

من خلال الأبيات السابقة يستنكر رحمون ما قامت به الدول المتحالفة ضد فلسطين تحت مظلة الأمم المتحدة، حيث خذلت الشعب الفلسطيني وتركته مشردا بـــين الـــدول وساعدت إسرائيل على اغتصاب القدس وافتكاكها من أهلها دون وجه حق، وهذا من

اجل استكمال المشروع الاستدماري في الدول العربية وهو مشروع ترومان الرامي إلى تهويد العرب وإخراجهم من أوطانهم، وهذا ما يخدم الدول الاستدمارية.

رابعا–التنبيه من خطر هجرات اليهود لفلسطين : لقد عمل العدو الصهيوني منذ أن وطئت أقدامه أرض القدس الحبيبة إلى تهويدها، وذلك عبر مخطط يمتد حقبات تاريخية طويلة، وعبر إجراءات وطرق استعمارية شيطانية متعددة، ذات صبغة يهودية وكيدية، ولعل أولها كان الوجود العسكري في فلسطين، ثم شن الحروب للاحتلال والسيطرة وإحكام القبضة على الأراضي الفلسطينية وترويع أهلها وقتلهم وممارسة العنف بشتى أنواعه من أجل طردهم من أراضيهم، والاستيلاء عليها وتعميرها بجلب اليهود من شتى أصقاع العالم؛ وهو ما يسمى بالاستيطان الذي اتخذته إسرائيل كوسيلة للقضاء على الشعب الفلسطيني وإبادته من الوجود يضاف لها القتل والخطف والأسر وهذا ما نبه إليه شاعرنا المدني رحمون:[20]

هَجْـــرَة الْيَهُـــودْ إِلَـــىْ فَلَسْـــطِيْنْ عَشَرَاتْ الآلاْفْ يَمْشُـــو بِالضَـــمَانْ

يَعْطُـــوهُمْ مْسَـــاعَدَة بِـــالْمَلاْيِيْنْ وَمَا يَلْزَمْهُمْ مِنْ صُـــنْعْ الإِسْـــكَانْ

فالشاعر ينبه إلى خطر هجرة اليهود إلى فلسطين لتعميرها وطرد أصحابها، إذ يوضح أن السلطات اليهودية تقدم لهم كل التسهيلات والمساعدات حتى يستقروا في القدس وينتشروا في الأراضي الفلسطينية بل يعطونهم حق التملك والجنسية وكل الوثائق الضرورية، مع توفير الأمن والحماية، ويبين الشاعر من سن هذه الخطط وساعد على تنفيذها، بل قدم الدعم اللوجستي للعدو الصهيوني فيقول :[21]

حَلْـــفْ الأَطْلَسِـــيْ وَالمُؤيِـــدِيْنْ حَتَىْ دَوْلَـــةَ مَـــا بَقَـــىْ فِيْهَـــا أَمَـــانْ

فُوقُوا يَاْ عَرَبْ يَـــا لِـــيْ رَاقْـــدِيْنْ وَافْطنُوا مِـــنْ نَـــومْكُمْ الْوَقْـــتْ حَـــانْ

وفي هذا الوضع الخطير الذي يهدد فلسطين يوجه المدني نداءً للعرب بأن يعدوا العدة ويستفيقوا من سباتهم، ويشدوا على وحدتهم، التي منها عروبتهم لأنه «يرى أن العروبة شيء يربط كل أبناء الأمة الواحدة، وأسباب الوحدة بينهم أكثر من أن تحصى، فمهما فعل الاستعمار، وأذنابه من حواجز لتهوين العرى، فالانتماء مستمر برغم الكائدين»[22] لذلك ينبههم إلى الخطر المحدق بهم من حلف الأطلسي

والمؤيدين له، وأن يدعوا نزاعاتهم واختلافاتهم جانبا وان يهبوا لنجدة أوطانهم من الحملات الاستدمارية التي يشنها الغرب الصهيوني على الإسلام والعروبة، ويسعى باتحاد وقوة للنيل من الأوطان العربية، فالشاعر ينهى عن الخذلان والكسل وعدم التعاون والشقاق بين المسلمين لأجل قضايا تافهة لا اعتبار لها :[23]

رَاكُمْ فِيْ خَطَرْ وأَنْتُمْ نَعْسَانِيْنْ يَزِيْكُمْ مِنْ التَنَازُعْ وَالشَتْمَانْ

حُلُو عَيْنِيكُمْ كُونُوا مْتْتهَين بَرْكَاكُمْ مِنْ الْوَهْمْ وَالْكَسْلاَنْ

ويلقي المدني رحمون اللوم على العرب الذين–في رأيه–تخاذلوا عن نصرة الانتفاضة، واغتروا بالإدعاءات اليهودية وإعلامهم الذي يسعى جهده بإعلامه ووسائله الدولية للتقزيم من القضية، وتشتيت الرأي العام والمتعاطفين معها من أبناء العالم من الاهتمام بها إلى قضايا هامشية أخرى :[24]

هَذَا عَيْبْ وَعَارْ عَنْكُمْ اجْمَعِيْنْ طَاحَتْ سُمْعتكُمْ فِيْ كُلْ البُلْدَانْ

أَمَام الْعَدُو صَرْتُمْ مَذْلُولِيْنْ أَكْبَرْ مْذَلاْ وَقْعَتْ فِالْجِيْرَانْ

يعيب المدني رحمون على العرب المتخاذلين المتفرقين الخائنين للقضية الفلسطينية، الذين تفرقوا لأجل مصالحهم الخاصة والضيقة ولم يقدوا واجبهم نحوها باعتبارها قضية عربية وإسلامية تعني كل الشعوب، وهذا الموقف من العرب أضحت كل الأمم تسخر منه، ويتعجب الشاعر من هذا الحال الذي آلت فيه شرذمة من اليهود تتحكم وتأتمر في امة عتيدة وقوية وكبيرة مثل العرب :[25]

كَمْشَة مِنْ الْيَهُودْ مَتْجَبْرِيْن دَخْلُوا عَنْكُمْ بِالقُوة فِي شْهرْ جْوَانْ

عَامْ الْهَزِيْمَة سَبْعَة وَ ستِيْنْ الْجَنْسْ إِيرَادِيْ رَهَبكُمْ بِالطَيرَانْ

وَحْدُوا صْفُوفْكُمْ يَا غَافْلِيْنْ طَهُرُوا بَلْدانْكُمْ مِنْ الخِيْانْ

يثمن المني قيمة الوحدة والاتحاد في القضايا المصيرية ولو كانت عند العدو الصهيوني الذي جمع قواه الضالة وانتصر في الأخير، لأنه نهج التخطيط والاتحاد لتنفيذ مشروعه الاستيطاني ونجح فيه، والعرب عكسه فقد تشتت قواهم وخارت

جهودهم وكان الفشل مصيرهم وتفرقت بهم الاهواء، وكانت النتيجة ضيع القدس وتشريد أهلها.

فالمدني يسعى من خلال هذا الخطاب إلى استنهاض الهمم وشحذ العزائم لنصرة القدس ولمّ شمل العرب الذي بات متفرقا، كل فريق بما لديهم فرحون، منطلقا من واقع عاشه ولمسه واكتوى بحرقته، فالمدني عاين الوضع بنفسه، وخبر ما يجري في فلسطين وباشر ما يعانيه الشعب الفلسطيني، متخذا من اللغة الشعبية مطية للتنبيه والتنويه لخطر اليهود ومخططاتهم لكسر آمال العرب والمسلمين في القدس.

خامسا-الإشادة بموقف الجزائر من القضية الفلسطينية : يبيّن الشيخ المدني رحمون موقف الجزائر من القضية الفلسطينية معبرا عن تضامن الشعب الجزائري معها في حرب 1967، وذلك بتجنيد المتطوعين والمجاهدين للدفاع عنها والذود عن حماها، ويوضح أن الجزائر كانت السباقة لنصرة الفلسطينيين، حيث بجميع الوسائل لرفع صوتها عاليا في المحافل الدولة، حيث يقول:[26]

وَمنْ الْمُحيْطْ إلى ْالخَليجْ مُسْتعَدِيْنْ وَالْجَزائِرْ كَانَتْ أَوَلْ الْبُلْدَانْ

عَنْ أَرْضْ الْمُقَدَسَة مُسَبَلِيْنْ نَفْدُوهَا بِارْوَاحْنَا وَالْحَقْ يبَانْ

لعل البيتين السابقين يوضحان قيمة المشاركة الجزائرية في حرب فلسطين ومدى حب الشعب للقدس الحبيبة التي براها قطعة قدسية يهمه أمرها، ومن واجبه تحريرها، إذ الشعب الجزائري ذاق مرارة الاستدمار وعلم مدى الخراب الذي يخلفه في البلدان، كما انه يعرف قيمة الحرية للأوطان والشعوب، فالجزائر جعلت من أولياتها نصرة القضايا العادلة وأولها فلسطين، وهذا ما يؤكده ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله :(هناك قضايا عربية كثيرة عاشتها الجزائر في أدبها، وفكرها في أعصابها، وجهادها منها قضية فلسطين، واستقلال أجزاء من الوطن العربي كالسودان، وليبيا، وثورة مصر، وإنشاء الجامعة العربية، والمعارك الأدبية ومناسبات التكريم أو التأبين لعظماء المشرق من كتاب، و شعراء، وقادة ومصلحين)[27].

ويستمر الشاعر في إظهار موقف الشعب الجزائري وحكومته من القضية الفلسطينية، ويبين مدى التفافه حولها، إذ يعتبرها قضيته ومصيره مصيره دون مزايدة أو مقايضة:[28]

مَنْ يفكَرْ مِثْلَنَا عَنْ فَلَسْطِيْنْ يوَقَفْ مَوْقَفْ بِصَرَاحَة لِلْعَدْيَانْ

إحْنَا الَشَعْبَ وَالَحُكُومَة ثَائِرِيْنْ كُلُ آخَرْ مِنَا مُصَمْ لاْ رْجعَانْ

يتحدى الشيخ رحمون أي موقف كان مشرفا مثل موقف الجزائر في نصرة فلسطين، حيث كان صريحا مستنكرا جرائم الصهاينة وكاشفا أعمالهم التخريبية ورافعا راية الحق في المحافل الدولية، كما قاطعت الجزائر إسرائيل كموقف إجرائي مساند لفلسطين، وأقيمت الحكومة الفلسطينية المؤقتة على أرض الجزائر وكانت إذاعتها تبث على أمواج القناة الوطنية، فهذه المبادرات وغيرها تعبر عن شديد الالتفات حول القضية ونصرتها ورغبة الجزائر حكومة وشعبا في تحرير القدس الحبيبة.

ويؤكد المدني قدرة الجزائريين على الحرب فقد خاضوها وجابهوا أقوى الجيوش العالمية بعتادها وعدتها، لكنها خارت أمام إتحاد جيش التحرير وإيمانه وتصميمه على كسب معركة التاريخ، وقد دفع الجزائريين مليون ونصف شهيد مهرا للحرية، فهم خبراء بذلك، باعتراف الدول الأوروبية وأمريكا، إذ يطلب شاعرنا من الفلسطينيين الاستفادة من حرب التحرير فيقول :[29]

فِيْ حَرِبْ العَصبَاتْ مُتدَرْبِيْنْ ضَرِبْ الْمدفَعْ نَعْرْفُولُو بِالْمِيْزَانْ

شُوفُو ثَورَتْنَا فَاتَتْ سَبعْ سَنينْ وَانتَصرْنَاْ علىْ العَدُو هَذَا بُرهَانْ

كَذلكْ الْيُومْ رَانَا مَوجُودِيْنْ قَولاً وَ فِعْلاً ظَاهَرْ لِلْعَيَاْنْ

يدعو شاعرنا الفلسطينيين وكل المضطهدين أن يأخذوا العبرة من الثورة التحريرية المباركة التي دامت سبع سنوات من الحرب المكثف على العدو الفرنسي، واستطاع جيش التحرير أن تفتك منه حريتها واستقلالها بواسطة الحرب وتقديم الشهداء الذين ضحوا في سبيل الوطن، والشعب الجزائري يساند فلسطين

قولا وعملا ومستعد للتضحية كذلك في سبيل تحرير القدس انطلاقا من نزعة دينية وقومية موجودة (في أبناء الجزائر، ويزداد إلحاحها على توكيد وجودها، وعلى الوفاء لعهودها على الزمن)[30].

ويستند شاعرنا إلى عامل مهم في تحقيق النصر إذ لا يكفي العمل وحده فقط بل لابد ان يوازيه الاعتقاد بأن النصر من عند الله تعالى وحده لقوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»[31]، وتمامه الصبر على مشاق الحرب وتعب الجهاد، والثقة في الله بأن نصره قريب للمؤمنين وناصر للحق ولو بعد زمن:[32]

اَلْنصْرْ بِإِذْنْ الله مُحَقْقِيْنْ ثِيقَتنَا بِالله بِالْصبْرْ وَالإِيْمَانَ

نَعتصَمُوا بِالله رَبِّ العَالَمِيْن بَابْ الفَتْحْ يكُونْ مِنْ عِنْدْ الْرَحْمَانْ

إن شاعرنا يركز على الجانب الديني في الحديث عن الثورة التحريرية الجزائرية المباركة ويسعى إلى توجيه الفلسطينيين إلى الاقتداء بها، وأن يحذو حذوها في تحرير بلدهم من العدو الإسرائيلي، كما يدعوهم إلى الاتحاد والالتفاف حول قضيته مصداقا لقوله تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»[33] وسيكون النصر نصيبهم ويتمتعون بالحرية مثلما تنعم بها دول العالم بأسره.

ويراوح رحمون في حديثه عن الثورة القيم الدينية وأبعادها، ويربط المتلقي بالعالم الإيماني الذي ترتاح فيه الأنفس وتهدأ في رحابه الخواطر، ويستكين العقل في التسليم لقدرة الله تعالى، وفي هذا السياق يرفه شاعرنا أكف التضرع لله تعالى أن ينصر ويحرر فلسطين، ويفك عنها الأغلال، ويرحم شعبها من التشتت والضياع أن يجمعه في بلده آمنا مستقرا مثل شعوب العالم، وأن يهلك الصهاينة المحتلين:[34]

القُدرَة وَالإرَادةَ فِالْكَونَيْنْ لاْ شَرِيْكَ امْعَاهْ فالأَنسيْ وَالْجَانِيْ

تَحْيَا فَلَسْطِيْنْ وَالفِدَائِيِيْنْ تَسْقطْ اسْرائِيْلْ عَدُوة الأدْيَانْ

ولا يخالف شاعرنا المدني رحمون تقاليد الشعراء الشعبيين الجزائري في خاتمة قصيدته، معلنا عن تاريخها وخطها في النظم إذ يقول:[35]

تَمَيْتْ الأبْيَاتْ فِيْ لَيلَةْ الاثْنَيْنْ المَدنِيْ رَحمونْ سُكْنَاهْ الزِيْبَانْ

نَخْتَمْ بِالصَّلاَةْ عَلى النَبِي الأَمِينْ مُحَمَدْ شَفِيعْنَا طَاْهَا عَدْنَانْ

يعلن شاعرنا عن نهاية قصيدته التاريخية المساندة للقضية الفلسطينية، موثقا تاريخ الانتهاء منها (ليلة الاثنين) وصاحبها وهذا ما جرت عليه تقاليد النظم في الشعر الشعبي الجزائري، ويصلي ويسلم الشاعر على النبي الأمين كخاتمة دينية على الانتهاء من القول وقد نقل أفكاره كاملة للمتلقي، وهذه الأبيات تبين رضاه عن نظمه ووصوله لما كان يطمح إليه وبذلك غلق مجال النظم.

خاتمة : ندرك من خلال شعر الشيخ المدني رحمون القومي الارتباط الوثيق بأمته العربية وأحداثها العديدة، وأبرزها قضية فلسطين إذ «عبر ما أمكنه التعبير عن وجدانه، ووطنه–الجزائر– نحو الأمة العربية، وأكد انتماءه لهذه الأخيرة وكأنه بذلك يرد على المتقولين الذين يزعمون أن الجزائر أمة قائمة الأركان أو أنها تابعة لفرنسا، وإثبات بأدلة كثيرة مع عراقتها في العروبة، والإسلام، وعدد عناصرها منها اللغة، والدين، والمصير، والأهداف، والأوضاع الواحدة التي سلطت عليها بالقصد»[36].

ومما لاحظناه على شعر المدني رحمون القومي لجوئه إلى الماضي والتغني به والاغتراف من أمجاده، وجعله مادة للانطلاق ووسيلة للتحفيز وبعث همم الشباب وتذكير ضمائر الشعب الجزائري والبرهنة على عراقته، إذ يقول الدكتور عمر الدقاق في هذا الشأن : «وإن من الشعر القومي ما كان شديد الشبه بالشعر الحماسي القديم الذي يتسم بالطابع الذاتي الغنائي، وتتجلى فيه أيضا مشاعر الجماعة على السواء»[37].
وقد بث المدني رحمون في قصائده القومية قضية الانتماء والانتساب العربي للوطن الجزائري، فلا نكاد تعثر على قصيدة قومية أو وطنية ثورية إلا ونجد هذا الولاء المميز للمشرق العربي المسلم والانتقال إلى همومه ومشاكله وأحداثه، فينشغل بتطوراتها وينفعل لتغيراتها وكأنها تحدث على أرض الجزائر.

الهوامش :

1- الشيخ المدني رحمون بن أحمد بن بلقاسم بن عمر الأم عيشة نويوة، ولد سنة 1908م بقرية فرفار بناحية طولقة التي تبعد عن مقر ولاية بسكرة بنحو 35 كلم، درج الشاعر المدني رحمون على حفظ القرآن، اشتغل في شبابه بالعمل السياسي فسافر إلى أوروبا سنة 1929، ثم انتقل إلى المشرق سنة 1945 حيث اشرف على المهاجرين الجزائريين وكون شعبة المناضلين الجزائريين نظرا للظروف السياسية والأمنية آثر الشاعر العودة إلى الجزائر، فشارك في عدة معارك معروفة في منطقة الزيبان ببسكرة مثل معركة الميمونة 7 أفريل 1957، ومعركة النسينيسة في 9 جوان 1957، ومعركة حبل أمساعد 19 ماي 1937، ومعركة بن يونس 19 نوفمبر 1957 في أواخر شهر نوفمبر من عـــام 1958 وغيرها، شهد الشاعر استقلال الجزائر وواصل مسيرة الشعر بعد الاستقلال، فكان دوما المتابع لأحداث الجزائر حتى وافته المنية وكان ذلك يوم 8 نوفمبر1989 رحمه الله.

2- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط 2، 1977 ص 116.

3 -المدني رحمون، الديوان، جمع وضبط وتعليق عبد اللطيف حني، مخطوط، 1993، قصيدة ابكي يا صحراء عن صلاح الدين، ص 27.

4 -العالم المتصوف الديني شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الملقب بسيدي بومدين، مضت 8 قرون على قدومه من بجاية إلى تلمسان ملبيا دعوة السلطان أبو يوسف أحمد المنصور، فأسس المدرسة الخلدونية لتعليم الناس علوم الدين، وقد توفي بتلمسان ودفن بالمدرسة الخلدونية ويعـــرف ضريحه بسيدي بومدين.

5 -سورة الإسراء، الآية: 01.

6 - المدني رحمون، الديوان، ص 27.

7 - المصدر نفسه، ص 27.

8 - المصدر نفسه، ص 27.

9 - المصدر نفسه، ص 27.

10 - المصدر نفسه، ص 27.

11 - المصدر نفسه، ص 27.

12 - المصدر نفسه، ص 27.

13 - المصدر نفسه، ص 27.

14 – حاكم في إحدى القرى الفلسطينية، ذكره الشاعر في مذكراته لكن لم نتحصل على معلومات عن سيرته.

15 – المدني رحمون، الديوان، ص 27.

16– المصدر نفسه، ص27.

17– المصدر نفسه، ص27.

18 – المصدر نفسه، ص 27.

19 – المصدر نفسه، ص 27.

20 – المصدر نفسه، ص 28.

21 – المصدر نفسه، ص 28.

22– كمال عجالي، مصطفى أبو بكر بن رحمون حياته وشعره، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د ط، 1991، ص 187.

23 – المدني رحمون، الديوان، ص 28.

24– المصدر نفسه، ص 28.

25– المصدر نفسه، ص 28.

26 – المصدر نفسه، ص 28.

27–أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، ص 115.

28 – المدني رحمون، الديوان، ص 28.

29 – المصدر نفسه، ص 28.

30– صالح الخرفي، الشعر الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائـــر، د ط، 1983 ص258.

31 – محمد، الآية 7

32 – المدني رحمون، الديوان، ص 28.

33 – آل عمران، الآية 103.

34 – المدني رحمون، الديوان، ص 28.

35 – المصدر نفسه، ص 28.

36– كمال عجالى، مصطفى أبو بكر بن رحمون، ص 190.

37–عمر الدقاق، نقد الشعر القومي، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق–سوريا، د ط 1978م، ص 32.

douloureuses que l'on peut résumer par cette maxime : «Ne reste dans le lit de l'oued que ses galets !» c'est-à-dire Ne reste que la vérité et la justice

Références bibliographiques

Ouettar Tahar, L'As, Alger : Enap / Temps Actuels, 1981

Achour Christiane, La guerre de libération nationale dans les fictions Algériennes, Paris : Le Monde Editions, 1992

Kaempfer Jean, Poétique du récit de guerre, Paris : Librairie José Corti, 1998

Barbéris Pierre, Texte et Historicité in : Le Prince et le Marchand, Paris : Librairie Arthéme Fayard, 1980

Horne Alistair, Histoire de la Guerre d'Algérie, Paris : Albin Michel, 1980

Chikh Slimane, l'Algérie en armes, Alger : Office des publications universitaires, 1981

Centre national d'études historiques, le Retentissement de la Révolution Algérienne, Alger : ENAL-GAM, 1984

Pecar Zdravko, Réflexions sur la Révolution Algérienne in : le Retentissement de la Révolution Algérienne, colloque international d'Alger (24-28 novembre1984), Alger : Centre national d'études historiques, 1984

Ghamri Mohamed, le 1er Novembre dans les Aurès, Alger : Sned- SN El Moudjahid, 1977

1-Zdravko PECAR. Réflexions sur la révolution Algérienne in : le retentissement de la révolution Algérienne. Colloque international d'Alger (24-28 novembre 1984) centre national d'études historique. Page 291

N LE REMORD ET LE RALLIEMENT

Dans le roman l'auteur nous décrit ce que ressentent certains personnages tels que Baàtouche au cours de la cérémonie organisée par l'officier pour fêter sa promotion. Les remords le rongeaient à chaque instant où il n'était pas ivre. «L'image de sa tante, nue entre ses bras ne cessait d'apparaitre à ses yeux» page146. Se remémorant la scène du viol de sa tante Haizia Baàtouche éprouvait du remord «j'étais comme un animal sauvage, comme un âne…que la malédiction soit pour moi» page148 Le remord ressurgit chez Baàtouche au moment où l'officier l'invita à coucher dans son lit, comme le faisait L'As avant sa désertion. Cette attitude provoqua en lui une réaction inattendue qui l'amena à s'abattre sur l'officier «ses deux mains tremblantes enserrèrent la gorge et il serra de toutes ses forces puis tira son poignard et frappa, frappa au hasard ….Puis fixa le cadavre….Il revit la vache de sa tante se lever et s'écrouler, puis Mériana, la mère de L'AS tomber sur la face sans pousser de cri puis sa tante Haizia à ses pieds inanimée» page204. Ayant subi l'humiliation de la part de l'officier et se remémorant les actes odieux commis contre ses proches en particulier sa tante Baàtouche le harki se ressaisit et prit la décision, en compagnie d'autres déserteurs, de rallier les rangs des combattants et d'échapper à la sentence de mort retenue contre lui auparavant par Zaidane.

CONCLUSION : Faisant partie de la même génération que Mouloud Mammeri, Tahar Ouettar a su montré tout au long de son roman les mêmes voire d'autres facettes de la révolution Algérienne.» Par son impact sur les autres causes justes et son retentissement dans le monde la Révolution Algérienne avait et continue de faire l'objet d'études et de recherches pour montrer toutes les faces cachées du soulèvement de ce peuple qui avait subi tant d'humiliation , de sacrifices et d'atrocités de 1830 à 1962 . A travers l'histoire héroïque de L'As ce marginal rejeté par les siens l'auteur nous décrit les premiers moments de la révolution, ses péripéties tragiques ainsi que ses conséquences

qui subirent en général l'une des pires sanctions : l'égorgement «j'ai égorgé sept personnes….ils ont amené le premier et lui ont lié les mains….Ils l'ont couché par terre et quelqu'un s'est avancé pour lui tenir les pieds….Un autre lui a posé le pied sur la poitrine….Je lui ai alors demandé :si tu mens je t'égorge. Combien de fois as-tu rapporté des informations aux soldats ? IL m'a répondu «par le saint coran, je n'ai trahi qu'une seule fois j'avais peur et j'avais besoin d'argent» .Le couteau était très tranchant. D'un seul coup sur la nuque j'ai fait voler sa tête que j'ai prise entre mes mains» page 117 La fermeté de la révolution apparait dans l'attitude du cheikh qui n'hésite pas à exécuter les militants communistes ayant rejoint le maquis sans vouloir démissionner de leur parti. «Il faut renier vos convictions idéologiques et embrasser l'islam…Vous avez le choix : me répondre tout de suite ou plus tard» Et Zaidane de répondre «Et s'il n'y a pas de suite à ces exigences, y aurait-il une autre solution ?» «Ah ! Oui : l'égorgement, répondit calmement le cheikh» page 173

M BILAN ET LECON A TIRER DE L'ACTION MILITAIRE ET POLITIQUE

Au lendemain des opérations militaires Zaidane commence la présentation de son compte rendu sur son unité puis il demande aux responsables des autres unités d'en faire autant et qu'il fasse enfin une analyse brève du sens des opérations, de leurs résultats sur le plan politique et militaire. Puis il s'abandonne à ses réflexions et ses impressions concernant Nacer le responsable du deuxième groupe «lorsque ce jeune saura ce que signifie égorgé sept êtres humains en une seule nuit même des traitres ou les pires ennemis du pays, d'une seule main….il faut qu'il soit contrôlé de prés et que je m'occupe de sa protection et qu'il n'ait plus à accomplir pareille tâche….J'aurai dû normalement le conseiller avant…..superviser l'opération et y faire participer tous les autres…..J'ai fait une erreur….c'est une leçon» page126

réaction est immédiate et la vengeance s'abat sur la population civile en premier lieu.

Ordonnant le bouclage du village pour retrouver Kaddour l'officier, tout en décidant l'exécution du plan, ordonna à ses deux exécutants : le garde champêtre et le harki Baàtouche d'appeler le sergent Stéphane mais en vain. Pris d'une colère excessive suite à la découverte du corps du sergent assassiné par les déserteurs en fuite vers le maquis, l'officier donna l'ordre «à toutes les unités !, à toutes les patrouilles ! Rassembler tous les villageois, tous sans exception : hommes, femmes et enfants, au stade municipal. Cherchez bien Kaddour Ben RBI 'i El Barkati et L'As ould Mériana. Faites attention ils sont armés» page 10 Surpris par la désertion inattendue de L'As, L'officier décida d'assouvir sa soif de vengeance en se rendant à la maison de RBI'I père de Kaddour et le vieux Sebti père de Zina, sans oublier de promouvoir Baàtouche au grade de sergent au lieu de caporal comme prévu auparavant. Le degré de la répression décidé par l'officier finit par faire abattre la vache pleine et souffrante de l'oncle RBI 'i et la tante Haizia par Baàtouche puis l'exécution de Mériana mère de L'As. L'autre aspect insupportable et horrible de la répression concernait l'exécution de l'ordre de l'officier par le sergent Baàtouche de violer par deux fois sa tante Haizia puis l'abattre à coup de hache. A cette humiliation s'ajoute l'exécution de dix notables en représailles de la mort du sergent Stéphane. Désireux d'aller plus loin dans la répression, l'officier ordonne à Baàtouche «il faut que tu ailles dans chaque rue du village et…. Que tu enfonces la porte de qui tu veux…. Ah ! Je peux voir quel degré d'humiliation peuvent accepter les sauvages de ce village» page 146 La répression et les exaction avaient concerné aussi Zina, fiancée de Kaddour qui s'est jetée dans un puits lorsqu'elle fut enceinte d'un harki.

L LA FERMETE ET LA DETERMINATION

Soucieux de protéger la révolution de tout danger les responsables politiques et militaires avaient opter pour des méthodes dures et efficaces voire cruelles à l'égard des traitres

du 1er Novembre, fait appel à tous les Algériens de rejoindre ses rangs à titre individuel.

Engagé dans la lutte de libération Zaidane se plonge de temps à autre dans ses souvenirs qui lui rappelaient ses penchants communistes «si notre marche se renforce, nous serons les géants des géants ; comme les soviétiques, comme les chinois»page 83 L'engagement des communistes dans la révolution était perçu comme contraire à certains principes du F L N. Ceci explique l'attitude douteuse du grand responsable à l'égard de Zaidane qui lui répond «le communisme n'est pas un habit qu'on ôte quand on veut, mais une idéologie qui repose avant tout sur la connaissance des réalités de la vie» page84 et il dit «le communisme est bon pour les pauvres et contre les riches et les grands propriétaires» page84 et de préciser «tous les moudjahidine sont des pauvres et chaque nuit nous liquidons un grand nombre de riches parce qu'ils sont contre nous et contre la révolution» page85 Plongé dans ses souvenirs Zaidane pense «ce qui les gène, c'est la position du parti concernant l'intégration dans le Front….. Front d'individus et non de partis ….Il n'y a aucune raison d'exiger des autres partis de se dissoudre, surtout que nous ne sommes qu'au début du chemin» page 157 Militant dans le Parti communiste bien avant la révolution Zaidane pense «le jour où j'ai décidé de rejoindre le maquis, je n'ai demandé l'avis de personne, ni du parti, ni de quelqu'un d'autre et pourtant, je suis membre du comité central…Si l'on me demande : est- ce que j'ai quitté mon parti, je répondrai immédiatement non … Je ne quitterai pas le parti….Et je continuerai à lutter pour l'indépendance nationale» page159 La présence des militants communistes algériens ou étrangers dans la révolution, n'ayant pas démissionné de leur parti, était perçue par les responsables du F L N comme une entrave à l'unification des rangs dans une phase aussi cruciale.

K LA REPRESSION ET LES EXACTIONS DES HARKIS

Dés que l'armée française subit un coup dur ou une attaque de la part des combattants qui se termine par des pertes humaines la

et tenter de rejoindre le maquis avant le couvre feu. Mais leur désertion rencontra des difficultés à un poste de contrôle. Dirigés par le caporal Ramdane les quatre déserteurs, à l'exception de L'As, mirent fin à l'accrochage qui a été meurtrier et qui s'est soldé par la récupération de six armes et un poste de transmission ; puis ils s'enfoncèrent avec quelques craintes dans les taillis où L'As retrouva son père Zaidane.

I L'ACTION ARMEE : LA REPARTITION DES TACHES

Au départ de la révolution les unités des combattants étaient réparties en groupes qui pouvaient provoquer l'effet de surprise sur l'ennemi pour éparpiller ses troupes. Ce que fit Zaidane en chargeant ses éléments d'exécuter des missions de sabotage des installations électriques et hydrauliques, des poteaux télégraphiques, incendies de la ferme du colon, attaque du poste militaire de la gare ferroviaire ainsi que l'exécution de traitres dans les douars. Ces interventions simultanées permettaient à l'A L N d'organiser une diversion qui faciliterait au convoi d'armes en provenance de la frontière de passer sans être remarqué par l'ennemi. Après les dernières consignes données Zaidane rappela à ses éléments l'importance des mules dans leur déplacement du fait de leur utilité et efficacité «car elles commencent à connaitre toutes les pistes et tous les passages….elles se sont exercées à la guerre, elles se couchent au moindre coup de feu et savent s'infiltrer à travers les chemins de montagne vers les forêts….elles sont devenus en fait une partie intégrante de la guérilla» page 81

J LA REVOLUTION ET LE COMMUNISME

Avant le déclenchement de la révolution algérienne en 1954 les revendications politiques, économiques et sociales s'étaient exprimées par le biais de partis politiques nationalistes (Etoile Nord Africaine, Parti du peuple Algérien, Mouvement pour le Triomphe des Libertés Démocratiques, Parti Communiste etc.)Mais l'Administration coloniale n'avait jamais reconnu les droits des Algériens et tenu ses promesses de réformes. Au départ le Front de Libération National avait, par sa déclaration

savoir que ceux qui l'ont précédé avaient supporté la torture et ils n'ont pas avoué car ils ignoraient tout des autres phases de la torture à savoir : l'immersion dans l'eau avec l'électricité l'arrachement des ongles qui est la plus difficile.

Alors qu'il était torturé et qu'il faisait tout pour atténuer ses souffrances, des idées lui passaient par la tête «lorsque j'ai raconté à ma mère ce que m'avait dit Zaidane dans le train, elle a baissé la tête et a balbutié : «les anathèmes des parents se réalisent dans leur progéniture» page 66 Mais il pensa avouer afin d'alléger ce qu'il endurait comme souffrances et par la même gagnait du temps. Profitant de l'amitié qui le liait avec l'officier qui se rappelait sa rencontre avec lui «je l'ai connu le deuxième jour de mon arrivée…Je l'ai obligé à se déshabiller…Il était stupéfait, ne comprenant pas….Et je l'ai obligé à boire toute une bouteille de vin puis je l'ai précédé au lit, tout nu…Il me frappait chaque fois qu'il terminait sa besogne….Jusqu'au jour où il a pris l'habitude» page 67, L'As pensa dénoncer le garde champêtre qui l'avait toujours puni pour ses actes et ses agressions et lui faire subir les mêmes souffrances «le traître…..Le mouchard !...Quatre tentatives d'exécution et il est toujours vivant»page 70 et il s'apprêtait à le faire «c'est lui ! Lui ! Je travaille avec lui !il m'a menacé, mon capitaine. C'est lui qui fait déserter les soldats !» Page 72

Plongé dans ses idées tumultueuses et sous l'effet de l'alcool L'As pense que le chambitt ne mérite pas d'être dénoncé car «il gagnerait beaucoup plus qu'il ne perdrait …Je ne l'accuserai pas…ces fouets, ces clous sont nobles, car ils ne fouettent, ne lacèrent et ne torturent que les combattants, les hommes libres et je ne les laisserai jamais toucher le corps d'un traitre» page 75

G LA DESERTION

Après la neutralisation du sergent qui était chargé de torturer L'As, ce dernier enfila les habits du sergent et se prépara à quitter la caserne en compagnie des autres déserteurs en formant une fausse patrouille. Ravi d'être hors de la caserne L'As se chargea d'ouvrir la serrure d'une voiture puis à la faire démarrer

jurons en français et en arabe et par-dessus tout….Je ne peux pas me passer de toi !...Je ne peux pas !.... Je suis malade …Je ne suis pas un efféminé» page 61 .L'action psychologique continue sous un autre thème «toutes les preuves et tous les renseignements démontrent que tu fais fuir les soldats de ma garnison vers l'ennemi ….Dis moi seulement le nom de la personne pour laquelle tu travailles….Je veux te sauver» page62 Résistant et ne voulant pas céder au piège de l'officier, L'As se remémore la vision que les autres avaient de lui «ils pensent que je ne suis capable d'aucune tâche sérieuse dans la vie, ils me considèrent comme un parasite qui n'a d'autre chose à faire que de rendre leur vie impossible»page 62 Mais c'est au cours de cet interrogatoire que L'As avait découvert celui qui l'avait dénoncé, il s'agit du harki Baàtouche, le cousin de Kaddour. Ce harki avait déserté avec la complicité de L'As pour revenir ensuite. La confrontation fit réagir L'As qui lança en direction du harki «un crachat au visage…Puis lui donna des coups de tête qui l'envoyèrent à terre ….Et il se retourna vers l'officier en hurlant Moudjahid ! Moussebil ! Moussebil ! Militant ! Fellagha ! Je t'ai eu espèce de fumier» page 63

H LA SEANCE DE TORTURE

Habituait à ces lieux avant son arrestation L'As rejoigna à son tour la chambre de tortures pensant «depuis mon arrestation, je n'ai cessé de me voir ici, dans cette chambre-commencement -et fin de toute chose» page 64

L'As était au courant de ce qui l'attendait comme supplices avec trois opérations successives :

Dans la première «on lui ôta ses vêtements, on lui lia les pieds et les mains avec du fil de cuivre puis on le jeta sur une table en bois dont la surface était garnie de clous et on commença à le fouetter»page 65 Mais sa réflexion se limitait à l'idée de tenir longtemps malgré les souffrances «il se tordit de douleur et hurla de toutes ses forces» et tenta de penser à autre chose , à Kaddour et gagner du temps pour lui permettre de s'éloigner du village. La détermination de L'As se renforce davantage à l'idée de

progresser, il serait parmi les plus grands chefs militaires…discipliné….qu'il reste à son poste, chef des moussebilines afin de rester en contact permanent avec les masses»page 127

F LA CONCERTATION ET LA REORGANISATION P144

L'arrestation de L'As et la crainte qu'il avoue avait suscité des interrogations de la part de Zaidane et des autres combattants ainsi que la réaction de Kaddour qui ne voulait pas revenir au village «je veux être un djoundi, avec un fusil, tuer les soldats participer aux opérations et me défendre» page58 Cette volonté de rester au maquis renforça l'idée de Zaidane «toi misérable commerçant, toi aveugle paysan, je dois te transformer rapidement ….Tu resteras avec nous, valeureux, tu resteras avec nous» page 58 L'arrivée de Hammou annonçant l'encerclement du village par les soldats n'avait pas mis fin aux interrogations de Zaidane et Hammou concernant l'action de L'As. Mais Kaddour leur rappela que L'as l'avait averti lors de son arrestation. Sur cela Zaidane décida d'établir un nouveau plan et de quitter l'endroit. Les relations hiérarchiques constituaient un problème sérieux pour les chefs militaires qui ne pensaient pas à leur remplacement par leurs subordonnés. Zaidane rassembla ces derniers et envisagea de choisir ou désigner son remplaçant en la personne du chef de la première unité. L'assistance décida de procéder à l'élection du candidat désigné choisi par le commandement. Zaidane écarte la candidature de son frère Hammou car» ce serait au détriment d'un autre secteur extrêmement important : le fida est l'âme de la révolution» page 135 Et «que le commandement n'est pas héréditaire…ni les mouhadjirs, ni les ançar» page 141

G COLLABORATION ET DEFI

Emprisonné à la caserne L'As subit de la part de l'officier une séance d'action psychologique axée sur son amitié avec lui «notre amitié date de plusieurs mois, il faut qu'elle continue… je t'aime pour plusieurs raisons… Tu tiens l'alcool tu sais jouer aux dominos et aux cartes, tu maîtrises tous les

en finir avec L'As, fils de Mériana» page 53 Et Zaidane de préciser devant la détermination de L'As «je peux te dire qu'ils préféreraient peut être que tu leur rendes des services autrement plus importants que l'exécution du capitaine» page 53 Une fois dans le train la poursuite de la discussion allait révéler «l'autre vérité, celle qui pouvait être amère ou douce, selon la manière dont elle serait accueillie» page 52 celle de Zaidane en direction de L'As qui découvrit qu'il était son fils «oncle Zaidane, toi mon père ? Toi !...Toi !....J'ai donc un père ! Cette rencontre avait renforcé la relation affective entre le fils et le père qui voulait savoir» pourquoi on dit que tu es rouge, alors que tu es brun ….L'officier. je l'ai entendu parler de toi et te citer en tête de liste. Ils t'arrêteront cette semaine….C'est pour ça que je te cherchais….Tu es le seul qui ne m'aies pas fait du mal, ni insulté ma mère…Et puis tu es le seul qui haïsses les riches et les insultes. Le seul après moi, bien sûr» page 55 Cette rencontre de Zaidane avec son fils L'As lui a permis d'exprimer ses sentiments» j'ai toujours placé en toi de grands espoirs….J'étais persuadé que jamais tu ne trahirais, car tu ne convoites rien et tu n'as rien à perdre…..Il faut que nous changions de vie…..Je vais te quitter …pour rejoindre le maquis…contacte ton oncle Hammou pour travailler avec lui….sache comment te comporter…Le mot de passe pour t'introduire est le suivant : «Ne reste dans le lit de l'oued que ses galets»…Tu le diras trois fois» page 55 Surpris par la déclaration de Zaidane «Eh oui ! Si tu savais, frère Hammou, ce que représente L'As pour moi ton frère, pour nous deux !» page 82 Hammou réagit sans s'en rendre compte»L'As est de notre famille, L'As est issu de nous ! Gloire à Dieu, le tout puissant ! C'est donc pour ça qu'il n'a pas cessé, depuis son ralliement à la lutte, de dépenser chaque sou…..pour notre maison et de m'appeler avec amitié : mon oncle» page 82 L'attachement familial dans la lutte s'exprime par la réflexion de Zaidane concernant son frère Hammou «s'il était instruit ! Si j'avais du temps pour l'instruire ! ….Il a une grande capacité d'assimilation….s'il pouvait

qui «sortit le sac de dessous sa chemise, l'ouvrit, en prit une feuille usée couverte de symboles et de chiffres et une liasse de billets» page49 Rompu depuis longtemps à l'action armée Zaidane, ayant pitié de Kaddour, se dit «la révolution transforme l'homme et plus elle est profonde, plus vite se fait la transformation …Kaddour doit se transformer en un militant révolutionnaire, débarrassé des complexes et des habitudes du passé : il doit s'élever jusqu'au niveau de la révolution» page 50. Kaddour subit cette transformation à son arrivée avec le responsable financier qui examinait les comptes et déchiffrait avec lui les symboles et les chiffres «dix millions en espèces, un million dépensé en vêtements et en chaussures, cinq cent mille répartis entre les veuves de martyrs et des combattants mutilés cent mille pour les médicaments» Puis avec le responsable politique concernant la situation politique qui se manifeste par «le moral est très bon … Surtout après la dernière bataille et l'exécution de Sebti le traître…Les désertions de soldats et de harkis ont provoqué un grand choc dans les rangs ennemis….La situation est dans l'ensemble bonne à l'exception de ce qui s'est passé aujourd'hui….de L'As» page50 L'arrivée de nouvelles recrues constituait pour les responsables politiques et militaires une occasion qui leur permit de leur demander de «suivre l'exemple de leurs compagnons et responsables, dans le courage la patience et la bonne conduite …..Et rappeler que la lutte pour la justice et le combat contre l'ennemi ne tiennent compte ni de l'ancienneté ni de la priorité comme facteur principal, que seules la persévérance et la résistance sont des critères de militantisme et de combativité» 128

E LA FAMILLE DANS LA REVOLUTION

La rencontre inopinée de Zaidane et de L'As dans la gare avait permis à Zaidane de découvrir que L'As s'intéressait aux combattants «Est-ce que tu connais les fellagas» page 52 Mais Zaidane évite de répondre et L'As de poursuivre «si tu les connais, demande leur s'ils veulent la mort du capitaine et si, au cas où je le tuerai, ils m'accepteront parmi eux ?» «Je voudrais

Concernant la composante des rangs des combattants Zaidane pensait»s'ils étaient tous des ouvriers….Si tout au moins la moitié, était constituée d'ouvriers, la tâche serait facile…Je saurais comment m'adresser à eux, comment gagner leur cœur et leur raison…mais voilà, c'est un conglomérat de commerçants de chômeurs et d'agriculteurs, de militaires de carrière de l'armée française …..Oui j'ai peur d'affronter la réalité….en Chine la direction était sur les positions idéologiques des ouvriers tandis qu'ici… la direction aussi est constituée du même mélange» page 125

D LA RENCONTRE DES ANCIENS ET DES NOUVEAUX AU MAQUIS

Devenu moudjahid Kaddour se mit à la tâche avec Hammou «acheter des médicaments, des pataugas, des denrées alimentaires qui prenaient ensuite une destination inconnue» Mais son étonnement fut grand lorsqu'il vit Hammou»le pauvre le misérable, sortir des millions de sa poche, alors que sa famille se tordait de faim, que ses habits déchirés étaient, comme d'habitude, en loques» page44 L'engagement de Kaddour dans l'action de soutien aux combattants lui avait permis de continuer le travail de Hammou qui l'informa de ses tâches à l'exception de faire déserter les soldats algériens de la caserne. Celle-ci était dévolue à L'As qui s'est présenté dans la boutique de Kaddour «ivre, crasseux, un œil au beurre noir….Et répétant par trois fois le mot de passe… «.Ne reste dans le lit de l'oued que ses galets !» Au maquis Kaddour par prudence évitait toujours la discussion avec des personnages qui étaient très éloignés de lui et avec lesquels il n'avait aucun lien. La raison était que «ils étaient tous d'un autre monde, s'habillaient à l'européenne allaient la tête nue et parlaient généralement en français» page 48 Dés son arrivée au maquis Kaddour retrouve si Zaidane qui lui donna une forte accolade et le présenta au reste du groupe sans lui permettre de discuter sur les situations des uns et des autres en réponse à une question concernant Hammou» il va bien Tu le verras cette nuit» .L'attitude ferme de Zaidane fit réagir Kaddour

vrai c'est la justice….dans ce pays il n'y a pas de justice….Mais le jour viendra où il ne restera dans le lit que ses galets, que le vrai et la justice» «les français sortiront….Tout le monde dormira le ventre plein … Nous apprendrons l'arabe les langues étrangères….Nous serons instruits, propres, beaux, respectables comme les français…..Nous ne sommes pas les seuls à vouloir tout cela ….. En Indochine il y a des gens comme nous (qui) étaient gouvernés par les français et la France a fui, vaincue» page 38

La pression continue de Hammou sur Kaddour «je te jure sur ta tête, cousin, qu'il est trop tard ! C'est comme ci, ou comme ça. Il faut choisir son camp. D'un côté, on égorge au couteau, de l'autre, on tue par balles» page 40 avait fini par faire réagir Kaddour «Hammou, tu parles de la révolution comme si elle est était proche, ici même dans la rue et que je refusais de me joindre à elle …Oui je veux. Personne ne veut : on est tous obligés !» La notion d'obligation renforçait l'action de Hammou qui y voyait la révolution comme «un moyen pour les humbles de sortir de la situation…de misère, de malheurs, d'ignorance, de maladie et d'injustice… Pour cela il y avait d'autres chemins que la révolution, la révolte contre les maîtres» page 42 Voyant que Kaddour hésitait encore et «voyait la guerre s'étendre, jour après jour, la France se déchainer dans la répression, de sorte que nul ne pouvait rester neutre» Hammou réagit à la question de Kaddour» Tu es donc en contact avec eux ?» par cette réplique» Et toi, t'es-tu décidé ? Hammou ne fléchit pas devant la position de Kaddour qui enfin réagit» il faut, il faut que je me joigne à vous…Je suis avec vous … Je suis l'un des vôtres» page43 L'engagement concernait aussi les déserteurs Algériens qui avaient démontré par leurs actions leur attachement à leur pays et à leur peuple notamment le caporal Ramdane qui avait reçu une formation militaire classique et une expérience appréciable au Vietnam. Ces références avaient retenu l'attention de Zaidane» il faut que je veille particulièrement sur lui et que je l'aide à approfondir sa prise de conscience» page124

intérieur «je me suis attardé, je me suis trop attardé, c'est comme si j'avais voulu, par peur, retarder le moment d'affronter l'avenir inconnu, cet avenir qui ouvre toute grande sa gueule devant moi comme la mort» page20

Surpris par sa mère «vous avez été découverts…..Ne t'en va pas avant de connaître le sort de L'As» Kaddour prit la décision de prendre la fuite et de quitter le village sans oublier d'embrasser sa mère. L'enrôlement dans la révolution obéissait à une organisation qui consistait à charger les potentiels recrues de tâches précises et dés qu'ils sont découverts ils sont pris en charge par d'autres militants tels que Ahmezi et si Ferhi de faire évacuer tous ceux qui étaient recherchés et suspectés «tu l'emmèneras avec toi. Il passera la nuit chez toi, puis tu le conduiras à la djemaâ. Secret absolu» page32. Kaddour suit à son tour le même chemin «tous les jeunes que Kaddour avait déjà mobilisés étaient passés par ce même chemin» page32

C OPERATION CONVICTION ET ENGAGEMENT

Dans une partie de son roman l'auteur décrit à travers une discussion entre Hammou et Kaddour sur la guerre et l'action des frères qui visait «soit des français, soit des riches, des notables, des caïds, des khojas et des gardes champêtres» page37 ainsi que leurs visions des choses, leurs souvenirs et leurs craintes de subir le même sort que lors des événements du huit mai 1945 «Pourvu seulement qu'ils ne nous fassent pas un autre huit mai» répondit Kaddour. Hammou engagé depuis un mois dans la guerre tentait de convaincre son cousin Kaddour «je te jure…Qu'il ne restera dans le lit de l'oued que ses galets» c'est-à-dire «le vrai, le vrai….il ne restera dans ce pays que le vrai» En essayant de dissiper les questionnements de Kaddour concernant la force et les moyens de la France par rapport à celle des frères «la France est très puissante…Les frères n'ont pas de canons…Le huit mai, aussi on a dit qu'il ne restera que le vrai. Et de fait, seuls les français sont restés !» page37. Hammou ne connaissant rien à la politique ressortait les idées et les arguments qui avaient servi à Zaidane pour le convaincre lui «le

Mais ses défenseurs qui étaient peu nombreux pensaient que «si la révolution avait soupçonné une quelconque trahison…. elle l'aurait fait exécuter comme tous les traîtres» page15

Toutefois un seul argument restait en faveur de L'As car «nul ne pouvait l'accuser avec précision d'une quelconque trahison ….Tous ceux qui avaient été arrêtés et torturés dans la caserne une fois libérés, ne tarissent pas d'éloges à l'endroit de L'As pour les services qu'il leur avait rendus ….A aucun moment, il n'avait hésité à témoigner en faveur de ceux qui le lui demandaient» page15 Concernant cette catégorie d'individus que la société avait condamnés la révolution s'est engagé dés le début à les récupérer par des campagnes de sensibilisation sur des thèmes tels que la patrie, la nation, l'exploitation du colonisateur, l'alcool, le jeu, la religion etc. Cette action avait atteint ses objectifs dans le recrutement de ces marginaux qui sont devenus par la suite de grands chefs et responsables militaires et des martyrs illustres.

B L'ENROLEMENT DANS LA REVOLUTION

L'arrestation de L'As par la patrouille de retour d'une opération dure avec les rebelles n'a pas étonné les spectateurs à l'exception de kaddour qui avait reçu un message de la part de L'As, malgré l'injure «la scène vous plaît, hein ? Espèces de cochons ! Votre heure à tous a sonné» page 16, qu'il le lui avait faite et à travers Kaddour il était destiné aux habitants du village. La scène de L'As trainé par les soldats avait laissé Kaddour désemparé, inquiet et plongé dans sa réflexion et ses suppositions concernant l'attitude de L'As devant les militaires et son éventuelle arrestation. Dans son roman l'auteur nous révèle que l'enrôlement visait en premier lieu les jeunes paysans et villageois qui avaient subis, les premiers, les effets de la guerre. Parmi eux Kaddour qui avait décidé de rejoindre le maquis sans pour autant l'annoncer ni à sa mère, ni à Zina qui s'était emparée de tous ses sentiments. «Zina, je pars pour une affaire urgente. A une autre fois…..Kaddour, tu n'es pas comme d'habitude…..T u sauras plus tard» et Kaddour dans son for

caoutchouc cousus de fil de fer rouillé en guise de chaussures, le visage sec» page 10. Comme dans tout roman traitant de la révolution l'auteur nous introduit dans un espace celui du village qui reste le lieu idéal pour décrire le déroulement des événements car la révolution ne pouvait se déclencher que dans cet espace et ensuite se propager ailleurs.

A LES MARGINAUX ET LA REVOLUTION

Au déclenchement de la révolution la population du village détestait encore l'AS le personnage principal du roman qui venait d'être arrêté par l'armée française. L'auteur fait le portrait de ce marginal qui ne fait pas l'unanimité autour de lui à tel point que le vieux RBI'I déclare «C'est L'AS conduit par une patrouille. Fasse Dieu qu'ils nous en débarrassent une fois pour toutes» page 11. Aux yeux des villageois L'As est «ce bâtard dont la mère ignorait quel père l'avait conçu était venu au monde paré de tous les vices…..Un chenapan dont personne, ni les grandes personnes, ni le garde champêtre ne pouvait venir à bout.» page 12. Avec l'âge le comportement du bâtard n'a pas changé notamment envers sa mère qui voulait lui épargner tous les châtiments du garde champêtre mais des «vices imprévisibles s'ajoutaient à la liste déjà longue qu'il comptabilisait : pillage des magasins la nuit, le vin, le hachisch, le jeu …Tant et si bien que la prison était devenue une demeure principale» page 13. Avec le début de la guerre nombreux lui prédirent sa fin prochaine mais L'As «sut comment ruser avec la vie et se moquer de tous ses ennemis .Il sympathisa avec les soldats, tourna autour de la caserne, tant et si bien qu'à la fin, il prit possession du bureau de l'officier en personne» page 14 .Ces liens solides entre les deux personnages suscitèrent chez les villageois des opinions contradictoires : pour les uns en utilisant sa mère L'As fournissait l'officier en prostituées, pour d'autres il était un indicateur, peut être il a été embarqué dans une trahison .

révolution l'avait marqué du fait du retentissement qu'elle avait eu dans le monde entier. Comme ultime aboutissement de tous les soulèvements populaires du XIX siècle réprimées sauvagement par l'armée coloniale française la révolution algérienne en consentant d'immenses sacrifices «est devenue le symbole dynamique de la politique de non alignement, le drapeau de la lutte du monde des non alignés pour le droit des peuples à l'autodétermination et au libre développement, pour le droit des Etats à l'indépendance»[1] La reconnaissance internationale de la révolution algérienne ne pouvait laisser indifférents les chercheurs, les romanciers, les poètes, les artistes, les dramaturges à montrer toutes les facettes du long combat mené par le peuple algérien.

I FACETTES DE LA REVOLUTION ALGERIENNE DANS LE ROMAN DE TAHAR OUETTAR «L'AS»

L'auteur débute son roman par le présent qui est fait des souvenirs des vieillards en particulier du cheikh RBI 'i, entouré d'une vielle femme et d'une veuve, qui commentait l'état des choses du présent par rapport au passé. Ce dernier permet d'évoquer les morts, leur rendre hommage, chanter leur gloire. Le présent «peut être ce désespoir qui nous étreint provient-il de l'enchevêtrement de ces deux temps …. Voir nos chers martyrs réduits à une simple carte exhibée une fois par trimestre au bureau des pensions, puis remise à sa place avec les quelques sous obtenus, en attendant la pension suivante» page9 Le monologue intérieur du cheikh RBI'I nous rappelle cette triste réalité des premières années après l'indépendance où les parents veuves et enfants des martyrs vivaient des situations difficiles voire tragiques du fait de la somme modique qui leur était octroyée ou versée par les autorités. Les conséquences économiques (absence de ressources) et sociales (exode rural important vers les grandes villes) ont eu un impact sur le moral des démunis et en particulier les veuves et les enfants de martyrs «tels nous sommes aujourd'hui: turbans crasseux sur la tête burnous défraichis, usés jusqu'à la trame, bouts de cuir de

LA REVOLUTION ALGERIENNE DANS LE ROMAN ALGERIEN D'EXPRESSION ARABE

MOHAMED BOUABSA

INTRODUCTION : Si dans le précédent article nous avons traité du thème de la guerre de libération dans le roman de l'auteur francophone Mouloud Mammeri «l'opium et le bâton» cette fois ci notre démarche portera sur le même thème mais avec un auteur et un roman différents ; il s'agit de l'auteur arabophone Tahar Ouettar et son roman «L'AS». Se sentant coupable de ne pas se consacrer à relater les péripéties de la révolution algérienne bien que l'idée de le faire remonte à l'année 1958 après l'annonce de la formation du premier gouvernement provisoire l'auteur reconnait dans l'avant propos de son roman qu'il n'était pas historien et qu'il n'a nullement visé à faire de ce roman une œuvre étroitement liée à l'histoire et qu'il a choisi un point de vue pour jeter un regard sur une période de la révolution. Tahar Ouettar est considéré comme l'un des premiers auteurs arabophones faisant partie de la première génération qui s'est intéressé à la production et la publication de romans en langue arabe répondant ainsi à un besoin de plus en plus important de la part des lecteurs au lendemain de l'indépendance puis après. Les auteurs algériens d'expression française ou arabe de la génération des années cinquante et de la génération quatre vingt avaient les mêmes soucis et les mêmes préoccupations concernant les contenus de leurs romans liés à la révolution. Cette attitude s'explique par leur appartenance à ce peuple qui a tant souffert du système colonial français d'une part et leur ferme volonté de témoigner et mettre à nu voire montrer les différentes facettes de cette guerre et ses conséquences d'autre part. Aucun auteur ne pouvait considérer sa mission accomplie et ses objectifs atteints s'il s'attachait uniquement à traiter des problèmes de la société de son époque car la